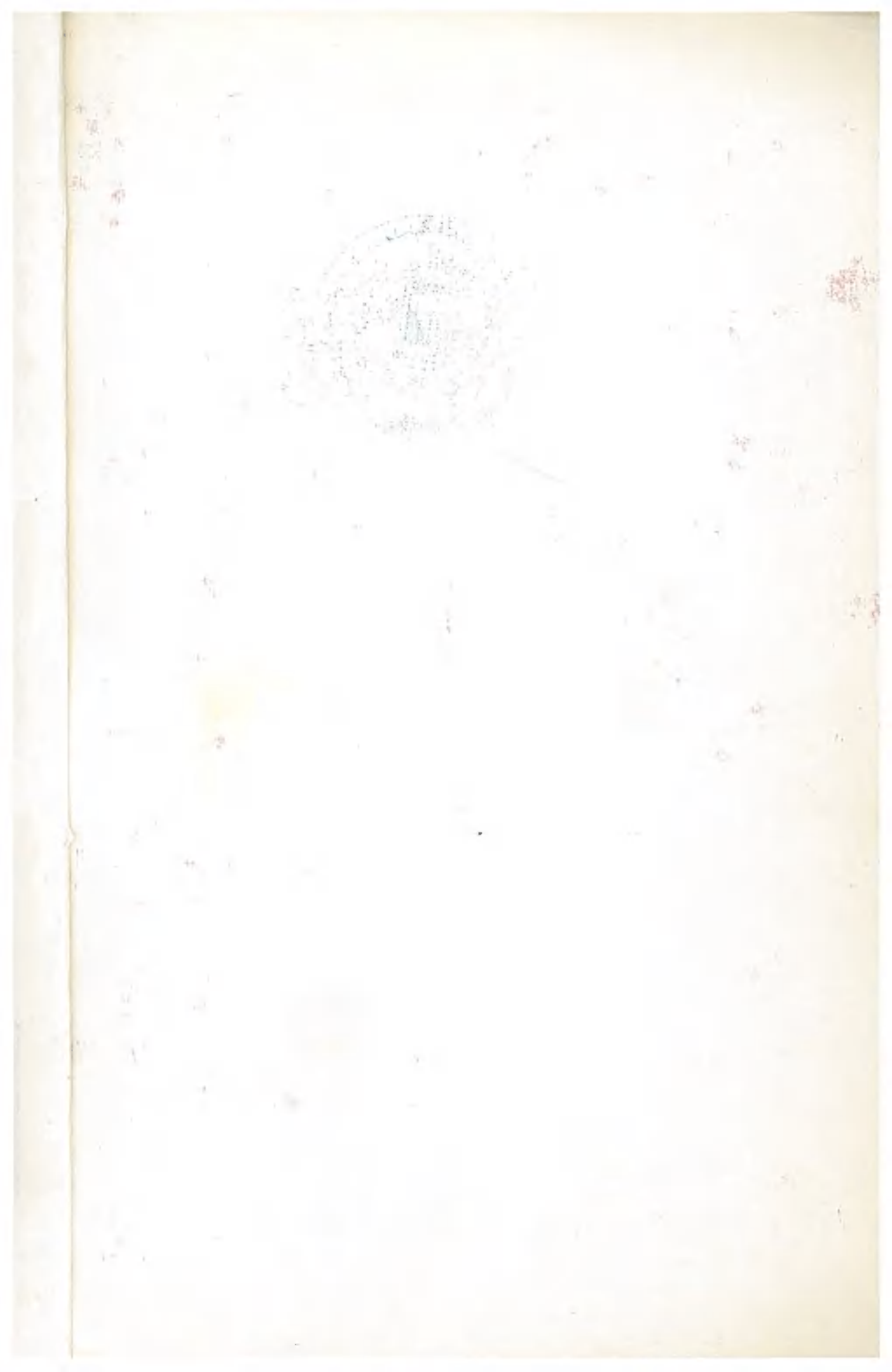
جذور

القضية الفلسطينية

الدكتور إميل توما



Roots of the Palestine Problem

b y

Dr. EMILE TOUMA

اصدار المكتبة الشعبيـــة في الناصرة

طبـــع في مطبعـــة الاتحاد التعاونيـة بحيفـــا

جذور
القضية الفلسطينية

الدكتور اميل توما



المحتويات

الصور من مجموعة الاستاذ عارف العارف

صورة الغلاف : بريشة ليلى علوش

[illegible]

[illegible]

[illegible]

- هذا الكتاب « صدر » في صورته الاولى على شكل حلقات دراسية في مجلة الجديد على امتداد سنتين تقريبا • وكان القصد من نشر تلك الحلقات جلو صفحات من تاريخ القضية الفلسطينية وتحليل أحداثها على أسس علمية موضوعية ••

وقد لا يستطيع أحد ان يزعم وجود نقص في الكتب والابحاث التي تناولت القضية الفلسطينية •• فهي تكاد لا تحصى ولا تكف دور النشر عن اصدارها •• ولكن المرء يستطيع ان يدرك أن هذا الفيض بحد ذاته يوحي بتعقيد القضية وحاجتها الى تعميق الوضوح وتكثيفه •••

ولهذا أحسست بضرورة كتابة هذه الحلقات •• فكتب القضية الفلسطينية في العالم الغربي لونتها الصهيونية بحيث أضاعت موضوعيتها ، وزيفتها النظرة الامبريالية حتى أفقدتها الصلة بالعلمية ••

أما الكتب في العالم العربي فأكثرها أهمل عناصر خطيرة اجتمعت في القضية الفلسطينية وضخم عناصر أخرى فأضاع التوازن ••

ومع هذا ففي هذه الكتب معطيات غزيرة وفي بعضها فصول مثيرة •••

وهي كلها دليل على عنف المشاعر التي أطلقتها وتطلقها هذه القضية •••

وعلى هذا الضوء فمن المتطاول على التاريخ أن أدعي ان هذا الكتاب سيضع الامور في نصابها ويحدد الخطوط الفاصلة في قضية لا تزال ملتهبة وتؤلف عقده القرن العشرين الكبرى •••

انما من حقي ان أقرر انه محاولة لفهم القضية الفلسطينية على ضوء فرضيات الاشتراكية العلمية في التاريخ •••

وهي محاولة اولى عريضة أخذت التطور العام والملامح الجوهرية محورا لها ولم تتوقف طويلا عند قضايا على غاية من الاهمية في الصراع الاجتماعي ••

وهذا يعني أن الميدان لا يزال رحبا •• والحاجة ملحة ••

بديهي ان نوايا الكاتب لا تفرض على القارىء التزامات عينية ولا تنتقص من حقه في الحكم عليه ذرة واحدة •

اميل توما

الفصل الاول

نشوء العقدة الفلسطينية

لم تنشأ القضية الفلسطينية في عزلة عن الاحداث العالمية بل كانت جزءا لا يتجزأ منها .. وهى لا تزال حتى اليوم تؤلف عقدة من العقد الدولية المترابطة عضويا بعضها ببعض ..

ولذلك فلا بد عند بحثها عن رؤية ظروف تطورها في المدى التاريخي ليسهل فهم الحاضر ، فعندئذ يمكن اضاءة طريق المستقبل

لقد التقت على التربة الفلسطينية ثلاث قوى تفاعلت فيما بينها ، كل بقدر طاقاتها ، وخلقت بصراعاتها القضية الفلسطينية :

* **الامبريالية البريطانية**
* **الحركة الصهيونية**
* **الحركة القومية العربية**

ونبدأ بالامبريالية البريطانية

قد يكون من الصعب تحديد تاريخ تطلع بريطانيا الى احتلال الشرق الادنى في التاريخ المعاصر ولكن المؤرخ فيليب حتي يعتقد أن انكلترا ، وان لم تكن تجاور الدولة العثمانية اقليميا ، الا انها ابتدأت منذ القرن السادس عشر تبدي اهتماما خاصا بها بسبب تجارتها البرية مع الهند والشرقين الادنى والاقصى . ويضيف : ببدء تلاشي الامبراطورية العثمانية تخطت مصالح بريطانيا التجارة الى

الامبريالية فهي لم تكن تريد أن ترى الدولة العثمانية مقطعة الاوصال ، كما انها لم تكن ترغب في رؤية روسيا متمركزة على البسفور (كتابه بالانكليزية « تاريخ سوريا » ص ٦٩٨) .

والحقيقة انه منذ بداية القرن التاسع عشر أخذت الشركات البريطانية من الهند تقوم بخدمة ملاحة منتظمة الى البصرة والسويس (١٨٠٩) . وفى البحر المتوسط بدأت شركة بواخر بريطانية أيضا بخدمة منتظمة الى مصر وسوريا .. (برنارد لويس في كتابه « العرب في التاريخ » ص ١٦٩ ..)

ولا جدال في أن احتلال نابليون بونابرت ، بجيشه الفرنسي ، مصر عام ١٧٩٨ ومحاولته احتلال سوريا الطبيعية (ونقصد بها فلسطين وشرق الاردن ولبنان وسوريا) كانتا حملة عسكرية سياسية هدفت الى أمرين : تهديد الامبراطورية البريطانية الكولونيالية في الهند .. وتوسيع الامبراطورية الفرنسية الكولونيالية .

ولذلك تمثل الحملة النابليونية نقطة تحول في سياسة الكولونيالية البريطانية .. فقد بدأت بعدها سلسلة « اتفاقاتها » مع امراء ومشايخ ولايات سواحل شبه الجزيرة العربية ابتداء من عدن حتى الكويت ، واحتلت المواقع الاستراتيجية والاقتصادية الحاسمة التي يمكن أن تقطع الطرق على أية قوة تهدد الهند درة التاج الامبراطوري البريطاني ، كذلك عاونت القوات البريطانية القوات العثمانية على اجلاء القوات الفرنسية عن مصر عام ١٨٠١ ولكنها لم تحاول البقاء فيها آنذاك ..

أما محاولتها احتلال قطر ما في منطقة الشرق الادنى فقد جرت عام ١٨٠٧ حين هبطت قوة بريطانية بقيادة الجنرال فريزر الى

مصر بقصد احتلالها ٠٠ الا انها اخفقت وهزمتها القوات المصريـــة فى الرشيد فاضطرت الى الانسحاب الى الاسطول البريطاني الـــذى أبحر بها عائدا الى قواعـــده ٠٠

وهناك من المؤرخين من يعتقد أن هذه الحملة لا تؤلف محاولـة بريطانية مصممة على احتلال مصر ، بل كانت من قبيل الاستكشاف وتوطيد المواقع البريطانية الاقتصادية حيال التطورات الداخليـــة في مصر التي تبلورت انذاك فى تقليص نفوذ المماليك حلفاء بريطانيا، وصعود محمد علي الى الحكم الذى كان يبدي ميلا للفرنسيين ٠٠٠ ولكن هذا التقدير لا يصمد للوقائع فبريطانيا حاولت قصدا احتلال مصر في عام ١٨٠٧ الا انها ما كانت تستطيع أن تلقي بقوات أكبـر من القوات التي ألقتها في المعركة ٠٠ ففى ذلك الوقت كان نابليون يسيطر على أوروبا ويهددها تهديدا خطيرا ويفرض عليها ، لمواجهته، حشد قواها لا توزيعها على مختلف الجبهات

وعادت أطماع الكولونيالية البريطانية بادية للعيان في فترة محاولة حاكم مصر محمد علي وولده ابراهيم اقامة الدولة العربيـــة الكبيرة الاولى في الفترة المعاصرة بين ١٨٣١ ـ ١٨٤٠ ٠

آنذاك وقفت بريطانيا بوضوح وعنف تقاوم هذه الدولة الفتية، التي امتدت من مصر عبر سوريا الطبيعية حتى حـــدود آسيـــا الصغرى ، وتعاونت مع الامبراطورية العثمانية والدول الكولونيالية الاوروبية الاخرى لاجلاء القوات العربية المصريـــة عـــن سوريـــا واعادتها الى مصر وحصر الدولـــة الحديثـــة التي كانت تنمـــو في حـــدود مصر ٠

وقامت عام ١٨٤٠ القوات البريطانية البرية ، التي أنزلت على ساحل سوريا ، والبحرية التي كانت تقصف القوات المصرية مـــن

البحر بدور فعال في تقهقر قوات ابراهيم المصري وانسحابها من سوريا ..

ولاحظ المؤرخ جورج أنطونيوس أن مقاومة بريطانيا مشروع الدولة العربية الناشئة كان أحد العوامل الجوهرية في اخفاقها .. كتب : « قد يكون الاصطدام بين محمد علي وانكلترا أمرا لا بد من وقوعه لان نمو سلطانه في مصر ثم امتداده الى الجزيرة العربية والبحر الاحمر أكسبه سيطرة قوية فى تلك المناطق الواقعة على طريق من أخطر الطرق التجارية في العالم ، وله فى الوقت نفسه قيمة خاصة للتجارة الانكليزية (يقظة العرب تعريب علي حيدر الركابي ص)

وتدعم الوقائع هذا التقدير ، فوزير خارجية بريطانيا (ورئيس وزرائها فيما بعد) بالمرستون في رسالة الى سفير بلاده في نابولي بتاريخ ٢١ اذار ١٨٣٣ كتب :

« ان هدف محمد علي الحقيقي هو اقامة مملكة عربية تضم جميع البلاد التي تتكلم العربية وقد لا يحوي هذا المشروع ضررا ما في حد ذاته ولكنه سيؤدي الى تقطيع أوصال تركيا وهذا ما لا نرضى عنه ، وفضلا عن ذلك فلا نرى سببا يبرر احلال ملك عربي محل تركيا في السيطرة على طريق الهند » . (المصدر ذاته ص ٢١-٢٢)

وفي رسالة الى السير ويليام كامبل سفير بلاده في كابل عام ١٨٣٣ كتب بالمرستون في نفس الروح الا انه كان أحد وأشد بتأكيده على عدم تسليم بريطانيا بوجود دولة غير تركيا على طريق الهند فهي « خير من ملك عربي يقوم على هذه البلاد ويكون

نزاعـــا للعمـــل كثير الحركـــة » (الدولة العربيـــة المتحـــدة أمين سعيد ص ٩٥ جزء أول)

الكولونياليـة البريطانيـة
تصبح صهيونية قبل
نشوء الحركة الصهيونية

لقد أثبتنا تطور المطامع البريطانية في الشرق الادنى تمهيـدا لنبحث في بداية اللقاء بين الكولونيالية البريطانية والصهيونيـة من قبل أن تولد الحركة الصهيونية بحوالي نصف قرن ..

وكان التهديـد الذى مثله محمد علي وولـده ابراهيـم بمحاولتهمـا اقامـة الدولة العربيـة الكبيـرة نقطة البدايـة في هـذا اللقـاء ...

كتب ناحوم سوكولـوف ، أحـد كبار مؤسسي الحركـة الصيهونية ، يبرز الصلة بين محاولـة اقامـة الدولة العربيـة الكبيرة وتبني الكولونيالية البريطانية الفكـرة الصهيونية مـن قبل أن تنشأ منظمة صهيونيه أو يضـع أسسهـا أيديولوجـي يهودي فأكـد :

« ونشأت (بعد تدخـل الدول الاوروبية لانقاذ الامبراطورية العثمانية واعادة قوات ابراهيم الى مصـر ، مسألـة مستقبـل فلسطين . هل كانت ستبقى بيد تركيا ام هـل كانت بريطانيـا العظمى ستفوز بالاماكن الهامـة . وكان السائـد في الـرأي العام البريطاني ضم عكا وقبرص الى الامبراطورية البريطانيـة . فبريطانيا وقد احتلت موقع عكا الحصين الذى لا يقهـر كانـت لا تضطر الى السعي لضمان حرية الطريق الى الهنـد مـن أي دولة أخـرى » .. ثم أورد أمثلـة عديدة على ساسة بريطانيين

نادوا باستيطان اليهـود في فسطـين . (كتابـه تاريـخ الصهيونية المجلـد الاول ١٠٤) .

ومن هذه الامثلة انه فى ٢٥ ايلول ١٨٤٠ كتب الايرل سافنسري بالمرستون وزير الخارجية البريطاني بشأن المسألة السورية (التي كانت لا تزال موضع بحث في الميدان الدولي وتدور حولها المفاوضة مع محمد علي ١٠أ٠ت) يقتـرح اقامـة مستعمـرة بريطانيـة (دومنيون) وأضاف أن المنطقة تحتاج الى المال والعمـل .. وأن العبرانيين يترقبون العودة الي سوريا ولذلك فاذا ضمنت الـدول قوانين تحقـق المساواة في سوريا وتبـدد شكوك العبرانيـين فعندئذ يستنفرهم النـداء فيخرجون بثرواتهـم وصناعتهم ... وأكـد فى النهاية أن استعمار العبرانيـين سوريا هـو أرخص وأضمـن أسلوب لتزويـد هذه المناطـق القليلـة السكـان بحاجاتها .. (المصدر ذاته المجلد الثاني ص ٢٢٩) .

وعاد شافتسري ليؤكـد هذا الامر بعد ربع قرن .

ففي مقال كتبـه عام ١٨٧٦ تحدث عن اليهود بوصفهـم تجارا بارزين وقال ان سوريا تحتاج الى رأس مال وسكان واستنتج أن اليهود يستطيعـون تزويدها بالامرين .. وسأل شافتسري : أو ليس لبريطانيا مصلحـة في ذلك .. وأجاب :

« انها لضربـة لانكلترا اذا ما استولـى أي من منافسيهـا على سوريا . فامبراطوريتها التى تمتـد من كندا في الغـرب الـى كلكتا (الهند) واستراليا في الجنوب الشرقي تقطـع نصفين .. يجب أن تصون انكلترا سوريا لنفسها .. ألا تستدعي السياسـة اذن أن تنمي انكلترا ، وهي دولـة تجاريـة بحرية عظمـى ، قوميـة اليهود وأن يرجـع اليها فضـل استيطان اليهود في

فلسطين » (سجل ذلك ناحوم سوكولوف في كتابه تاريخ الصهيونية المجلد الاول ص ٢٠٦) ٠

وبين هذين التاريخين ١٨٤٠ و ١٨٧٦ عالج عدد من الكتاب والساسة البريطانيين غير اليهود ما كان يطلق عليها آنذاك المسألة التركية أو المسألة الشرقية وأكدوا أمرين ، بالتساوى تقريبا : ضرورة سيطرة بريطانيا على الشرق الادنى وبالتحديد سوريا (وتشمل فلسطين) واستخدام اليهود أو العبرانيين في استيطان فلسطين أو سوريا لتثبيت السيطرة البريطانية على المنطقة وحماية طريق الهند ٠

وكان أحد هؤلاء الكولونيل شارلس هنري تشرشل (١٨١٤ ـ ١٨٧٧) أحد ضباط الحملة البريطانية التي حاربت القوات المصرية العربية في سوريا عام ١٨٤٠

كتب في مقدمة كتابه « جبل لبنان » (بالانكليزية صدر عام ١٨٥٣) : ان كنا نريد الاسراع في تقدم المدنية وأردنا توطيد سيادة انكلترا في الشرق فمن الواجب أن تقع سوريا ومصر تحت سيطرتها ونفوذها بهذا الشكل أو بذاك

ودعا الى مثل هذا المستشرق البريطاني السراوستن هنري لايارد (١٨١٧ ـ ١٨٩٤) عضو البرلمان في سنوات الخمسين من القرن التاسع عشر ٠٠ قال في احدى خطبه التي عالج فيها المسألة التركية : « علينا أن لا ننسى انه اذا كانت مصر طريقا من الطرق الى الهند فسوريا ووادي الدجلة والفرات هي الطريق والدولة التى تسيطر على هذين القطرين تتحكم في الهند » ٠ (مجموعة خطاباته في المسألة التركية ص ١٠ صدر بالانكليزية عام ١٨٥٧) ٠

وقال الكولونيل جورج جولر (١٧٩٦ ـ ١٨٦٩) حاكم جنوب استراليا في خطاب ألقاه في ٢٥ كانون الثاني ١٨٥٣ : لقد وضع القدر سوريا ومصر بين انكلترا وأعظم مناطق امبراطوريتها الكولونيالية ومراكز تجارتها في الهند والصين والارخبيل الهندي واستراليا ـ وأضاف أن استيلاء أي دولة على مصر وسوريا يهدد تجارة بريطانيا . ولذلك يدعو القدر انكلترا الى أن تحسن سوريا وتطورها وذلك بنشاط أبناء اسرائيل ومساعيهم

وتؤكد هذه التصريحات فعالية المحرك الكولونيالي في دفع كتاب انكلترا وساستها الى الدعوة الى بسط النفوذ البريطاني على سوريا (فلسطين) واستخدام أبناء اسرائيل أو العبرانيين في استيطانها على نسق المستوطنين الاوروبيين في أمريكا لتحقيق ذلك .. فهذا فقط يفسر صدور الكتب العديدة نسبيا التى تدعو الى هذا الامر .. (١)

وقد طابق اشتداد الاهتمام الكولونيالي في الشرق الادنى أزمات سياسية دولية معينة .. الاولى أثناء محاولة محمد علي وولده ابراهيم اقامة الدولة العربية الكبيرة في مصر وسوريا .. والثانية أثناء التوتر الذى رافق مسألة حفر

---

(١) من هذه الكتب : كتاب توماس كلارك « فلسطين لليهود » وفيه أبرز الكاتب أن استيلاء اليهود على فلسطين بحماية بريطانيا ضرورة قصوى (٢) كتاب هولنغورت تاريخ اليهود في فلسطين الصادر عام ١٨٥٢ ويدعو الى اقامة دولة يهودية في فلسطين لحماية طريق الهند .

قناة السويس وملابساتها ·

ولاحظ هذا الامر هوراس ماير كالن في كتابه « الصهيونية والسياسة الدولية » فكتب : انتشرت فكرة بعث اسرائيل باعتبارها ممكنة التحقيق على صعيد السياسة العملية والمستوى الديني (٢) في بريطانيا وفرنسا بين غير اليهود بشكل أوسع وأشد من انتشارها بين اليهود ، فبالنسبة لهولنغورث حين كتب عام ١٨٥٢ في انكلترا (ملاحظات حول وضع اليهود في فلسطين) لم تكن اقامة الدولة اليهودية في فلسطين عملا انسانيا وعادلا بل ضرورة سياسية في الذهن البريطاني لحماية الطريق عبر آسيا الصغرى الى الهند - أما المحرك المباشر فكان الحديث الملح حول قناة السويس · فهذا المشروع الكبير حرك الفرنسيين للتفكير بالفكرة نفسها (بعث اسرائيل) كما يظهر ذلك من كتاب دينبي « المشكلة الشرقية الجديدة » وكتاب أ·لاهرامي : « المسألة الشرقية » ·· ص (٤٨ - ٤٩)

وهكذا ينبه هذا الكاتب الى أن سياسة الكولونيالية البريطانية الصهيونية ·· أي تبني انكلترا فكرة « بعث اسرائيل » قابلتها في مرحلة قصيرة سياسة كولونيالية فرنسية صهيونية ·· وبذلك جرى التنافس الكولونيالي حول فلسطين

---

(٢) لقد انتشرت فكرة دينية - الى جانب الفكرة السياسيه المذكورة - تقول ان عودة اليهود الى فلسطين أو بعث اسرائيل يقرب خلاص الانسانية وعودة المخلص ولذلك على المسيحيين الدعوة الى ذلك

فى ميدان واحد هو ميدان « البعث الاسرائيلى » ! الا أن هـــذه الفترة كانت قصيرة جدا ·· والكولونيالية الفرنسية لم تهتم الاهتمام الضخم بالمشروع الكولونيالي الاسرائيلي الذى أبدته بريطانيا منذ عام ١٨٤٠ وما بعد

وتعود الىهذه الفترة محاولة تخفيف حدة التنافس الانجلو-فرنسي باقتراح هنري دونانت ، فى رسالة مفتوحة ، تأليف جمعية شرقية دولية يؤيدها الرأي العام الدولـي لبعث الشرق زراعيا وصناعيا وتجاريا ، وخاصــة فلسطين ، بالتعاون مع الاسرائيليين وبتأييد أصحاب القول الفصل في فرنسا وبريطانيا وغيرهـا · (تاريخ الصهيونية المجلد ٢ ص ٢٩٥ ـ ٢٦١)

هـذا ويلاحـظ المؤرخ أن الحماس البريطاني لفكـرة الاستيطان اليهودي خف في الربع الاخيـر من القرن التاسع عشر ثم عاد وتجدد في القرن العشرين ·

ولهـذا أسبـاب ··

لقد لاحـظ لينين في دراسته العبقريـة « الامبريالية أعلى مراحل الرأسمالية » انه فى أوج ازدهار المزاحمة الحـرة عالميا فى مرحلـة ١٨٤٠ ـ ١٨٦٠ كان السياسيون البرجوازيون فـي بريطانيا ضد السياسة الكولونيالية وكانوا يعتبـرون تحـرر المستعمرات وانفصالها التام عن انجلترا أمرا محتوما · (حركـة شعوب الشرق الوطنية التحرريـة ص ١٦٨) ·

ولذلك لم تكن بريطانيا ، التي احتلت مناطـق عديـدة فى العالم تفكر في المرحلـة هذه ، باحتـلال مناطق جديدة بل بمواصلة سياسة الاستيطان الكولونيالي الذي بدا في القرن السابع عشر ، وترى فيه سبيلا لحمايـة مصالحها التجاريـة وهذا ما

ظهر من كل تصريحات وكتابات الساسة البريطانيين ..

وهذا ما أكده سوكولوف فكتب : ان فكرة استعمار سوريا نشأت في حين كان استعمار أمريكا واستراليا يجري على قدم وساق .. وأضاف فالسيطرة على القطر السوري كانت تزيد في موارد بريطانيا التجارية وقواها الدفاعية (تاريخ الصهيونية المجلد الاول ص ١٠٥ ـ ١٠٦)

ثم هناك سبب اخر أبعد بريطانيا عن فكرة احتلال سوريا آنذاك .. ونقصد به التوازن الدولى في العالم . فقد كان يستبعد اجراء تغييرات في أوضاع الامبراطورية العثمانية تمنح أي من الدول الكولونيالية امتيازا على الاخرى .

وأهمية صيانة هذا التوازن ظهرت في المناسبتين اللتين نشبت فيهما الحرب بين روسيا القيصرية والامبراطورية العثمانية .. ففي المناسبة الاولى ـ وعرفت بحرب « القرم » ـ (٣) هزمت في بدايتها روسيا القيصرية الامبراطورية العثمانية فاقتحمت بريطانيا ومعها فرنسا وسردينيا وبروسيا ميدان المعركة وقلبت نصر روسيا القيصرية هزيمة وعقد مؤتمر باريس عام ١٨٥٦ وقرر « تمامية السلطنة العثمانية » وتكامل أراضيها .

أما في المناسبة الثانية فهزم روسيا القيصرية الامبراطورية العثمانية عام ١٨٧٦ لم يؤد الى تدخل عسكرى واستطاعت روسيا القيصرية أن تفرض على الامبراطورية العثمانية معاهدة سان ستيفانو .. الا أن بريطانيا نجحت في أن تجند دول أوروبا الكبرى وأن تفرض على روسيا القيصرية الاشتراك في مؤتمر برلين والقبول

---

(٣) ١٨٥٤ ـ ١٨٥٦

بنتائجه وأهمها اعادة الولايات التي احتلتها روسيا القيصريه الى الامبراطورية العثمانية .

وقد دخل عامل التجارة في الموقف البريطاني من يهود الشرق الادنى .

في كتابة « تقرير حول سوريا » وصف جون بردنغ اليهود في دمشق فكتب أن التجار اليهود الاجانب في دمشق هم الفئة الاغنى بين التجار وذكر عائلتين تملك كل منهما مليون ونصف مليون جنيه (وهذه ثروة ضخمة في ذلك الحين) وأضاف أن أكثر البيوتات التجارية تتاجر مع بريطانيا . (سوكولوف تاريخ الصهيونية المجلد الاول ص ٧٦) .

وهذا قد يكون عاملا من العوامل التي جعلت بريطانيا تمد حمايتها على يهود الامبراطورية العثمانية في سنوات الاربعين من القرن التاسع عشر .. أي في هذه الفترة من شيوع الصهيونية الكولونيالية البريطانية غير اليهودية ..

ولاحظ سوكولوف أن عوامل سياسية أيضا دفعت بريطانيانحو مد حمايتها لتشمل اليهود في الامبراطورية العثمانية . (تاريخ الصهيونية المجلد الاول ص ١١٨)

وفسر ضرورات السياسة البريطانية هذه الدكتور ادوارد روبنسون (١٧٩٧ ــ ١٨٦٣) في كتابه تنقيبات توراتية في فلسطين » حين كتب :

« كانت فرنسا منذ وقت طويل حامي الدين الكاثوليكي (التابع لروما) المعترف بها .. ووجد أبناء الكنيسة الاورثوذكسية (الرومية) أنصار أشداء في الروس .. ولكن لا يوجد متحيزون للانكليز في أي مكان من الامبراطورية العثمانية » .

وبما أن الدول الكولونيالية ، في مساعيها للتسرب الى الامبراطورية العثمانية واقتسام تركتها في الشرق الادنى كانت تستفيد من التظاهر بالدفاع عن هذه الطائفة أو تلك فقد وجدت بريطانيا انها في حاجة الى طائفة لتواجه روسيا القيصرية وفرنسا . فأرادت أن تتوكأ على اليهود .. وقد لجأت فيما بعد حين اشتد الصراع بين الدول الامبريالية الى زعماء الدروز تماما كما وجدت فرنسا بغيتها في زعماء الموارنة وروسيا القيصرية في زعماء الروم الاورثوذكس .. (٤)

وهنا نستطيع أن نجيب على السؤال لماذا خفت الدعوة الى بعث اسرائيل في الربع الاخير من القرن التاسع عشر ..

أوضح لينين كماذكرنا أنفترة المزاحمة التجارية بين ١٨٤٠و١٨٦٠ خلقت الاعتقاد بأن تحرر المستعمرات (المستوطنات على وجه التحديد) أمر محتوم .. على اعتبار أن وجودها يعرقل نمو التجارة واتساعها . ولكنه أضاف في كتابه « الامبريالية أعلى مراحل الرأسمالية » ان الوضع تغير بنمو الاحتكارات وتراجعها عن مبدأ المزاحمة الحرة في التجارة الدولية ..

لقد بدأت الكولونيالية تتحول الى امبريالية ، ومن ملامح الامبريالية اتمام تقسيم العالم بين الدول الامبريالية ..

ولهذا اشتد الصراع بينها على المستعمرات ..

وكتب لينين فى هذا الصدد : « ان مرحلة اشتداد الاستيلاء

---

(٤) تمتعت الدول الاوروبية بنظام الامتيازات في الامبراطورية العثمانية وهذه كانت تمنح من يمتع بالحماية الاجنبية حقوقا خاصة منها عدم المثول أمام المحاكم المحلية .

على المستعمرات ، اشتدادا كبيرا ، هي بالنسبة لانجلترا سنوات ١٨٦٠ ـ ١٨٨٠ ، واشتدادا ملحوظا جدا في العقدين الاخيرين من القرن التاسع عشر • ومرحلة الاشتداد الكبير بالنسبة لفرنسا وألمانيا هي العقدان الاخيران بالضبط » (حركة شعوب الشرق الوطنية التحررية ص ١٨٣)

وهكذا ففي الربع الاخير من القرن التاسع عشر ، خصوصا بعد افتتاح قناة السويس عام ١٨٦٩ ، اشتد الصراع الامبريالي على الامبراطورية العثمانية ••

وكان الصراع على أشده بين بريطانيا وفرنسا في الشرق الادنى ••

ولم يكن الصراع على مجرد النفوذ أو المواقع الاقتصادية ، بل على الاقطار نفسها ، فالاستيلاء على القطر المعين كان يمنح احتكارات الدولة السائدة المواقع الاقتصادية ويمكنها من السيطرة على سوقها ومقدراتها •

وفعلا ركزت بريطانيا جهودها لاحتلال مصر ونجحت فى ذلك عام ١٨٨٢ في حين نجحت فرنسا في احتلال تونس قبل سنة من هذا التاريخ ••

يقسم « دافيد هيل » في كتابه « تاريخ الدبلوماسيه فى التطور الدولي في أوروبا » تاريخ السياسة الدولية التي مارستها بريطانيا العظمى من سنة ١٨٧٠ وما بعد الى أربع مراحل :

١ ـ الاسيوية الاولى وفيها قاومت بريطانيا تقدم روسيا في آسيا الوسطى في اتجاه الهند

٢ ـ الافريقية (سنوات ١٨٨٥ ـ ١٩٠٢ على وجه التقريب)

وفيها اشتد الصراع بين بريطانيا وفرنسا من اجل اقتسام افريقيا ووقعت حادثة فاشودا (٥) فاصبحت الحرب بين القطرين قاب قوسين أو أدنى

٣ ـ الاسيوية الثانية وخلالها عقدت بريطانيا معاهدة مع اليابان للتصدي لروسيا القيصرية

٤ ـ الاوروبية وفيها وقفت بريطانيا أمام ألمانيا التي كانت تريد اعادة تقسيم المستعمرات لتفوز «بحقها» منها ٠

والمهم هنا أن بريطانيا احتاجت فكرة بعث اسرائيل في فترة المزاحمة الحرة ولم تكن فى حاجة لها فى وقت الصراع الشديد مع فرنسا فى نهاية القرن التاسع عشر فقد كان ميدان الصراع مصر وافريقيا وفيهما لم يكن من الممكن الاستفادة من صهيونية بريطانيا الكولونيالية ٠٠

الا انها احتاجت من جديد الى الصهيونية في بداية القرن العشرين ٠

ولكن انذاك كانت الصهيونية قد أصبحت يهودية ٠٠ وكانت منظمتها قد بدأت تحتل مكانها في بعض المحافل الاوروبية٠٠

---

(٥) قرية على حدود السودان التقت فيها قوتان بريطانية وفرنسية كانتا تحددان حدود امبراطورية كل منهما ٠٠ انذاك رفضت بريطانيا السماح لقوة فرنسا بالتقدم واضطرت فرنسا للتراجع ٠

الفصل الثانى

ملاحظة على مرحلة ما قبل الصهيونية

يختلف الكتاب الصهيونيون في تقدير ماهية الصهيونية ويتفاوتون في نهجهم عند تعقبهم آثار نشوئها ، دون أن يؤثر ذلك على استنتاجاتهم الجوهرية المعاصرة ٠

وفى هذا الصدد يقرأ المرء ، على سبيل المثال ، هذا التقدير لاحد كبار زعماء الصهيونيين القدامى ناحوم سوكولوف :

« انها حقيقة بسيطة ٠٠ يبدأ تاريخ اسرائيل بالصهيونية ، ويبين هذا التاريخ في الازمنة السحيقة طريق تحقيق الصهيونية ٠٠ فالخروج من مصر كان مثلا للجمع بين الهجرة والكولونيالية (استعمار الارض أ٠ت) ٠٠ والعودة من بابل كانت حدثا صهيونيا عظيما » (كتابه تاريخ الصهيونية الجزء الاول ص ١٥ من المقدمة) ٠

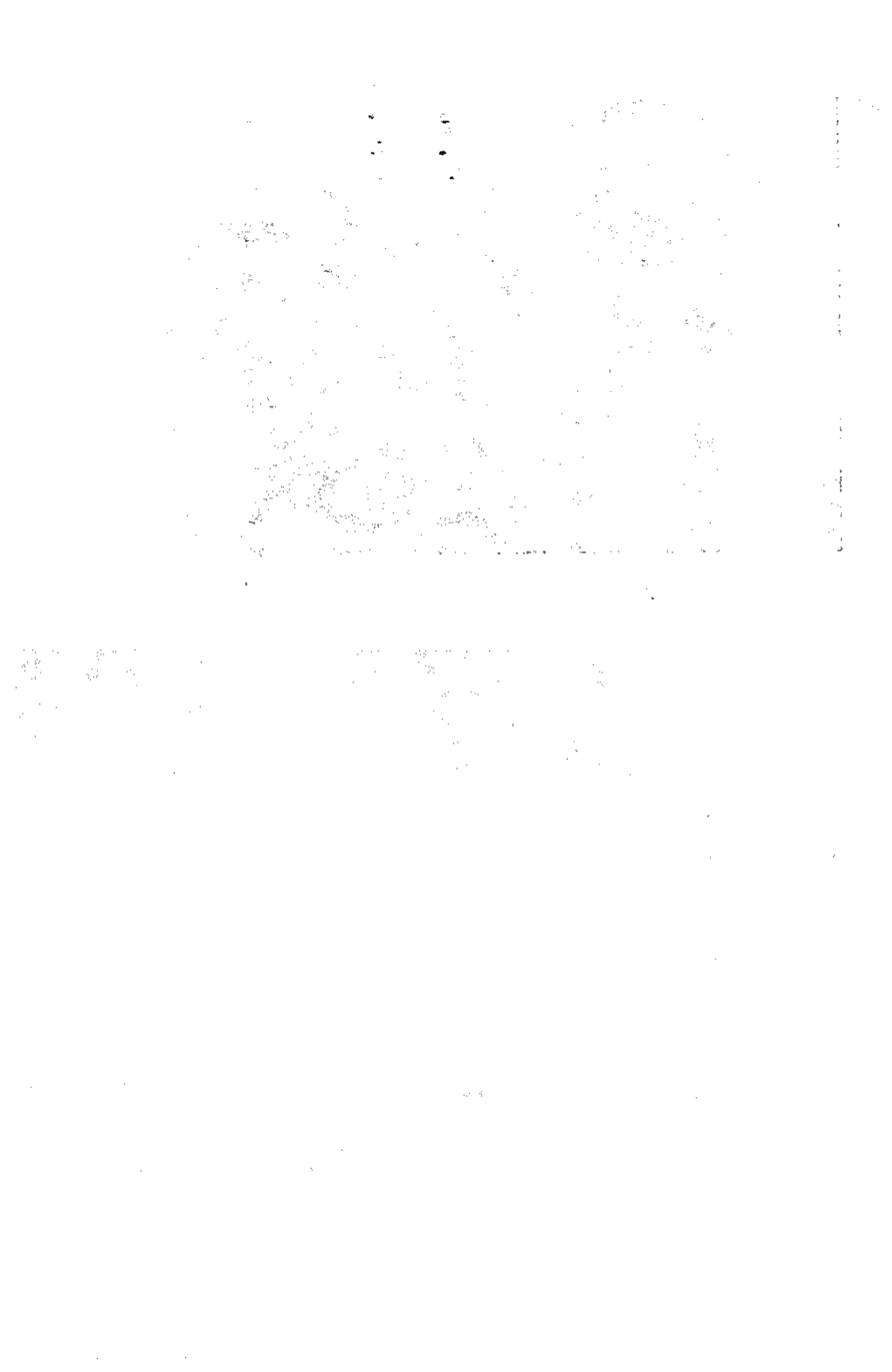
ولكن مقابل هذا اللون من الغيبية القومية ، التي تتجاوز مراحل التاريخ وتخلط بين المقولات الاجتماعية يستطيع المرء أن يجد نسقا أقرب الى العقلانية ٠٠ في ما كتبه بن هلبرن :

« أدى الانعتاق (مساواة اليهود بالمواطنين عامة بعد الثورات البرجوازية في القرن الثامن عشر ـ أ٠ت) الى خلافات ايديولوجية بشأن مبادىء الكيان اليهودي ومؤسساته ، وبين



دخول القوات البريطانية مدينة القدس في ٩-١٢-١٩١٧

٣ من اساطين
الاستعمار البريطاني
هربرت صموئيل
اول مندوب سامي
اللورد بلفور
صاحب الوعد المشهور
الجنرال اللنبي
« فاتح » فلسطين



الايديولوجيات التي نشأت آنذاك ٠ (القرن التاسع عشر جوهريا ـ أ٠ت)

وفي هذه الفترة كانت الصهيونية تطورا مختلفا عن الرنب نسبيا ٠ لقد ظهرت في صورة نقد لحل المسألة اليهودية على أساس التحرر المدني وحده وكانت محاولة لمواصلة الفرضيات التقليدية حول طبيعة التاريخ اليهودي وهدفه ، الامر الذى نبذه تلامذة التنوير اليهود » (كتابه فكرة الدولة اليهودية ص ٤) ٠

وكان التفاوت في التوجه عاما لم يفلت منه الصهيونيون « الاشتراكيون » ! ففي حين ، اعتبر بوروخوف الصهيونية : الرد على احتياجات الشعب اليهودى الاقتصادية والثقافية ولذلك فهي بعث قومي واجتماعي معاصر (اليهود وفلسطين بقلم س ٠ ليفنبرغ ص ٩ ـ ١٠) ٠٠ اقتفى س٠ ليفنبرغ نفسه اثار « الشوق الى صهيون » والعودة الى فلسطين من أيام الانبياء العظام ليبني منه أيديولوجيته « الاشتراكية » الصهيونية ٠ (كتابه اليهود وفلسطين ص ٣٥ ـ ٣٨) ٠

صحيح أن الانبياء تحدثوا عن جمع بقايا اليهود من الشتات من أربعة أطراف الارض (أشيعا ٢ (٢ ـ ٤)) وعن غربلة بيت اسرائيل من بين جميع الامم ٠٠ وانهاء سبى شعب اسرائيل وغرسهم في أرضهم فلا يقلعوا منها أبدا « عاموس ٩ (٩ و ١٤ ـ ١٥) » ، الا أن ذلك ارتبط عبر الاجيال بقدوم المسيح وحلول الاخرة ٠٠ آنذاك كما تنبأ ميخا يعيد الرب شعبه الى أرضهم ويملك عليهم في جبل صهيون « ٤ (٦ـ٧) » ٠

وكتب أ٠شارف ، عند تقويمه حركات المسيحية في القرن السابع والثامن ميلادي : ان دعاة المسيحية بين اليهود ، على الرغم

من تباين انطلاقاتهم الدينية اعتقدوا أن الصراع بين بيزنطيـــة والخلافة الاسلامية هو الصراع الاخير وسيسبق « اليوم الاخر » ٠ (من كتاب تاريخ الشعب اليهودى العالمي محرره س٠روث ص ٥٦) ٠

وبمرور الاجيال واخفاق حسابات المتدينين لتحديدموعـــد « اليوم الاخر » ساد الاقتناع الطوائف اليهودية أن معجزة قـــدوم المسيح المرتقب ستحل في موعدها بارادة الرب ولذلك فمن التطاول والتجديف السعي للاسراع بها ٠٠ ولم يتخل المتدينون عن هـــذا الرأي وقاوموا الصهيونية حتى وقت متأخر جدا ٠ (وعد بلفور ، أصوله وخلفيته ، بقلم السيدة ادجار دوغديل ، ص ٨) ٠

ولاحظ بن هلبرن ، اعتمادا على تراث القرن التاسع عشـر أن الوعد بقدوم المسيح افترض أن لا يقوم اليهود بأي عمـــل لاعادة سيادتهم (القومية) فعليهم أن يواصلوا رسالتهم بين الامم على اعتبار أن الخـــلاص سيأتي من جراء تدخـــل الهي ٠ (فكـــرة الدولـــة اليهوديـــة ص ٨٨)

ان فكرة المسيحية ـ ٠٠ أو قدوم « المخلص » ـ تعود الـــى أزمنة غابرة وعرفتها الشعوب والطوائف الدينية المختلفـــة ، ولا تزال تتمسك بها طوائف اسلامية ونصرانية ، على الرغم مـــن أن النصرانية قامت على الايمان بقدوم المسيح الذى كان يترقبه اليهود ٠٠ والاسلام قام على أساس أن النبي محمد خاتم الرسل والانبياء ٠

وقد عرفت النصرانية فى بداية عهدها تيارا شبيها بالتيـــار اليهودى ، الذى انشغل رجاله باجراء الحسابات لتحديـــد موعـد قدوم المسيح ، واقترنت فكرة ترقـــب ، في التيار النصرانـــي ، عودة المسيح ، بقيام دولة الله على الارض فى القدس ٠٠

كذلك عرف الاسلام ، بالاضافة الى الترقب العام بقـــدوم

المهدي ، حركات مهدوية ، اما طائفية دينية مثل حركة الائمة الاثني عشر ، واما سياسية ـ اجتماعية كانت ثورة المهدي في السودان أبرزها في التاريخ المعاصر ٠

ولا نعدو الحقيقة اذا لاحظنا أن الشوق الى المسيح أو المهدي هو من شوق الانسانية الى « الفردوس المفقود » أو « عصر الانسانية الذهبي » الذي تتفق الاساطير على أن الانسانية ولدت فيه وعاشت في ظلاله ردحا من الزمن قبل أن تبدأ مصاعبها ٠٠

كتب بون هنيس هولمس : « تشكل المسيحية فى اصلها وجوهرها العميق رؤيا الهروب ٠ ففي الايام التي سبقت الشتات، كانت هروبا من حكم روما الحديدي ، وفي الايام التي أعقبت الشتات كانت هروبا من التحقير والاضطهاد اللذين حلا بطوائف اليهود الموزعين في أقطار عديدة » (كتابه ، فلسطين اليوم وغدا ، ص ٧٧) ٠

ويكشف التدقيق التاريخي أن ترقب المسيح بين الطوائف اليهودية ، الذى كان يقترن طبيعيا بالعودة الى صهيون ، كان يشيع في أقطار عينية وفي تواريخ محددة (في سوريا في القرنين السابع والثامن ، وفي اسبانيا في القرن الحادي عشر ٠٠) حين كانت الطائفة اليهودية في ذلك القطر أو ذاك وفي التاريخ المعين ، تعيش في ظروف صعبة ، تتوق الى الخلاص فتتشبث بالمسيحية وفكرة العودة الى صهيون ٠

ولكن هذه الفكرة كانت دينية ، ولذلك لم تتجسم تنظيميا الا في حالات قليلة جدا وفي أقاليم عينية ٠٠ وهكذا تجسمت فى سوريا تنظيميا في القرنين السابع والثامن ، وكانت اشتياقا دينيا شائعا في اسبانيا في القرن الحادى عشر ٠٠ وهذا الشكل

التنظيمي ، لم يتجاوز بضع حالات ، اندثـــرت عبر القـــرون ، وانتهت فى القرن السابع عشر ..

وهكذا فالفرق كبير بين الشـوق الى صهيون أو فكـــرة المسيحية التي كانت ولا تزال تؤلف عقيدة من عقائد الايمان الديني فى اليهودية ـ مثلما تؤلف فكرة عودة المسيح أو قدوم المهدي عقيدة من عقائد الايمان فى النصرانية والاسلام ـ وبين الصهيونية بوصفها أيديولوجية سياسية معاصرة نشأت في قرن محدد ونشطت فـــي ظروف تاريخية ملموسة ومارست حياتها في أوضاع عالمية عينية .

ولا يغير في ذلك أن الصهيونية اقتبست هـــذا الشـــوق وأقامت بناءها الايديولوجي عـــلى الدين اليهودي وجعلته جوهـــر القوميـــة التي أرادت خلقها ..

* * *

ولا بد عند هذا الحد من معالجة اسطورة أخرى نسجتهـــا الصهيونية الى جانب أسطورة الشوق « الخالد » الى صهيون الـــذى لم يكن سوى شوق غيبي للهروب و « للخـــلاص » !! ونقصـــد بذلك أسطورة الشتات الذى زعمت الصهيونية أن القوى الظالمـــة فرضته على اليهود وحالت عبر التاريـــخ دون عودتهـــم الى أرض « الميعـــاد » ..

ان التاريخ ينســـف هذه الاسطورة تماما .. ويـــلاحظ أن اليهود رحلوا عن « أرض الميعاد » طلبا للرزق قبـــل أن يطاردهم أحد .. واذا تركنا جانبا قصة « هبوطهم » الى مصر أيام يعقوب (١) (الذى تكنى باسرائيل) هربا من الجوع في أرض كنعان ، نجـــد أنهم عادوا الى الهجرة بعد قيام ملك اسرائيل وقبل سبي بابـــل في القرن السادس قبل الميلاد ..

ويكتب ناتان أوسيبل في كتابه «كتاب المعرفة اليهودية» :

ووجد الاسرى الذين نقلهم نبوخذ نصر الى بابل في ٥٨٦ قبل الميلاد ٠٠ « في أرض سبيهم طوائف يهودية كبيرة وعميقة الجذور نشأت في القرن الثامن (قبل الميلاد) ٠ ويمكن أن نفترض أن القادمين الجدد زادوا عدد هذه الطوائف ٠ وحين عاد المنفيون من بابل الى القدس بعد قرن من الزمن كان مدهشا أن نرى ، حسب أقوال عزرا ونحميا ، لا أكثر من ٦٠ ألف يعودون فقط ٠ بديهي أن أكثرية المنفيين اختارت أن تبقى فى بابل » (ص ١٢٦ ـ ١٢٧) ٠

هذا الامر الذى تؤكده المصادر التاريخية عامة يوافق اتجاه ذلك العصر ٠ وقد جاء في تاريخ كمبردج القديم (حرره ج٠ب٠ بري س ٠ أ٠كوك و ف٠أ٠ادكوك) ان المحتمل أن يكون اليهود تعاونوا مع أشقائهم الفنيقيين الذين كانوا في ذلك العصر قد بدأوا ينتشرون في العالم المعروف ويتعاطون التجارة خاصة مع الشرق (الجزء السادس ص ١٣٧) ٠

وقبل أن يقمع الرومان الثورة اليهودية فى فلسطين ويدمروا الهيكل عام ٧٠ بعد الميلاد كان اليهود قد انتشروا فى مراكز الاقتصاد والتجارة في الامبراطورية الرومانية ٠٠ ولم يمنعهم من التركز في « أرض الميعاد » سوى ارتباطهم الوثيق بتجارة واقتصاد تلك المراكز من مثل الاسكندرية ٠٠ فآنذاك لم تكن قد نشأت صعوبات للعودة الى صهيون ٠

وكتب ناتان اوسبيل ٠٠ في معرض الحديث عن « الشتات » قبل تدمير الحياة اليهودية المستقلة في ٧٠ قبل الميلاد ٠٠

« والحقيقة الساطعة انه من قبل الكارثة كان « تشتت » اليهود يتسع منذ وقت طويل ٠٠ » (كتاب المعرفة اليهودية ص ١٢٦) ٠

وهناك من يقدر أن نسبة اليهود في « أرض الميعاد » في أيام الرومان قبل تدمير الهيكل بلغت الربع ·· وفي مصر لوحدها كان عدد اليهود مليون من مجموع ثمانية ملايين هم سكان البلاد في ذلك العصر · (تاريخ كمبردج القديم الجزء ٩ ص ٤٢٩) ·

ولهذا فمن التعدي على التاريخ والعقلانية العلمية الحديث عن الصهيونية «منذ فجر التاريخ» والخروج من مصر ·· أو عن أخبار اليهود على الشتات ·

وانطلاقا من هذه الحقيقة يصبح الحديث عن الشعب اليهودي الموحد عبر الاقطار والقارات ضربا من البلادة الفكرية ·· فمنذ أن هاجر اليهود واستقروا في مختلف الاقاليم أيام البابليين الرومان الهيكل وقضوا على مقومة الشعب اليهودي في فلسطين مواطنها ··

ولهذا كان من الممكن رؤية التفاوت في المصير في فترات مختلفة من التاريخ وفي أقطار متباينة من العالم ·· ففى حين دمر الرومان الهيكل وقضوا على مقاومة الشعب اليهودى في فلسطين وشردوا أبنائه تمتعت الطوائف اليهودية في مواطنها بعطف الامبراطورية ولم تمس ·· وحافظت ، على سبيل المثال ، الطائفة اليهودية في الاسكندرية على ازدهارها الاقتصادي بغض النظر عن مصير اليهود في فلسطين انذاك ·

وبدون أن نحاول تعقب تاريخ الطوائف اليهودية بالتفصيل نستطيع أن نلاحظ أن الطوائف اليهودية في مختلف أنحاء الامبراطورية العربية الاسلامية ازدهرت مثلها مثل سائر الشعوب والطوائف ما دامت الامبراطورية في عصورها الذهبية وشاع فيها الاستقرار . وأصابها التدهور والجمود حين تدهورت الامبراطورية

باشتداد الصراع الاجتماعي في داخلها وازدياد ضغط القبائل التركية عليها • ولعل ما طرأ على يهود اسبانيا في العهد العربـي الاسلامي لابلغ دليل على صحة هذا الارتباط •• فقط حين انتصر الاسبانيون على العرب وأشاعوا محاكم التفتيش كان على اليهود ، مثلهم فـي ذلك مثل المسلمين ، أن يختاروا بين البقاء والتكثلـك أو الفـرار والتشريـد ••

كذلك لا بد من أن نلاحظ أن تدهور الامبراطورية العربيـة الاسلامية أدى الى انتقال مراكز استيطان الطوائف اليهوديـة من شرق حوض البحر الابيض المتوسط الى اوروبا التي كانت تتطـور بسرعة •• وتحولت أكثرية هذه الطوائف من طوائف آسيويـة شرقية الى طوائف أوروبية •

وهكذا عند بدايـة العصر الحديث ، على الرغم من بقـاء الطوائف اليهودية في العراق ومصر وأقطار شمال افريقيا باعـداد قليلة تحول مركز الثقل من حيث الاستيطان الى اوروبا • وهنـاك لا في الشـرق نشـأت الايديولوجيـة الصهيونيـة وقامـت حركتها السياسية المعاصـرة •

الثـورات البرجوازيـة
وانعتـاق اليهـود

وعاشت الطوائـف اليهوديـة في اوروبا في القـرون الوسيطة في الغيتوات ••

ولم يكن ذلك دائما بسبب التفرقة الدينية واتجاه الكنيسـة النصرانية نحو عزل اليهود عن النصرانيين •• فالتاريخ يعـرف مناسبات طالـب فيها قادة هذه الطوائـف بالانعـزال عـن سائـر المواطنين •••

وفي هذا كتب « هوارد مورلي ساخر » في كتابه « مسيرة التاريخ اليهودي المعاصر » : « من سخرية القدر أن يطالب اليهود بأنفسهم في اقامة الغيتوات الاولى في اسبانيا وصقلية في العصر الوسيط المبكر باعتبارها رمزا ماديا لتنظيمهم الذاتي » ·· وأضاف أن بعض اليهود اكتشفوا أخطار هذه الانعزالية في القرن السادس عشر ولكن ذلك جاء متأخرا فآنذاك فرضت الغيتوات فرضا على اليهود ·· (ص ٢٩) ·

كذلك ليس دقيقا القول أن التضييق على نشاط اليهود الاقتصادى وحرمانهم من العمل الزراعي هو الذي فرض عليهم اختيار الاشتغال بالتجارة والربى في العصور الوسطى ·· فكما لاحظ كتاب تاريخ كمبردج الوسيط أن اليهود منذ القرن السادس أقاموا المستوطنات التجارية في أوروبا وحافظوا على علاقات ودية مع أبناء دينهم في ايطاليا واسبانيا والشرق (الجزء الثاني ص ١٥٦) · وهذا الاتجاه استمر عبر القرون حتى اشتهرت الطوائف اليهودية بالشئون المالية ومعرفة قوانين التجارة ··

أما اشتغالهم بالربى فيعود الى تحريم الكنيسة الكاثوليكية في أوروبا التعامل بالربى على النصارى ونشوء فراغ أشغله اغنياء اليهود ·

وتجدر الاشارة هنا الى أن الطوائف اليهودية التي كانت تستقر هنا أو هناك لم تكن في طبيعة الحال طبقة واحدة بل طبقات ، مثلها فى ذلك مثل سائر المجتمعات ، الا انها كانت تقوم عادة حول نواة تجارية ـ مالية وتؤلف طائفة انعزالية بسبب نظام الغيتوات ·

وهكذا وصف كتاب تاريخ كمبردج الوسيط عملية الاستيطان

في أوروبا في بدء عهدها :

« وكان كثيرون من اليهود فى الايام الاولى من الاستيطان في أوروبا مزارعين • الا أن المهاجر المسالم الى بلاد مأهولة لا يستطيع الاستيطان بسهولة على الارض • ثم ان الطبيعة الطائفية وضرورة القيام بالطقوس الدينية اليهودية جعلت من الافضل الابقاء على الصلات الدائمة التي لا يسهل القيام بها في ظروف الوحدات الريفية (المتباعدة) وهذا وطد الاتجاه الطبيعي بين القادمين الجدد نحو البقاء في المستعمرات التي كان قد أقامها أبناء ملتهم ••

ويضيف : « وبلا شك كانت الطلائع التى تغلغلت في أوروبا الغربية واقامت المستوطنات (اليهودية) تجارية وعملت فى التجارة» « الجزء السابع ص ٦٤٣ ـ ٦٤٤ » •

ثم أن موقع هذه الطوائف الاقتصادى والتعصب الديني الذي امتازت به القرون المظلمة في العصر الوسيط خلق ظروف الاضطهاد الديني الذى تعرضت له بعض الطوائف في أيام الصراع الاجتماعي القائمة •• ولذلك كان بديهيا أن يشتد هذا الاضطهاد مثلا أيام الصليبيين ويصل درجة المذابح •• فالصليبية جسمت خطورة الصراع الاجتماعى المتفجر فى المجتمع الاقطاعي الاوروبي •

ومع كل هذا الاضطهاد الذى وصل حدودا وحشية في بعض الاحيان لم تنشأ أيديولوجية صهيونية وبقيت فكرة المسيحية في اطارها الالهي •

وجدير بالذكر هنا أن الراب منشي بن اسرائيل الذى سافر الى انجلترا فى القرن السابع عشر ليسترحم حاكمها ، كروميل ، ليسمح باستيطان اليهود فى تلك البلاد ، كان يعلن أن على

اليهود أن ينتشروا في أربعة أطراف المعمورة قبل أن يعيدهم الرب الاله الى « أرض الميعاد » (تاريخ الصهيونية ، ناحوم سوكولوف الجزء الاول ص ١٧ ـ ١٨) ٠

ولم يكن الاضطهاد مقتصرا على اليهود ٠٠ فالنظام الاقطاعي السائد انذاك امتزج بالتعصب الديني واستخدمه الاقطاعيون في الصراعات الاجتماعية ٠٠ ولذلك شاهدت تلك الحقبة من الزمن مذابح دينية ذهب ضحيتها أبناء الاقليات النصرانية في أوروبا (البروتستانت في فرنسا والكاثوليك في بريطانيا) ٠٠ كما استنفرت حروبا دينية مدمرة بين الكاثوليك والبروتستانت راى فى جذورها المؤرخون الماديون صراعا بين الكثلكة الاقطاعية والبروتستانتية الرأسمالية ٠

* * *

ودشن نمو الرأسمالية اقتصاديا في أوروبا عصرا جديدا ٠ وحين حققت الثورات البرجوازية سيادة الرأسمالية سياسيا ، بالاضافة الى سيادتها الاقتصادية ، حدثت ثورة في حياة الطوائف اليهودية ٠

ويجمع المؤرخون على أن انتصار الثورة البرجوازية في أوروبا عامة حطم جدران الغيتوات وفتح الطريق واسعة أمام اندماج الطوائف اليهودية بالشعوب التي كانت تعيش بين ظهرانيها ٠

واذا كانت الثورات البرجوازية قد أعربت عن نمو القوميات وتبلورها في حدودها الاقليمية ، واكتسابها المميزات القومية العينية فهي في الوقت ذاته بدأت عملية اكتساب الطوائف اليهودية مميزات القوميات التي كانت تمتزج بها ٠٠

ودشنت الثورة البرجوازية الفرنسية الانعطاف الحاسم في انهيار الاقطاعية وانتصار الرأسمالية على الصعيد الاوروبي العام ، ولذلك جسدت نقطة حاسمة في عملية انعتاق اليهود واندماجهم بالشعوب اقتصاديا وسياسيا واجتماعيا وثقافيا ٠

ونزعم أن الثورة البرجوازية الفرنسية شكلت نقطة البداية في هذه العملية للامرين التاليين :

* لان الحروب النابليونية ، بغض النظر عن طابعها التوسعي ، نقلت مبادىء الثورة البرجوازية الديمقراطية ـ ومنها مساواة اليهود بسائر أبناء الشعوب ـ الى الاقطار الاوروبية التي وصلت اليها هذه الجيوش ٠

* ولان الامبراطور نابليون جسم هذه العملية بعقد مجلس السنهدرين ـ وهو هيئة قضائية عليا كانت قائمة في أزمنة مملكة اسرائيل الغابرة ـ واستصدر قرارات منه بهذا المعنى :

ويقينا أن التئام مجلس السنهدرين كان حدثا هاما في حياة الطوائف اليهودية في أوروبا فى القرن التاسع عشر لانه وضع أسس أيديولوجية لحل المسألة اليهودية في ظروف صعود البرجوازية ، وصاغ فكرة الانعتاق واندماج الطوائف اليهودية بالشعوب التي تطبعوا بطبائعها القومية ٠

لقد التأم السنهدرين بحضور ثمانين شخصية دينية وعلمانية من مختلف أنحاء الاقاليم التي كانت تسيطر عليها فرنسا نابليون في أوائل شباط ١٨٠٧ لاعطاء أجوبة على أسئلة محددة من مثل : أيحق لليهود تعدد الزوجات ؟ أيصح الطلاق في اليهودية ؟ أيمكن الزواج بين اليهود والنصارى ؟ أيعتبر اليهود الذين ولدوا فى فرنسا ، فرنسا وطنا لهم ؟ هل تشجع القوانين

اليهودية الربى بين اليهود ؟

واتضح أن الاسئلة كانت مصيريـــة على اعتبار انها ستحدد العلاقات بين اليهود والشعوب التي يعيشون بين ظهرانيها .

ولم تكن الاجوبة اصطناعية شكلية .. ولم تكـن من النـــوع المثالي المجـــرد .. لقد جاءت في القضايا الجوهريـــة تجسم عمليـــة التطـــور التاريخي .

وبحق أكد المؤرخ هاورد مورلي ساخر أن السنهدرين كـــان مخلصا بلا شك حين أكد أن اليهود داروا ظهورهـم على فكـــرة وجودهم كأمة (كتابه مسيرة التاريخ اليهودي المعاصر ص ٦٣) وأن فرنسا وطنهـــم .

وانذاك أعلن أحد كبار رجالالسنهدرين المالي الكبير أبراهام فورتادو : « لسنا نؤلف أمة في داخل أمة أخرى .. ان فرنسا وطننا. أيها اليهود هذا هو وضعكم . ان واجباتكم قد تحددت والسعـــادة تنتظركم » (المصـــدر أعـــلاه).

وفسر الكاتب أهداف نابليون من عقد السنهدرين ومن هـــذه المظاهرة بتحقيق مساواة اليهود بالفرنسيين واعلان فرنسة اليهود ، تفسيرات عديدة لعل أوقعها انه أراد الاستفادة من اليهود فـــي بولونيا لتزويد جيشه الذى كان يعده للزحف على روسيا القيصرية .. وأضافوا ان نابليون بعقد السنهدرين كسب اخـــلاص يهـــود فرنسا ويهود بولونيا على السواء (المصدر ذاته) .

الا أن القضية الهامة هنا أن عملية الاندماج لم تكن طارئة ، حلت بحلول نابليون وذهبت بذهابه ، بل عميقـــة الجـــذور .. ولذلك استمرت بعد هزيمـــة نابليون واتخذت طابعا طبيعيا تماما في مختلف الاقطار الاوروبية .. ولم يكن التطـــور كمـــا أراده

نابليون ــ تطورا يؤدي الى ولاء اليهود في كل مكـــان لفرنسا ــ بل كما قضت به الاوضاع الموضوعيـــة •• فكان ولاء كل طائفـة يهودية للقطر الذى ترعرعت فى ظلـــه واندمجت كـــل طائفـــة فى حياة شعبها وبدأت تسهم في عملياته الاجتماعية •• واتضـــح الانقسام الطبقي في هذه الطوائف تماما كما اتضح في سائر الشعب في هذا القطر أو ذاك •• وكما أن حركة الطبقة العاملـــة آنـذاك عرفت قادة من أبناء الطوائف اليهودية في أوروبا كذلك عرفـــت الاحـــزاب البرجوازيـــة من بين قادتهـا من انتسبـــوا الـــى الطوائـف اليهودية ••

لقد بدأت مرحلة أصبح أبناء الطوائف اليهودية يعلنون أنهـم فرنسيين وبريطانيين وألمان يدينون بالدين اليهودي أو الموسوي ••

ونتيجـــة التطور غير المتعـــادل بين أقطار أوروبا كان مــن الطبيعي أن تتفاوت عملية انعتاق اليهود واندماجهم •• ولذلـــك تخلـــف انعتاق يهود الولايات الالمانية عن انعتاق يهود فرنسا •• واتخذت عملية انعتاق اليهود في روسيا القيصرية طابعا معقدا •

وعند هذا الحـــد لا بد من التوقـــف عند مسألة يهـــود روسيا القيصرية •• فبينهم نشأت بـــذور الفكرة الصهيونيـــة وزعمـــت الحركـــة الصهيونية حين قامت في الغـــرب انهـــا قامت في الدرجة الاولى لانقاذهـــم ••

لا جـــدال في أن القيـــود على اليهود في روسيا القيصريـــة بقيـــت زمنا طويـــلا بعـــد أن حطمـــت الثـــورة الفرنسيـــة البرجوازيـــة الديمقراطية جدران الغيتوات في فرنسا وغيرهـــا من أقطـــار اوروبا الغربيـــة •

لقد حاصرت القيصرية اليهود في منطقة في غربي امبراطوريتها

شملت منطقة كبيـــرة من بولونيا الشرقية التي كانت تؤلف جـزءا من الامبراطوريـة القيصريـــة ٠٠

وفي هذه المنطقة كانت حياة اليهود صعبة الا انها كانت أفضل من حياة الفلاحين الروس التي انحطـت الى الـــدرك الاسفـــل في ظل الاقطاعيـــة الروسية (كتاب مسيرة التاريـــخ اليهـــودي المعاصر ص ٨٥ ـ ٨٦) ٠

وتمايز اليهود طبقيا وتباينت القيود عليهم ٠٠ فالاغنيـــاء منهم تخلصوا من عبء الاضطهـــاد الطائفي والفظاظة الاقطاعيـــة في حين حلـت المصائـــب بجماهير اليهود مثلهم في ذلـك مثـــل سائر سكان الامبراطورية القيصرية (٢)

صحيح ان القيصرية لجأت ، فيما لجأت اليـــه من أساليب ، لقمع الثورة الاجتماعية ، الى تشجيع المنازعات القوميـة ، عـــلى أساس مبدأ فرق تسد ، مما أدى الى مذابح في القفقاس وفي غيره من المناطق ٠٠ وفي هذا الاطار استخدمـــت القيصرية ســـلاح

---

٢ ـ في أواسط القرن التاسع عشر حين فرضت القيصريـــة تجنيد أبناء اليهود ٠٠ كان أبناء اليهود الاغنياء يتخلصون من الجندية بأساليب الرشوة مما أثار حقد اليهود الفقراء فأعربوا عن ذلـــك بأغنية شعبية معناه : أبناء السيد « روكوفر » الغني سيعـة ٠٠ لا يلبس أحدهم طقم الجندية ٠٠ ولكن الارملة الفقيرة « ليـــة » ابنها واحد ٠٠ ولكنهم يطاردونهم كأنهم طريدة برية ٠٠ من الحـق تجنيد الجماهير الكادحة !! الحذائون والخياطون فهم « مجـــرد حمير » !! ولكـــن أبناء الاغنياء الكسالـــى ٠٠ من حقهـــم أن يواصلوا حياتهم « الهادئة »

معاداة اليهود وشنت عليهم تحريضا دينيا سافلا ونظمت مذابح كانوا ضحاياها ٠

ولكن كل هذا لم يغير القوانين الموضوعية ٠٠ ولان الحركة الثورية الاجتماعية كانت عميقة الجذور واسعة القاعدة اتسمت حركة الانعتاق اليهودى في روسيا القيصرية ـ كما لاحظ ذلك لينين ـ بالاتساع والعمق بفضل يقظة الوعي البطولي بين البروليتاريا اليهودية (مجموعة كتاباته النسخة الانكليزية الجزء السابع ص ١٠١) ٠

ولهذا حين بدأت الصهيونية نشاطها في روسيا القيصرية بدأته في ظروف يقظة الوعي الطبقى بين جماهير البروليتاريا اليهودية التي انخرطت في العملية الثورية ، وحاولت أن تجذبها بعيدا عن هذه العملية الثورية كما سنرى ٠

الفصل الثالث

نشوء الصهيونية وايديولوجيتها

لم يكن من قبيل المصادفة أن تنشأ الصهيونية في أوروبا وأن يكون توقيت ظهور منظمتها في نهاية القرن التاسع عشر ، وأن تصوغ أيديولوجيتها على الوجه الذى صاغته فيه .. فالاوضاع الاقتصادية والسياسية هي التي خلقت التربة لظهور اللاسامية والصهيونية التى زعم أصحابها الرد الوحيد على اللاسامية ..

* * *

ان الاستيطان الكولونيالي الذى بدأ في القرن الثامن عشر استمر في القرن التاسع عشر وخاصة في أقطار افريقيا ، الا أن الامر الحاسم الذى ميز الربع الاخير من ذلك القرن كان انتقال الرأسمالية في أوروبا الى أعلى مراحلها : مرحلة الامبريالية ..

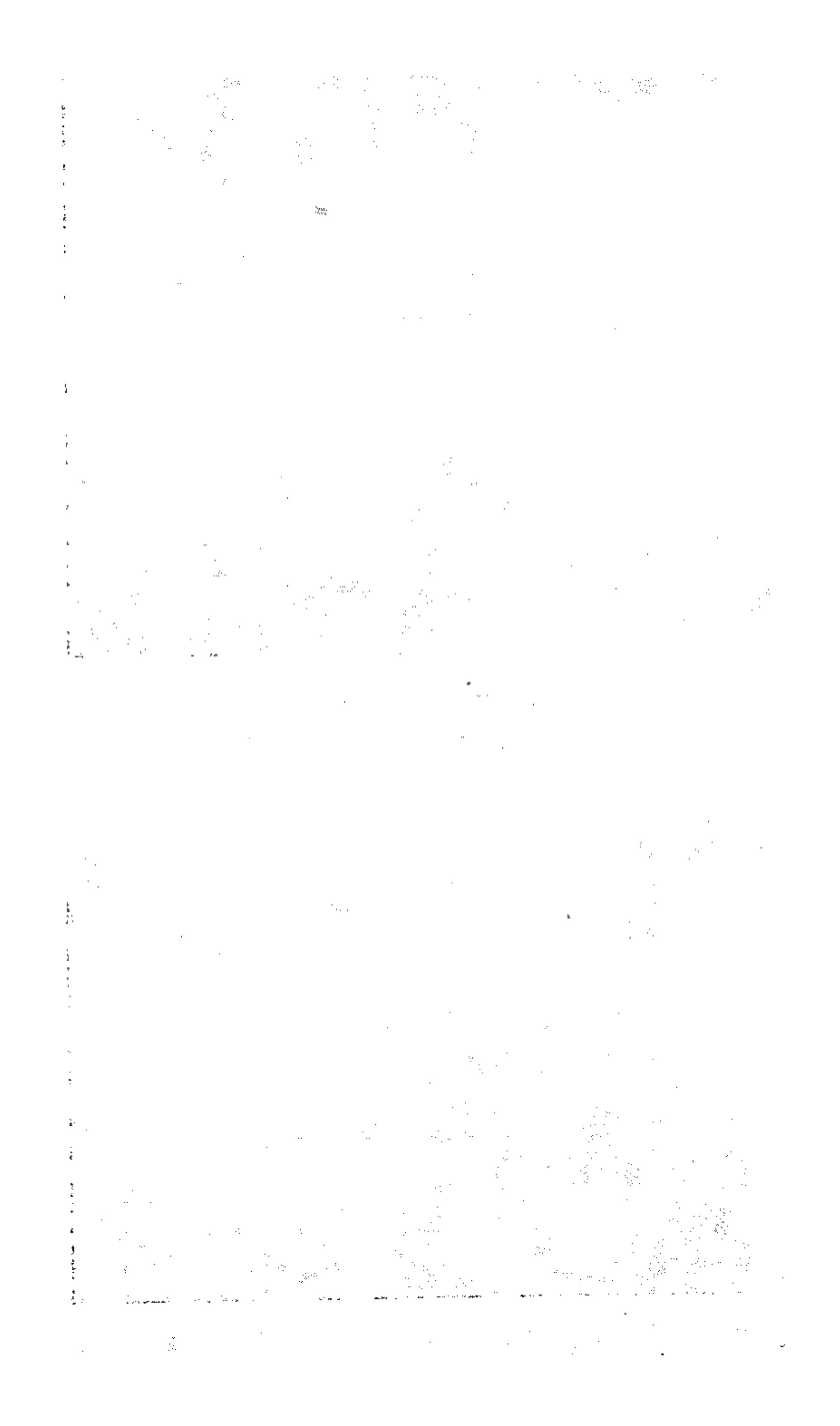
وهذا كان يعني تحول رأسمالية التنافس الحر الى الاحتكار واندماج المال المصرفي بالصناعة وتصدير رؤوس الاموال واقامة احتكارات عالمية وتقسيم المستعمرات تماما ..

هذا من ناحية أما من الناحية الاخرى فالانتقال من الرأسمالية الى الامبريالية شدد الصراعات الاجتماعية والقومية ، وجعل الصراع بين الطبقة العاملة والرأسمالية الصراع الجوهري الذى يترك طابعه على كل ميادين الحياة ونواحي التطور ...

هربرت صموئيل اول مندوب سامي
يتلو على وجهاء الطوائف الثلاثة في البلاد نصوص صك الانتداب



مظاهرة القدس سنة ١٩٢٠ احتجاجاً على الانتداب ومطالبة بالاستقلال



ولم ير القرن التاسع عشر شيوع أيديولوجية الاشتراكية العلمية ومولد الحركة الشيوعية العالمية (١) فحسب ، بل شهد أول محاولة في التاريخ تقوم بها الطبقة العاملة (الفرنسية) لخلع نير الرأسمالية واقامة المجتمع العادل الذي يقضي على استغلال الانسان للانسان ..

لقد هزت هذه المحاولة التي يعرفها التاريخ بكومونة باريس عام ١٨٧١ الرأسمالية وخاصة في أوروبا وأيقظتها على خطورة الطبقة العاملة التي اتسعت صفوفها بفضل التطور الصناعي المتواصل ، وتحسن تنظيمها بفضل خبراتها المتراكمة ، وتعمقت نضاليتها الثورية نتيجة ظروفها القاسية .

ولجأت الرأسمالية الى مختلف الاساليب لوقف المد الثوري ..

فمن الناحية الواحدة استخدمت القمع والعنف في وقف مد النضال الطبقي الثوري ، ومن الناحية الاخرى لجأت الى الاستيطان الكولونيالي في سبيل تخفيف عنف هذا الصراع ..

هكذا وصف الامبريالي سيسل رودس (٢) دور الكولونيالية الاستيطانية في هذا الصراع في عام ١٨٩٥ :

« كنت أمس في الايست اند (حي العمال في لندن) ، وحضرت اجتماعا من اجتماعات العمال العاطلين وقد سمعت هناك خطابات فظيعة كانت من أولها الى آخرها صرخات الخبز !

---

١ ـ تاسست الاممية الاولى عام ١٨٦٤ وحلت عام ١٨٧٦ .. وتالفت الاممية الثانية عام ١٨٨٩ .

٢ سميت اقاليم في افريقيا باسمه « روديسيا الجنوبية وروديسيا الشماليه ، وروديسيا الشماليه لا تزال تحكمها اقلية بيضاء من المستوطنين ... اما الجنوبية فاستقلت .

الخبز ! وأثناء عودتي الى البيت كنت أفكر بما رأيت ، وتبينت أوضح من السابق أهمية الاستعمار •• ان الفكرة التي أصبحوا اليها هي حل المسألة الاجتماعية ، أعني : لكيما ننقذ أربعين مليونا من سكان المملكة المتحدة من حرب أهلية مهلكة ينبغي علينا نحن الساسة طلاب المستعمرات أن نستولي على أراض جديدة لنرسل اليها فائض السكان ولنقتني ميادين جديدة لتصرف البضائع التي تنتجها المصانع والمناجم • فالامبراطورية ، وقد قلت ذلك مرارا وتكرارا ، هي مسألة البطون • فاذا كنتم لا تريدون الحروب الاهلية ينبغي عليكم أن تصبحوا استعماريين » (٣) •

ولم تكتف الرأسمالية بهذين الاسلوبين بل استخدمت اللاسامية أيضا حين دعتها الى ذلك ضرورة تحويل الصراع الاجتماعي عن مساربه الصحيحة ••

وابتدع الرجعيون اللاسامية ـ وهي من الايديولوجية العنصرية السيئة الصيت ـ في هذه المرحلة بالذات ، مرحلة الانتقال من الرأسمالية الى الامبريالية واحتدام الصراعات الاجتماعية في أوروبها لانهم اعتقدوا انها سهلة الترويج ••

ويحدد كثيرون من المؤرخين وقت ظهور اللاسامية في سنوات السبعين من القرن التاسع عشر ويؤكدون أن الساسة لجأوا اليها خدمة لاغراضهم ••

وهذا ما يؤكده ماكس ديمونت في مؤلفه « اليهود والله والتاريخ » حين كتب : ان اللاسامية وهي أيديولوجية معاصرة تختلف تمام الاختلاف عن معاداة اليهود ، في القرون الوسطى ،

---

٣ ـ نشر الحديث الصحفي ستيد واستشهد به لينين في كتابه « الامبريالية أعلى مراحل الرأسمالية » •

نشأت في أواخر القرن التاسع عشر (ص ٣١١ و ٣١٣) ، وشاعت بين الفئات المتوسطة التي كانت قلقة بحكم عدم استقرار أوضاعها الاجتماعية (ص ٣١٥) وأضاف أن ساسة اليمين استخدموها في محاربة ساسة اليسار • ثم كتب : وفسر الساسة عدم استقرار هذه الفئات لا بأسبابه الاجتماعية والاقتصادية ، بل بسبب شرور اليهود ، فاذا كانت هذه الفئات تخاف أخطار الرأسمالية عليها ، لوحوا لها باليهودي الرأسمالي المستغل ، أما اذا كانت تخاف الشيوعية فكانوا يلوحوا لها بالشيوعي اليهودى المتامر• (ص ٣١٨) •

وهكذا فظهور الايديولوجية العنصرية رافق الامبريالية التي كانت تبرر احتلالها وسيطرتها على الاقطار المتخلفة في آسيا وافريقيا بذريعة « تمدين » شعوبها •

وذريعة « التمدين » التي اتخذت شعار لها « عبء الرجل الابيض » استنفرت بطبيعة الامور فكرة رقي شعوب الدول الامبريالية عرقا على الشعوب المتخلفة ونقواتها العنصرية بالنسبة لتلك التي أدنى منها تطورا أو « أغمق » منها لونا ••

واتؤكد حقائق التطور أن الايديولوجية العنصرية كانت أسبق من اللاسامية التي تفرعت عنها ، وان اللاسامية انتشرت أول ما انتشرت في ألمانيا الامبريالية في وقت الصراع الاجتماعي ••

ويتفق كافة المؤرخين على أن مستشار ألمانيا بسمارك الذى قام بدور كبير في انعتاق اليهود ودمجهم في الحياة الالمانية ، لجأ بنفسه الى اللاسامية في معركته السياسية حين قاد معركة حزب المحافظين مع الاحرار الذين اعتبرهم تقدميين ••

وكتب هوارد مورلي ساخر في مؤلفه « مسيرة التاريخ اليهودى المعاصر » يؤكد ارتباط اللاسامية بالصراع الاجتماعي على النحو التالي :

« وكانت سنوات السبعين فى القرن التاسع عشر بالحقيقة سنوات أزمة الطبقة الوسطي الدنيا · كانت سنوات هبوط اقتصادي فقد خلالها أصحاب الحوانيت والمعلمون ، بشكل خطير مكانتهم بوصفهم أصحاب الياقات البيضاء » ·· واضاف : « وخلال هذه الفترة بالضبط ظهر المدعو أدولف ستوكر وأدرك كره هذه الفئة الاشتراكية الماركسية والبروليتاريا فأسس «حزب العمال المسيحي الاجتماعي » واستخدم اللاسامية في دعايته لكسب الانصار » (ص ٢٢٤ ـ ٢٢٥) ··

ويتأكد ارتباط اللاسامية بالاوضاع الاجتماعية الاقتصادية في أنها لم تظهر الا في أوقات احتدام الصراعات الاجتماعية وتبددت حين لم تعد هناك ضرورة لها ·· ولذلك لم يكن من قبيل المصادفة أن اللاسامية التي شاعت في المانيا في سنوات السبعين والثمانين في القرن التاسع عشر اختفت تقريبا من الحياة السياسية عند نهاية القرن المذكور ومطلعه لتعود اليها في فترة ما بعد الحرب العالمية الاولى ، في وقت احتدم فيه الصراع الاجتماعي احتداما هائلا واتسعت صفوف الحركة الشيوعية وتعاظم دورها في الحياة الاقتصادية والسياسية ··

وليس يهمنا طبعا من اللاسامية هنا غير مقولتها الاساسية،فهي انطلاقا من مصدر أيديولوجيتها العنصرية تعتبر اليهود أمة منفصلة لا يمكن لافرادها أن يندمجوا بالشعوب التي يعيشون بين ظهرانيها ··

ولذلك كانت اللاسامية نقيض حركة انعتاق اليهود التي اقترنت بالثورات البرجوازية ، في أوروبا على وجه التحديد ، وخطت خطوات بعيدة المدى في دمج الطوائف اليهودية بالقوميات التي تعيش في أقطارها ..

واقترن ظهور اللاسامية بتطور عيني في الفكرة القومية في أوروبا ..

لقد كانت الحركات القومية في أوروبا حركات تقدمية دينامية هدفت الى تصفية تجزئة الاقطاعية وانعزالية ولايات الشعب الواحد ..

وفي الفترة التى نحن بصددها ، على الرغم من بقاء جيوب الكفاح القومى في الامبراطوريات المتعددة القوميات في أوروبا ، كانت الفكرة القومية قد فقدت طابعها التقدمي وأصبحت اداة في أيدي الامبرياليين يستخدمونها لتوسيع امبراطورياتهم تحت شعار « الكبرياء القومي » « وتمدين الشعوب » ..

وظهر هذا التغيير في طابع الحركات القومية في الحرب الفرنسية ـ البروسية التي خاضتها بروسيا من أجل خلق الاوضاع لاتمام وحدة ألمانيا . ولكن هذه الحرب الايجابية في بدايتها تجاوزت طابعها التقدمي حين تخطت الجيوش البروسية حدود ألمانيا وغزت الاراضي الفرنسية ..

وهكذا ، اذا استثنينا بعض الشعوب التي كانت ترزح تحت قيود الكبت القومي نستطيع أن نقول أن القومية أصبحت في أوروبا أداة بيد القوى الرجعية .

الايديولوجية الصهيونية

تبلورت الفكرة الصهيونية السياسية المعاصرة التى

ظهرت في القرن التاسع عشر في كتاب تيودور هرتسل « الدولة اليهودية » ٠٠ الذى ظهر عام ١٨٩٦ ٠

صحيح أن منظمات « أحباء صهيون » نشأت أساسا في روسيا القيصرية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ودعت الى الهجرة الى فلسطين ، الا انها لم تترك أثرا عميقا في حياة جماهير الطوائف اليهودية وكان من الممكن أن يعد الذين لبوا هذه الدعوة بالعشرات ، فجماهير هذه الطوائف في روسيا القيصرية كانت قد انصبت في موجة الحركة الثورية الناهضة ٠

كذلك عالج القضية اليهودية من منطلقات مماثلة لمنطلقات هرتسل اليهودي الروسي مواطن أوديسا ليوبنسكر ووضع استنتاجاته في كتابه « التحرر الذاتي » ، الا أن دعوته لاقامة دولة يهودية ــ لا في فلسطين بالضرورة اذ استبعدها ، واعيا ، ــ لم تجد اطارا تنظيميا ٠٠ وكان يجهلها هرتسل وأولئك الذين أقاموا المنظمة الصهيونية فيما بعد ٠٠

ولهذا اقترنت الحركة الصهيونية بهرتسل لانه قرن أيديولوجيته بالمنظمة الصهيونية التي نشأت بعد المؤتمر الصهيوني العالمي الذى عقد في بال من أعمال سويسرا في عام ١٨٩٧ ٠

ما هى اسس الايديولوجية الصهيونية !؟

ان منطلق أصحاب هذه الايديولوجية الاول ، كما صاغه هرتسل وخلفاؤه من بعده « أن الشعوب التي يعيش اليهود بين ظهرانيها هي ، اما ضمنا أو صراحة ، لاسامية وأن اليهود هم شعب واحد ٠٠٠ جعلهم أعداؤهم هكذا بدون موافقتهم كما يحدث مرارا وتكرارا في التاريخ » ٠ (هرتسل : « الدولة اليهودية » اصدار مجلس الصهيوني الاميركى عام ١٩٤٦ ص ٩٢) ٠

وهكذا ينطلق الصهيونيون من المقولة الغيبية التي تتجاهل العوامل الاقتصادية ـ الاجتماعية التي خلقت اللاسامية ويؤكدون أن اللاسامية أبدية قائمة بين كل الشعوب قاطبة ، وهي لطابعها العدائي أنشأت الشعب اليهودي ووحدته ·· بدون ارادته أو موافقته ··

وهذا يعني أن الصهيونية قبلت مقولة اللاسامية وأصبحت وجهها الاخر ··

وفي هذا الصدد كتب بن هلبرن صاحب كتاب « فكرة الدولة اليهودية » : « نمت اللاسامية السياسية اذن بوصفها حركة مضادة للثورة معادية للوضع القائم لا بالنسبة لوضع اليهود فحسب ، بل بالنسبة الى البناء الديمقراطي والمواقف الليبرالية التي اتخذتها المجتمعات المعاصرة عامة » ··· (ص ١٠) ··

وأضاف أن جمهرة اليهود رفضت مقولة اللاسامية واعتبرت نفسها جزء من القوميات التى اقترنت حياتها بحياة طوائفها اليهودية : « فقد أنكر اليهود الساعون نحو الانعتاق أن يكونوا قومية منفصلة » · (ص ١٢) ·· وعلى هذا الضوء يظهر أن الصهيونية فرضت الايديولوجية اللاسامية حول « القومية اليهودية المنفصلة » على الطوائف اليهودية ، على الرغم من مقاومتها ذلك ··

وفي الواقع وجدت الصهيونية صعوبة كبيرة في الانتشار بين الطوائف اليهودية في أوروبا الغربية حيث ظهرت المنظمة الصهيونية في البداية ·· ومن الدلائل على ذلك أن الطائفة اليهودية في ميونخ من أعمال ألمانيا رفضت بشدة عقد المؤتمر الصهيوني الاول في مدينتها ، مما دفع القيمين عليه لعقده في بال السويسرية ·

وقرر التقارب بين اللاسامية والصهيونية ، أيديولوجيا ، على الرغم من التناقض الظاهر بينهما ، قرره الى حد كبير موقف المنظمة الصهيونية من اللاسامية .. فالقيادة الصهيونية لم تجد في اللاسامية عدوا خطيرا بل عاملا مساعدا على تحقيق برامجها ، انطلاقا من قولة هرتسل ان أعداء اليهود هم الذين جعلوهم شعبا واحدا ..

بل ان هرتسل ذهب الى أبعد من ذلك ، وفي وصفه انتقاله من معسكر أنصار الانعتاق والاندماج الى أنصار الانعزالية الطائفية كتب انه اكتشف « أن اللاسامية وهي قوة غير واعية وشديدة المراس بين الجماهير لن تضر اليهود » وأضاف أنه يعتبرها « حركة مفيدة لتطوير الخلق اليهودي » . (يومياته ـ مختصرة اصدار المكتبة الكونية ص ١٠)

وهكذا ، فعلى الرغم من التناقض بين اللاسامية التي تصف اليهود بكل المثالب التي اكتشفتها العقليات المتعصبة ، والصهيونية التي تضفي على اليهود كافة نعوت الكمال الانساني ، فقد كان التقارب ملازما لهما على صعيد العمل .. اذ كانت الصهيونية ترى في اللاسامية محركها التاريخي وتحتاج الى نشاطها لتحقق أهدافها ..

واتخذ هذا التقارب لا شكل سكوت عن اللاسامية فحسب بل اطار تعاون وثيق بين اللاساميين والصهيونيين .. وهذا ما أظهرته حقائق التعاون بين القادة الصهيونيين مع النازيين قبل الحرب العالمية الثانية ..

وليس الوقت ببعيد حين نشرت بعض مجلات هذه البلاد فضيحة المنظمة الصهيونية فى العراق التي ألقت القنابل على

الكنس وتجمعات اليهود بقصـــد اجتثاث جماهير الطائفة اليهودية من تربتها الطبيعية ، التي نمت فيها عبر قــرون ، وتهجيرهـــا الى اسرائيل ..

واعتمادا على المقولتين : أبدية اللاسامية « وفشل » عمليـــة الانعتاق والاندماج ، أولا ، ووجود الشعـــب اليهودي بفضـــل أعدائه ، ثانيا ، استنتجت الصهيونية أن المشكلة اليهودية لا حــل لها بغير تجميـــع « شتـــات » اليهــــود فـــي مركز واحـــد فيقيموا دولتهم وتنتهي مشكلتهـــم التي « امتدت حوالي ألفي سنة » منـــذ أن « شتتهم الرومان » !! (٤)

ولم يترك الصهيونيون أيديولوجيتهم بهـــذه البساطـــة بل تعمقوا في بحث ملامحها وألبسوها حللا « علمية » ...

ومن هذا القبيـــل ما كتبه ليوبنسكر في كتابه « التحـــرر الذاتي » .. فقد اعتمد في بنائه الايديولوجي على أن اليهود هـــم قوم شبح لا وطـــن لهم ، وبما أن الانسانيـــة تكـــره الاشباح لذلك تنزل بهم الشعوب الاضطهـــاد والتعذيب .. والحـــل اذن يكمن في تحويلهـــم من قوم شبح الى قوم طبيعي .. وهـــذا يتم اذا ما أقاموا وطنا لهم في مكان ما .. فعندئذ يتوقف اضطهادهـــم حتى لو بقيت بعض طوائفهم في أقطار مختلفة .. فهـــم عندئـــذ يكونون جالية كسائر الجاليات التي تعيش بين قوميات أخرى ..

ولم يكـــن تعيين الوطن أمرا مفروغا منه منذ البدايـــة .. فليو بنسكر استبعد فلسطين عند بحثه أمر اختيار الوطـــن ، واعيا ، على اعتبار أن ذكرياتهم المرتبطة بها قد تكـــون عامـــلا

---

٤ ـ لاحظنا في البدايه زيف هذا الزعم ، فحين قضى الرومان على ما يسمـــى بالهيكل الثاني في سنة ٧٠ ميلاديه كان ثلاثه أرباع اليهود في أنحـــاء مختلفـــه من الامبراطورية .

معرقلا .. كما أن المنظمة الصهيونية ، مع انها في مؤتمرهـــا الاول دعت الى اقامة الوطن القومي في فلسطين ، الا انها عادت فــي عام ١٩٠٣ ووافقت على اقتراح ممثــل الامبرياليـــة البريطانيـــة تشمبرلين اقامة الوطن القومي في أوغندا ..

أما الاتفاق نهائيا على اختيار فلسطين فيعود الى عاملـــين : نشوء ظروف تساوقت فيها مصلحـــة الامبرياليـــة البريطانيـــة والصهيونية أولا واكتشاف الصهيونيين أن من الاسهل استنفار جماهير الطوائف اليهودية لبناء وطن قومي في فلسطين بسبـــب اقترانها بالدين اليهودي وذكريات تاريخية قديمـــة ..

كذلك ارتأت الايديولوجية الصهيونية الامة اليهودية لا أمـــة عالمية فحسب ، بل أمـــة من نوع فريـــد تتجاوز التقسيمـــات الطبقية وينتفي فيها الصراع الاجتماعي ..

ولهذا كانت دعوة هرتسل معاديـــة للاشتراكيـــة التـــي وضعها التاريخ على بساط البحث في تلك الفتـــرة التاريخيـــة في أوروبا ..

وكان واضحا أن الصهيونية التي كان من الممكـــن أن تجـــد قاسما مشتركا مع اللاسامية ، لم تجد قاسما مشتركا مع الاشتراكية العلمية . وكان اصطدامها بها تصادما مباشرا على طول الجبهة ...

ففي حين كانت الحركـــة الاشتراكية الثوريـــة آنـــذاك تدعو الى وحدة النضال الطبقي بين العمال عامـــة بغض النظـــر عن انتمائهم القومي أو الطائفي وترى في القضاء على حكم الطغيان الرأسمالي حلا للمشاكل القومية والطائفية ومن بينها المشكلـــة اليهودية ، وتنادي باندماج اليهود مع سائر القوميـــات ، ظهـــرت الصهيونية عنصرا مخربـــا في الطبقة العاملـــة تدعو الى انسحاب

العمال اليهود من النضـــال الطبقي والسير وراء سراب الصهيونية وتعميـــق العزلة الطائفية والقومية في مرحلـــة النهوض الطبقي الثـــوري ··

وفي حين أن القيادة الصهيونية لم تبـــذل أي جهد لجـــذب اليهود الرأسماليين النشيطين من الاحزاب البرجوازية (ليبرالية كانت أم محافظـــة) ، بذلت جهودا ضخمـــة ، لجـــذب اليهود من الحركات الثورية ··

وفرضت تطورات الحياة السياسية ـ الاقتصادية في أوروبا والولايات المتحدة حيث تدفقت الهجرة اليهودية في نهاية القـــرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين تغييرات في الايديولوجيـــة الصهيونية التي لم تجـــد جذورا لها بـــين جماهيـــر عمـــال الطوائـف اليهوديـــة ··

ولهـــذا ظهر تياران لا يتعارضـــان بالضرورة ·· تيـــار الصهيونية التقليدي الذى يرتأي الدولة اليهوديـــة ، في وطنهـــا المقبل دولة برجوازية ، مثـــل سائـــر الدول البرجوازيـــة في اوروبا ··· وتيار الصهيونية « الاشتراكيـــة » الـــذى يقبـــل بمقولات الصهيونية كلها ، الا انه يدعو الى أن تكـــون الدولـــة دولة « اشتراكيـــة » ··

ونؤكـــد أن هذين التيارين لم يتعارضا وبقيا في اطـــار الايديولوجية الصهيونية البرجوازية ، المتناقضة تناقضا لا مهاودة فيه مـــع الاشتراكية العلمية لان تيار الصهيونية «الاشتراكية» ! انطلـــق من قاعـــدة التعاون الطبقي باعتباره الطريـــق الوحيـــد لاقامة الوطن القومي وتنفيذ برنامج الصهيونية الاقليمي ··

وتتبلـــور الايديولوجية القومية البرجوازيـــة في هـــذه

الصهيونية « الاشتراكية » ! في توجهها الجوهري لمشكلة الطوائف اليهودية « فالصهيونية الاشتراكية » كما أذاعها بير بوروخوف ترى الصراع القومي سابقا للصراع الطبقي ـ الاجتماعي ولذلك لا بد من تجميع الشتات واقامة القوم أولا ٠٠ وهذا ما يتعارض مع الاشتراكية العلمية التي ترى التطور التاريخي حصيلة الصراع الاجتماعي منذ أن نشأت الطبقات بعد عهود الانسانية الاولى ٠٠

والامر الجوهري الذى يميز الاشتراكية العلمية عن الايديولوجية البرجوازية أن الاشتراكية العلمية ترى في نشوء القوميات واقامة الدول ظاهرة اقترنت بنشوء الرأسمالية وانتصارها على التمزق الاقطاعي لا ظاهرة أزلية ٠

وهنا ينشأ السؤال : هل يمكن اعتبار الصهيونية بوصفها أيديولوجية قومية ، أيديولوجية حركة تحرر قومي يهودي ؟

ان نشوء القوميات والدول القومية اقترن بنشوء البرجوازية وانتصارها على الاقطاعية ٠٠

هذا ما وقع في بريطانيا وفي فرنسا وفي غيرها ٠٠

وفي مثل هذه الاقطار لم تكن هناك حركات قومية ٠٠ بل حركات اجتماعية تسلمت قيادتها البرجوازية وأيدتها الطبقات الشعبية ـ من العمال والفلاحين في معركتها مع الاقطاعية ٠٠

ولكن نتيجة التطور غير المتعادل والتفاوت في ظروف القوميات الاوروبية نشأت بين القوميات المكبوتة فى الامبراطوريات العثمانية والروسية القيصرية والنمساوية ـ الهنغارية حركات تحرر قومي هدفت الى اقامة الدول القومية المستقلة ٠٠٠

وأيدت الانسانية المتقدمة وفي طليعتها قوى الاشتراكية العلمية هذه الحركات القومية باعتبارها حركات تدعم مسيرة التقدم الاجتماعي .. وقد أسهمت هذه الحركات فعلا في تقويض دعائم الامبراطوريات الاقطاعية وتدعيم الديمقراطية البرجوازية وخلق الظروف الافضل لنمو النضال الطبقي ..

ولكن أيديولوجية القومية البرجوازية التقدمية كانت قد تحولت ، في أوروبا في نهاية القرن التاسع عشر ، وقت ظهور الصهيونية ، الى أيديولوجية التوسع الاقليمي على حساب الشعوب وبهذه الايديولوجية اقترنت الصهيونية لا بغيرها ..

ثم ان الايديولوجية الصهيونية في مسيرتها لم تسهم في الظروف الموضوعية في حركات التقدم الانساني ، بل دعمت قوى الردة والامبريالية على الصعيدين الاوروبي والعالمي .. فمن الناحية الاوروبية الداخلية وقفت الصهيونية ضد حركات انعتاق اليهود العامة واندماجهم بمجتمعاتهم في كل قطر من الاقطار ، كما صادمت الحركات الاشتراكية الثورية بمحاولتها جذب العمال اليهود بعيدا عن تلك الحركات . ومن الناحية العالمية دعت الى الاندماج في مخططات الامبريالية العالمية بشقيها الكولونيالي الاستيطاني والسياسي الاستراتيجي ..



الفصل الرابع

الصهيونية حتى وعد بلفور

مخطط هرتسل
والاستيطان الاستعماري

كان كتاب تيودور هرتسل « دولة اليهود » ، تجسيدا للايديولوجية الصهيونية ، ومخططا لبناء الدولة اليهودية ، عالج ادق تفاصيل عملية البناء ابتداء من اقامة « جمعية اليهود » ـ الهيئة التي ستشرف على المشروع ـ والشركة اليهودية ـ المؤسسة التى ستنفذه اقتصاديا ـ حتى قضايا تهجير اليهود بطبقاتهم وتنظيم المدن في دولتهم واختيار لغتهم وعلمهم وسن دستورهم .

وعلى هذا الضوء يعتبر كتاب « دولة اليهود » مخطط الممارسة الصهيونية ، وتظهر فيه ملامح السياسة العامة التى اختطتها المنظمة الصهيونية بعد أن قامت في المؤتمر الصهيوني الاول ..

وحسب المخطط تكون البداية في تعيين رقعة الارض التى ستقوم عليها الدولة اليهودية ، و « جمعية اليهود » هي التي ستختار فيما بعد اذا كانت هذه الرقعة ستكون فلسطين أو الارجنتين (« دولة اليهود » بالانكليزية اصدار مجلس الطوارىء الصهيوني الاميركي عام ١٩٤٦ ص ٩٥) ثم تأتي « الشركة اليهودية » لتنفذ المشروع عمليا « فتصفي مصالح اليهود

المهاجرين ٠٠ وتنظم التجارة في القطر الجديد » (المصدر ذاته ص ٩٢) ٠

ويحتل فصل « الشركة اليهودية » حيزا محترما في كتاب « دولة اليهود » لان هرتسل أراد أن يعالج بالتفصيل ـ الى حد ما طبعا ـ مسألة تصفية أموال اليهود غير المنقولة ونقلها مع رؤوس الاموال السائلة الى القطر الجديد لاستخدامها في بناء المساكن وشراء الاراضي وتنظيم التجارة ٠

وحدد هرتسل رأسمالا لهذه الشركة بمقدار ألف مليون مارك (٥٠ مليون جنيه أو ٢٠٠ مليون دولار بسعر نهاية القرن العشرين) واختار مركزا لها لندن لتكون تحت سلطة بريطانيا القانونية وحمايتها ٠ (المصدر ذاته ص ٩٨) ٠

وتصور هرتسل واقرانه تنفيذ المشروع على نسق الاستيطان الكولونيالي في الجزائر وروديسيا وغيرها ولذلك حين أسسوا أداة الصهيونية المالية في عام ١٩٠٢ أطلقوا عليها الشركة اليهودية الاستعمارية (الكولونيالية) واعتبروها « أداة الحركة الصهيونية المالية وهدفها الجوهري تطوير فلسطين والاقطار المجاورة لها صناعيا واقتصاديا » (تاريخ الصهيونية ناحوم سوكولوف جزء ٢ ص ٣٧١) ٠

ولم تكن القضية مجرد تشابه في الاسماء ، فقادة الصهيونية أكدوا فيما بعد التماثل بينهم وبين الممارسة الاستعمارية (الكولونيالية) ٠٠

وكتب الزعيم الصهيوني ناحوم سوكولوف في معرض تفسيره دوافع تأسيس شركات المنظمة الصهيونية المالية في بريطانيا :

« وشجعت الانجازات العظيمة التي حققها الغزو السلمي البريطاني (الاستيطان الاستعماري (الكولونيالي) أ٠ت) الحركة الصهيونية لتضع ثقتها وأموالها فيها (في بريطانيا أ٠ت) ٠ لقد « خلق » سيسل رودس (الامبريالي البريطاني الذي قاد احتلال ولايات عديدة في افريقيا وسميت روديسيا باسمه أ٠ت) بمبلغ مليون جنيه فقط روديسيا التي تمتد مساحتها ٧٥٠ ألف ميل مربع ٠ وسيطرت شركة شمال بورنيو البريطانية برأسمال ٨٠٠٫٠٠٠ جنيه على ٣١٫٠٠٠ ميل مربع ، وشركة افريقيا الشرقية البريطانية التي أشرفت على ادارة ٢٠٠٫٠٠٠ ميل مربع بدأت بالمبلغ الذي بدأت فيه الشركة اليهودية الاستعمارية أي بمبلغ ٢٥٠٫٠٠٠ جنيه » ٠ (المصدر أعلاه المجلد ٢ المقدمة ص ٤٧)

وأكد سوكولوف هذا الامر حين عاد وكتب في معرض مناقشته المتشككين :

« وتسأل ما هي سياستكم ؟ وآخرون يقولون يجب استبعاد السياسة فالصهيونية يجب أن تكون اما استعمارا واما حركة روحية ٠٠ (ولكن) يجب أن نكون صهيونيين في استعمارنا وروحنا وديننا » ٠ (المصدر أعلاه المجلد ، ص ١٧) ٠

ولذلك لم يكن غريبا أن تتجه الحركة الصهيونية الى الامبراطورية البريطانية ٠٠ وفي هذا الصدد كتب ناحوم سوكولوف أيضا « وكان واضحا أن تقوم بريطانيا بدور على غاية من الاهمية في السياسة الصهيونية ٠ ومنذ البداية كانت لندن مركز المنظمة الصهيونية الماليةومحجة الصهيونية السياسية » ٠ وأضاف ولذلك قادت الطريق هرتسل الى لندن ٠٠ فبريطانيا هي التي اقترحت اقامة الدولة اليهودية في أوغندا (افريقيا)



المؤتمر العربي الفلسطيني الثالث عقد في مدينة حيفا في ١٢ كانون الثاني ١٩٢٠



ونظمت بعثة العريش ·· لقد كانت المالية الصهيونية انكليزية والنظرة السياسية الصهيونية انكليزية ··

وهذا التجاوب بين القيادة الصهيونية وبريطانيا الامبراطورية منذ بدء المنظمة الصهيونية أكده اللورد ملتشت في كتابه «جارك» فكتب أن الحركة نمت بعد المؤتمرين الثاني والثالث « وتحقق تقدم هام في انكلترا حيث كان غير يهود لامعين من مؤيدي مثل العودة الى صهيون » (ص ١١١) ·

وفعلا بدأت في هذه الفترة بالذات المفاوضات بين هرتسل ممثل المنظمة الصهيونية وجوزيف تشمبرلين سكرتير (وزير) المستعمرات البريطاني بشأن استيطان اليهود الاستعماري الكولونيالي في عدد من الاقطار ··

وفي المفاوضات الاولى بين هرتسل وتشمبرلين تقدم هرتسل في ٢٢ تشرين الاول ١٩٠٢ بمشروع لاستعمار قبرص وشبه جزيرة سيناء حتى العريش ، الا أن تشمبرلين استبعد قبرص لان اليونانيين والمسلمين (الاتراك) سيرفضون ذلك ، ولكنه نظر نظرة ايجابية نحو مشروع استعمار شبه جزيرة سيناء (وعرف فيما بعد بمشروع العريش) واقترح على هرتسل الاجتماع باللورد لاندسون من وزارة الخارجية لهذا الغرض ··· (هرتسل ريدر ص ١٢١) ·

وتابعت المنظمة الصهيونية المشروع الذى كان يجب أن يعتمد على موافقة المندوب السامي البريطاني في مصر آنذاك ، اللورد كرومر ·· وارسلت بعثة لاستقصاء الحقائق الى سيناء ، بدأ بعدها هرتسل يفاوض اللورد كرومر في هذا الشأن ، الا أن الأخير تحفظ من المخطط فسقط المشروع ·

وبعد ذلك اقترح تشمبرلين منح أوغندا (في كينيا) للاستعمار الصهيوني واقتنع هرتسل بالعرض فبحثه في المؤتمر الصهيوني السادس في بال الذي عقد بين ٢٣ ـ ٢٨ آب ١٩٠٣ ، ونجح في أخذ موافقة أكثرية المندوبين على قبول العرض وإقامة « فلسطين جديدة » في تلك المنطقة ٠٠

ولكن المشروع فشل لاكثر من سبب ، ومن أهم الاسباب مقاومة المستوطنين الانكليز أي استيطان يهودي واسع يهدد مواقعهم ، على اعتبار أن المنطقة ستتحول الى اقليم حكم ذاتي يهودي لو تم المشروع ٠٠ ومنها معارضة قسم من الصهيونيين اختيار أوغندا اعتقادا منهم انها لن تحرك عواطف اليهود كما تحركها فلسطين التي ترتبط بتقاليدهم وطقوسهم الدينية ٠٠

وهنا تجدر الملاحظة أن مخططات بريطانيا في هذه الفترة من بداية القرن العشرين تباينت ، الى حد ما ، مع مخططاتها في أواسط القرن التاسع عشر ٠٠ آنذاك كانت محافلها تدعو الى « بعث صهيون » أو « اعادة اسرائيل » في فلسطين ٠٠ وكان ذلك كما لاحظنا قد ارتبط بمشاريعها الاستعمارية في منطقة الشرق الاوسط ابان الهزة السياسية التي أحدثتها مصر في عهد محمد علي عند محاولتها اقامة الدولة العربية الكبيرة بين ١٨٣١ ـ ١٨٤٠ ٠٠ أما في مطلع القرن العشرين فكانت بريطانيا قد احتلت مصر ولم تكن تستطيع في ظروف التوازن الدولي الدقيق الذي أبقى الامبراطورية العثمانية على كف عفريت (فسميت رجل أوروبا المريض) أن تخطط الاستيلاء على فلسطين ٠٠ ولذلك كان اهتمامها بالمنظمة الصهيونية قائما على رغبتها في تسخيرها لتنظيم استيطان استعماري في بعض أنحاء

الامبراطورية البريطانية وبشكــــل خاص في أوغندا ..

ولكن تغيير الاوضاع في العالم ابان الحرب العالمية الاولـــى وسنوح فرصة لتقسيم ممتلكات الامبراطورية العثمانية (التركية) بعثا المشروعـــات الامبرياليـــة البريطانيـــة القديمـــة وعـــاد البحث من جديد في « اعادة اسرائيل » ..

المنظمة الصهيونية في الميدان الدولى

بين ٢١ ـ ٣١ آب ١٨٩٧ عقد في بال المؤتمر الصهيونـــي الاول الذي أقام المنظمة الصهيونية العالمية وصاغ البرنامج الصهيوني على الوجـــه الاتي :

« تسعى الصهيونية الى بناء وطـــن للشعب اليهودي فـــي فلسطين يضمنه القانون العام (الدولي) » .

« ويرتأي المؤتمر استخدام الاساليب الاتية (لتحقيق ذلك) : »

* تنمية استعمار فلسطين بالعمال الزراعيـين والصناعيين
* تنظيم وتلاحم اليهودية كلها (الطوائف اليهودية أ.ت) بالمؤسسات الملائمة على الصعيدين المحلي والدولي حسب قوانين كل قطـــر .
* تقوية وتنمية الوعي ومشاعر القومية اليهودية .
* اتخاذ اجراءات تمهيدية للحصول على الموافقة (الدولية أ.ت) حيث هي ضرورية لتحقيق أهداف الصهيونية » .

ويتضح من هذا أن التأكيد كان على أمرين : تنفيذ اقامـــة الوطن القومي أو الدولـــة اليهودية على نســـق الاستيطـــان الاستعماري .. والحصول على الموافقة الدولية حيث هي ضروريـة لتحقيق أهداف الصهيونية

ويقينا أن السنوات القليلة التي قضاها هرتســـل بعـــد

المؤتمر الصهيوني الاول عام ١٨٩٧ الى وفاته في ٣ تمـــوز ١٩٠٤ كانت سلسلـــة من المحاولات للحصول على موافقـــة الـــدول الامبريالية على مساعـــدة الصهيونية على تحقيـــق أهدافهـــا ٠٠ مقابل اسهام المنظمة الصهيونية في تدعيم استراتيجيتها الامبريالية٠٠

والملاحظة البارزة في هذا الشأن اتصال الصهيونيين بكافة الدول الامبريالية ابتداء من الامبراطورية العثمانية المتداعية والامبراطورية الالمانية الفتيـــة الناهضـــة حتى الامبريالية البريطانية العريقـــة والدولة الايطالية الحديثة التي بدأت تتطلع الى الفـــوز بحصـــة من المستعمرات ٠

واذا كانت اتصالات هرتسل على الصعيد الدولي قد بـــدأت باجتماعه بالوزير العثماني في ٢١ حزيران ١٨٩٦ لبحث الاستيطان الاستعماري في فلسطين تحت رعاية السلطان ٠٠ فقـــد كانـــت احدى مقابلاته الاخيرة في ٢٣ كانون الثاني ١٩٠٤ مـــع ملك ايطاليا الذى أبدى عطفـــا على مشروع الصهيونيـــة استيطـــان طرابلس الغرب تحت الحمايـــة الايطالية ٠٠ (احتلت ايطاليـــا طـــرابلس الغرب واستعمرتهـــا استعمارا استيطانيـــا فـــي ١٩١٣ وما بعـــد) ٠

والحقيقـــة أن القيادة الصهيونيـــة ، في نشاطهـــا على الصعيـــد الدولي ، كانت ترى مشروعاتها جزءا من النشـــاط الامبريالي وأعربت عن أهدافها بهذه الروح ٠٠

ولا حاجـــة بنا الى المغالاة في تقدير أهمية توجه هرتسل الى المستشار الالماني الامبراطوري بسمارك ليستشيره في مشروعـــه ويطالبه في ان يقرر في مدى فائدته للامبريالية الالمانية الناهضـــة (تاريخ اليهود ابرام ليون ساخر ص ٣٥٤) انما نريـــد أن نثبت

ان هرتسل كان دائما يؤكد فائدة مخططه الصهيوني لاوروبا الامبريالية ..

لقد كانت مقابلة هرتسل الاولى لبحث مخططه - قبل انعقاد المؤتمر الصهيوني الاول - مع الدوق الكبير دوق بادن في كارلسرو .. وكتب يصفها في يومياته فذكر أنه تكلم حول الفائدة العظمى التي تجنيها أوروبا من اقامة الدولة اليهودية . وأضاف مستعرضا أقواله أمام الدوق : « وسنبني خطوط السكك الحديدية في آسيا لتكن طريق الشعوب المثقفة . ولن تكون هذه الطريق في حوزة اي من الدول الكبرى » .

وقال الدوق - وفي هذا أكثر من مدلول : « وستحل المشكلة المصرية . فبريطانيا تتمسك بمصر لان عليها أن تدافع عن طريقها الى الهند » . (هرتسل ريدر ص ١٠٨).

ومع هذا ركز هرتسل جهودا كبيرة لكسب تأييد الامبريالية الالمانية .. وفي مقابلاته الثلاث مع قيصر ألمانيا غليوم الثاني - الاولى في استمبول في ١٨-١٠ - ١٨٩٨ والثانية في فلسطين ٢٩ - ١٠ - ١٨٩٨ والثالثة في القدس في ٢ - ١١ - ١٨٩٨ - أكد على الفوائد التي ستجنيها ألمانيا الامبريالية من تبنيها المشروع الصهيوني وحمايته .. فالاستعمار الصهيوني في فلسطين برعاية ألمانيا وحمايتها سيفتح الطريق البري لآسيا من البحر المتوسط الى الخليج الفارسي ، وبذلك يدشن عهدا جديدا ويفتح آفاقا رحبة ..

لقد أضاء وجه القيصر - حسب تعبير هرتسل - حين تكشفت أمامه الرؤيا التي رسمها هرتسل بمخططه (يوميات هرتسل المحرر مارفن لوينتال ص ٢٧٢) .

وحين لم تثمر المساعي فى اقناع القيصر الالماني لوضع الاستعمار الصهيوني تحت حمايته لاعتبارات دولية أهمها العلاقا تالالمانية ـ العثمانية وعدم رغبة القيصر الالماني في تعكيرها ٠٠ وبعد أن أحجم السلطان عبد الحميد عندما قابله هرتسل في ١٩ أيار ١٩٠١ عن منح « الفرمان » بالاستعمار الصهيوني فى فلسطين ركز هرتسل جهوده على كسب تأييد بريطانيا التي بادرت كما أسلفنا الى عرض استعمار اوغندا على الصهيونيين في عام ١٩٠٣ ٠

وازاء هذا لم يكن غريبا أن يطرق هرتسل أيضا باب القيصرية الروسية التي اقترفت مذابح اليهود في بعض مدنها محاولة منها اشغال الرأي العام وابعاد الثورة عن بلادها ٠

وفي هذا الاطار اجتمع هرتسل بوزير الداخلية القيصري بهلفه الذى عرف بمعاداته اليهود وكان مسؤولا عن مذبحتهم في كيشينوف ، في ١٠ـ٨ـ١٩٠٣ ٠ وفي هذه المقابلة ، والمقابلة التي أعقبتها في ١٤ آب ١٩٠٣ ، توصل الاثنان الى قدر كبير من التفاهم ٠٠ فهرتسل تعهد بأن تسلخ الصهيونية اليهود عن صفوف الاشتراكيين ، وتعهد بهلفه بتمكين المنظمة الصهيونية بالعمل (وكما قال سمح لليهود بالتنظم ، الامر الذي حرمه على المسيحيين) ، كما وعد بالتدخل مع السلطان لتسهيل الاستيطان الاستعماري الصهيوني في فلسطين ٠ (يوميات هرتسل ـ المحرر مارفن لوينثال ـ ص ٣٨٩ و ٤٠١ و ٤٠٢)

وأصبحت مقاومة الحركات الاشتراكية الثورية التي تبناها هرتسل آنذاك تقليدا عميق الجذور في القيادة الصهيونية ولا تزال

السياسة الصهيونية في هذا الميدان على حالها ·

الخلاف بين الصهيونية العملية والصهيونية السياسية

ومع نمو التنظيم الصهيوني على الصعيد القطري تبلورت ولاءات المنظمات القطرية كل للدولة القومة التى تنتسب اليها

وهكذا كان ولاء المنظمة الصهيونية في ألمانيا للامبرياليه الالمانية كما كان ولاء المنظمة الصهيونية البريطانية للامبرياليه البريطانية ··

وتجسم هذا الامر في مجريات المؤتمر الصهيوني السابع الذي عقد في بال بين ٢٧ تموز و ٢ آب ١٩٠٥ ، وكان المؤتمر الاول بعد وفاة هرتسل · فلقد تقرر في هذا المؤتمر التخلي عن فكرة استعمار الصهيونية أوغندا والعودة الى البرنامج الاصيل الذى حدد فلسطين هدفا للاستيطان الاستعماري الصهيوني ··· وعلى الاثر انشق عنه فريق من كبار الصهيونيين البريطانيين بقيادة اسرائيل زانغويل والفوا « الاتحاد الاقليمي اليهودي » وهدفه تنمية استيطان اليهود في أي جزء ملائم من العالم ··

وكان هذا الانقسام انعكاسا للصراع بين الدول الامبريالية في المنظمة الصهيونية ··

ورفض المؤتمر العرض البريطاني لاستعمار أوغندا ·· وتأكيده على العمل العملي فى فلسطين ··واختياره المصرفي الالماني دافيد ولفسون رئيسا له رجح كفة القوى الصهيونية الموالية للامبريالية الالمانية مما دفع زانغويل وعددا من الصهيونيين البريطانيين الى الانسحاب واقامة منظمة عرفت بالمنظمة الاقليمية وهدفها التفتيش عن أقاليم لاستعمارها تحت العلم البريطاني !

ولذلك كان طبيعيا فيما بعد أن يحل اسرائيل زانغويل

منظمته حين وعدت بريطانيا وعدها المعروف باسم وعد بلفور ، وبذلك دمجت المخطط الصهيوني باستراتيجيتها وألغت الفروق بين الصهيونيين البريطانيين والصهيونيين عامة على اعتبار أن الدول الامبريالية الاخرى لم تكن في الميدان آنذاك ٠

وقد كانت القوى الصهيونية الالمانية ، الحاسمة في المنظمة الصهيونية العالمية حتى بداية الحرب العالمية الاولى حين بدأت مرحلة الحسم بين المجموعتين الامبرياليتين الكبيرتين في العالم ٠

انذاك انعكس الصراع بين القوى الصهيونية الموالية للامبريالية الالمانية والقوى الصهيونية الموالية للامبريالية البريطانية في أكثر من ميدان ، ويصور حايم وايزمن هذا الامر بدون أن يعترف بظاهرة انعكاس الصراع الامبريالي في المنظمة الصهيونية حين يصف في كتابه « الخطأ والتجربة » معركة اللغة التي دارت في عشية الحرب العالمية الاولى في فلسطين ، فيكتب عن وجود شبكات تعليم ثلاث في فلسطين الاولى باشراف (اليانس ازرائيلين يونفرسال) ومقرها باريس ولغة التعليم فيها الفرنسية ، والثانية « هلفسفيرين در دويتشن يودين » ومقرها برلين ولغة التعليم في مدارسها الالمانية ، والثالثة مدرسة «افيلينا دي روتشيلد» في القدس ولغة التعليم فيها الانكليزية ٠

ويلاحظ أن منظمة « الهلفسفيرين » كانت أداة الدسائس (لذا بالضبط) الالمانية في الشرق الادنى ٠ (كتابه التجربة والخطأ اصدار شوكن نيويورك ص ١٤٢) ٠

ثم ينتقل الى معركة اللغة فيذكر نشوء « التخنيكوم » في حيفا تحت حماية ألمانيا والمنافسة التي جرت في هيئة الهلفسفيرين

حول لغة التعليم ويصف دعاة التعليم باللغة الالمانية بيهود القيصر ويضيف انهم ألمان أكثر من الالمان ولكنه لا يعترف أن دعاة التعليم العبري كانوا من أنصار الامبريالية البريطانية (ص ١٤٣) ٠

ونجح يهود القيصر الالماني ، على حد تعبير وايزمن « في تفضيل اللغة الالمانية بأكثرية ساحقة ٠٠ ولكن اضراب المعلمين في التخنيكوم في حيفا وتمسكهم بالعبرية حسم الامر ضد اللغة الالمانية ٠ (ص ١٤٤) ٠

وفي هذه الفترة ظهر الصراع بين الدولتين الامبرياليتين الكبيرتين بريطانيا والمانيا ، فى المنظمة الصهيونية ، وكأنه خلاف بين الصهيونيين ـ السياسيين ـ والصهيونيين العمليين ومع هذا فلم يكن هذاالخلاف مجرد انعكاس الصراع الامبريالى ٠

وهنا علينا ان نتوقف عند هذا الخلاف بين الصهيونيين السياسيين والصهيونيين العمليين ٠

لم يكن هذا الخلاف حول ايديولوجية الصهيونية واهدافها بل حول اسلوب تحقيقها ٠٠ ففى حين دعا الصهيونيون السياسيون وكان خطهم مسيطرافى ايام هرتسل الى استصدار تشريع دولى بتأييد المشروع الصهيونى ٠٠ دعا الصهيونيون ـ العمليون ـ بدون الانتقاص من أهمية ـ التشريع الدولي ـ الى البدء باستيطان فلسطين استعماريا لخلق حقائق قائمة ٠٠٠

وكان دعاة الصهيونية ـ العملية ـ فى البداية صهيونيى روسيا القيصرية الذين حاولوا توجيه الهجرة من بلادهم واوروبا الشرقية الى فلسطين بدلا من الولايات المتحدة ، ولذلك لم يكن فى وسعهم الانتظار حتى تصدر الدول الكبرى وعدا باقامة الوطن القومى اليهودى اوالدولة اليهودية ٠٠ وبكلمات اخرى كان

الصهيونيون ـ العمليون ـ بدعوتهم الى استيطان فلسطين يحاولون تحويل التيار الجارف من الهجرة عن الولايات المتحدة وغيرهـــا من الاقطار الغربية التى كانت ترحب بالهجرة الاوروبية ..

وفي هذا الاطار كانت الدعوة الى الصهيونية « العمليـــة » ، دعوة الى انقاذ الايديولوجية الصهيونية بذاتها وصيانـــة فكـــرة الدولة اليهودية .. اذ أن الهجرة من أوروبا الشرقية الى النصـــف الغربي من الكرة الارضية أكـــدت ، لا التماسـك اليهودي القومي ، بل الاندماج الانساني العام القائم على الرغبة في الهـــروب مـــن الاضطهاد والتفتيش عن الحياة الكريمة .. الحياة الانسانية ..

وهكذا تبلورت الصهيونية « العملية » ، في تهجير اليهـــود الى فلسطين ، التي ألفت آنذاك جزء من الامبراطورية العثمانيـــة ، بدون انتظار وعد دولي باقامة الدولة اليهودية .

ولكن حين اشتد الصراع الامبريالي البريطاني ـ الالماني أصبح في مصلحة الامبريالية الالمانية التي تحالفت مـــع الامبراطوريـــة العثمانية أن تسخر الصهيونية لمقاصدها ، فتؤيـــد الاستيطـــان الاستعمارى في فلسطين ، الواقعة فى الامبراطورية العثمانيـــة ، في حين كانت الامبريالية البريطانية ، كما اتضح ، تريد تسخير ، هذه المنظمة ، لمقاصـــد الاستيطان الاستعمـــاري في ممتلكـــات الامبراطورية في افريقيا ..

ومع هذا فمن الخطأ تقسيم الصهيونيين بهذه البساطـة وبهذا الشكل الميكانيكي .. فقد تداخلت الاتجاهات في المراحل المختلفـة وكان الانقسام في الولاء الامبريالي بين الدولتين واضحا في فتـرة مشروع أوغندا وحتى عشية الحرب العالميـــة الاولى ..

ونؤكد هذه الحقيقة لان عددا من الصهيونيين الذين كانـــوا

من أشد الموالين للامبريالية البريطانية ـ وبينهم وايزمن ـ انتسبوا الى الصهيونيين « العمليين » وعارضوا مشروع أوغندا بدون أن يعني ذلك تأييدا للامبريالية الالمانية .

وفي نهاية المطاف اندمجت الصهيونية « السياسية » بالصهيونية « العملية » بعد التخلي عن مشروع أوغندا وأصبح هذا الاندماج يخدم الدولة الامبريالية التي استطاعت الاستفادة منه ـ وكانت الامبريالية البريطانية ..

الاستيطان الاستعماري في فلسطين

لم يؤد قرار المؤتمر الصهيوني السابع الذى تخلى عن فكرة استعمار أوغندا والتمسك بفلسطين الى وقف عملية الهجرة اليهودية الواسعة من أوروبا الى العالم الجديد ..

لقد دعت المنظمة الصهيونية الى الاستيطان في فلسطين على اعتباره تجسيما للكيان القومي وبذلت كل جهد لجذب المضطهدين من يهود أوروبا الشرقية اليها ، الا انها لم تستطع وقف التيار الجارف من أولئك اليهود المضطهدين الوافد على الولايات المتحدة .. فالنهوض الاقتصادي في العالم الجديد وشروط الاستيطان الافضل تغلبا على دعوة « البعث القومي » الصهيوني ..

وهكذا في فترة قصيرة امتدت بين ١٨٨١ و ١٩١٨ أصبح عدد اليهود فى الولايات المتحدة حوالي أربعة ملايين في حين كان عدد اليهود في فلسطين في عشية الحرب العالمية الاولى ٨٠ر٠٠٠ وهبط اثناءها الى ٦٥ ألف ..

ومع هذا ، وعلى الرغم من المناقشة التي دارت بين الصهيونيين « العمليين » الذين يريدون الاستيطان حالا ، والصهيونيين « السياسيين » الذين أرادوا « فرمان » اعتراف من الدول قبل

البدء بالاستيطان ، فقد كان يجري استيطان بطيء ويقيم اليهود المهاجرون مستعمرات في مختلف أنحاء فلسطين ٠٠ وحسب المعطيات كانت هناك ٦ مستوطنات يعمل فيها ٤٠٠ فلاح على ٢٥ ألف دونم في عام ١٨٨٢ ، زادت قليلا في الفترة التي سبقت الحرب العالمية الاولى ٠

ومن المعروف أن المنظمات الصهيونية كانت تشتري الاراضي لتقيم عليها المستعمرات من الاقطاعيين الغائبين بوجه خاص ، مما سبب تصادمات بين الفلاحين العرب الذين كانوا يستغلون تلك الاراضي والفلاحين اليهود الذين تسلموا الاراضي التي اشترتها لهم منظمتهم من « صاحب » الاراضي «الشرعي» ٠٠

وهكذا ولد الاتصال الاول احتكاكا معاديا بين العرب واليهود ٠

ولم يكن الاحتكاك ناجما فقط عن تجريد الفلاحين من أراض هم عرفا أصحابها وان لم يكن قانونا ، بل عن توجه المستوطنين اليهود نحو الشعب العربي عامة ٠٠

ويصف « أحاد هعام » أحد كبار الصهيونيين في مطلع القرن العشرين تصرفات المستوطنين في (مقالته « الحقيقة من فلسطين » فكتب عام ١٨٩١) :

« اننا نفكر أن العرب جميعا متوحشون مثل الحيوانات ولا يدركون ما يجري من حولهم ٠ هذا خطأ كبير » ٠

وبعد أن ينصح المستوطنين بعدم اثارة التذمر ضدهم مهما كانت الظروف وبمعاملة العرب بروح وديه واحترام ، كتب :
« ولكن كيف يتصرف اخواننا في فلسطين ؟ بالعكس تماما ! كانوا اقنانا في أرض الشتات وفجأة وجدوا أنفسهم في حرية لا حدود لها وهذا التغيير أيقظ فيهم ميلا نحو الطغيان ٠ انهم يعاملون

العرب بالمعاداة والقسوة ، يجردونهم من حقوقهم ويسيئون اليهم بلا سبب وحتى يفتخرون بأعمالهم ولا يوجد بيننا من يقاوم هذا الميل المزري الخطير » ٠

ولم يتغير هذا التوجه ٠٠ ولعل الوصف الذى أورده آرثر كوستلر في كتابه « الوعد والوفاء » ـ فلسطين ١٩١٧ ـ ١٩٤٩ يصور النظرة التي أرشدت القيادة الصهيونية في موقفها من المواطنين العرب ٠٠

كتب ارثر كوستلر : ان يوسف بن داوود طعن بحربة شيخ قبيلة (أبو رمان ؟) القوية التي حطت بالقرب من بيتح تكفا وأرداه قتيلا ٠٠ وكان ذلك لان قطعان القبيلة رعت في أرضي المستوطنة وسرقت القمح ٠٠ وأضاف أن يوسف بن داوود حمل هو وآخرون جثة الشيخ المطعون على ظهر فرس ودخلوا به مخيم البدو وبذلك رفعوا اسم اليهود عاليا وجعل العرب يعترفون بعجزهم عن اجلاء اليهود عن أراضيهم ٠ (الوصف نقله كوستلر عن كتاب الياهو جولومب تاريخ الدفاع الذاتي اليهودى فى فلسطين) ٠

وحتى في هذا الوقت المبكر كانت القيادة الصهيونية تتعاون مع الحكم العثماني للبطش بالفلاحين العرب الذين أجلوا عن أراضيهم بعد أن باع الاقطاعيون الاراضي التي كانوا يعملون عليها ٠٠

كتب أهرون كوهين في كتابه اسرائيل والعالم العربي وصفا دقيقا لهذه العملية وأبرز أن « مكيفي اسرائيل » والخضيرة والمطلة وغيرها أقيمت بعد اجلاء الفلاحين العرب ٠ (النسخة الانكليزية ٥٦ـ٥٨) ٠

ومن هنا نرى بداية ما أصبح يعرف فيما بعد باحتلال

الارض في فلسطين .. ومن هنا نرى بداية استخدام العنف ازاء المواطنين العرب لفرض الصهيونية عليهم واجبارهم على الاستسلام ...

ولم تكن ممارسة الصهيونية في نشاطها الاستيطاني الاستعماري تقتصر على العنف حيال العرب ، واحتلال الاراضي فحسب ، بل أضافت لذلك ما عرف فيما بعد باحتلال العمل ..

وقد شرح أيديولوجية احتلال العمل س.ليفنبرغ في كتابه « اليهود في فلسطين » . فكتب ان الصهيونية توحيد اضداد تجمع بين الشعور الطبقي والوعي القومي فالعامل يرى طبقته كجوهر الامة .. ويرى استعمار البلاد (فلسطين) ونمو الطبقة العاملة أمرا مترابطا ترابطا متبادلا » . (ص ٥٥) .

واذا كان استعمار البلاد ونمو الطبقة العاملة أمرا متداخلا فقد أصبح من الضروري أن يحتل العمال اليهود العمل .. وأن يكونوا أداة الاستعمار صناعيا وزراعيا ..

وأضاف ليفنبرغ في هذا الصدد « على العمال اليهود أن يدافعوا عن أنفسهم حيال استبدالهم بعمال عرب فلسطينيين ومن الاقطار المجاورة يتناولون أجورا رخيصة !! ص (٦٦) » .

في هذا تتجسم الانعزالية الصهيونية وتعصبها القومي الذى لم يحتمل التعاون مع الجماهير العربية .. ولهذا كان الاستيطان الاستعماري منذ البداية معاديا لا للاقطاعيين العرب كما يدعي زعماء الصهيونية زورا وبهتانا . بل للفلاحين والعمال العرب .

في كتابه « بن غوريون . سيرة حياة سياسية » وصف موريس أدلمان غضب بن غوريون حين زار بيتح تكفا ووجد أن عدد العمال العرب فيها في عام ١٩٠٩ . ١٢٠٠ والعمال اليهود ٢٥ .

وكتب أن بن غوريون أكد أنه بدون حركة عمال يهودية تؤكد حقها في العمل فالمستعمرات ستزدحم بالعمال العرب ذوي الاجـــور الرخيصة (٣٩) • وأضاف أن بن غوريون لم يكن معاديا للفلاحين العرب (كـــذا) فصراعـــه معهم كان ناجما عن رغبته في تأكيد حقوق اليهود •• (ص) ٤٦ •

ولانه استرشد بالقومية المتعصبة ، وبالانفصال القومي ، لا بالتعاون مع العمال العرب من أجل أجور متساوية ، فقد توصـــل الى سياسة احتـلال العمل ، وتنظيم فـرق ضاربة من العمـــال اليهـود لمطاردتهم وطردهـم بالعنـف •

وهكذا ظهرت الصهيونية في ممارستها في فلسطين حركـــة تقوم على العنف واحتلال الارض والعمل ••

ومع هذا لم تكن الحركة الصهيونية ناجحة •• فنسبـــة اليهود الذين كانوا يتسربون الى فلسطين كانت لا شيء بالنسبـــة الى الملايين التي صبت في الولايات المتحدة وأقطار أميركا اللاتينية •

والمؤتمرات الصهيونية التي عقـــدت بين ١٩٠٥ و ١٩١٣ عكست أزمة الفكرة الصهيونية •• لقد كانت فكرة بعيـــدة عـــن الطوائف اليهودية وعن اتجاههـــا نحـــو الاندماج مع الشعـوب التي تعيش بين ظهرانيها ••

ولكن مصير الصهيونية تغير أيام الحرب العالمية الاولى •• وكان وعد بلفور بداية مرحلة جديدة في تاريخها ••



الفصل الخامس

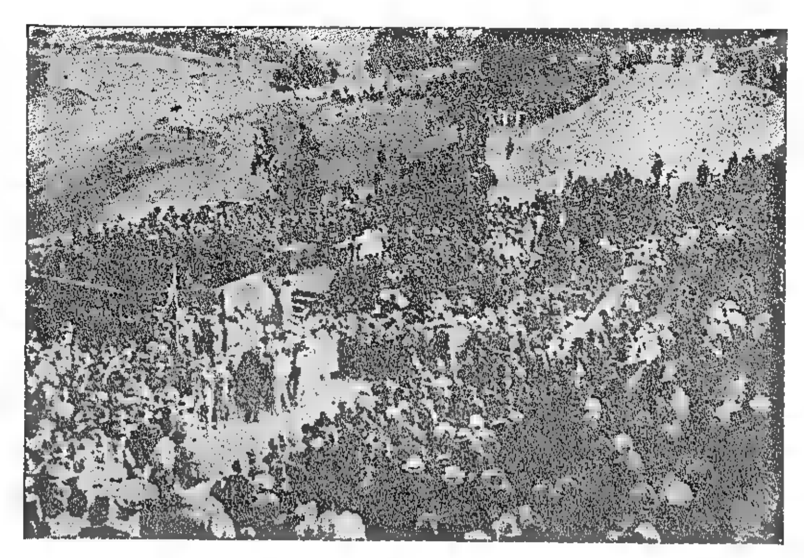
وعد بلفور

« حين انفجرت الحرب على العالم بدا مؤكدا أن البناء الصهيوني الصغير سيتحطم وتذروه الرياح »

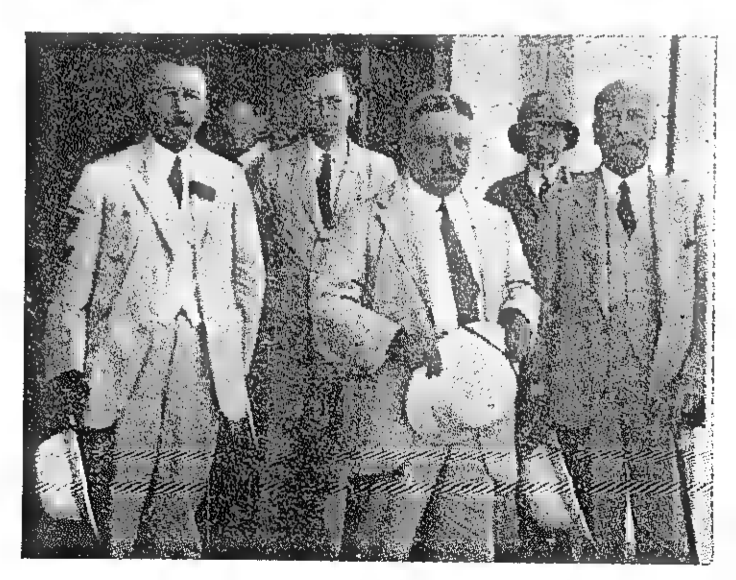
هكذا وصف أبراهم ليون ساخر الوضع في الحركة الصهيونية في بداية الحرب العالمية الاولى في كتابه « تاريخ اليهود » (الطبعة الخامسة ، نيويورك ـ ص ٣٦١) ٠

ولم يكن هذا المؤرخ وحيدا في تقويمه الحركة الصهيونية على هذا النحو فازيا برلين بروفسور النظرية الاجتماعية والسياسية في جامعة أوكسفورد كتب في كتاب حايم وايزمن ما يلي :

« ستبقى السنوات التي سبقت الحرب العالمية الاولى فصلا جافا في تاريخ الصهيونية ٠ كثيرون يئسوا ٠ وضايقت الحركة الصهيونية من الجانب الواحد سخرية اليهود الاورثوذكس التي كانت الصهيونية بالنسبة اليهم محاولة كافرة لاستباق المسيح ومن الجانب الثاني معاداة اليهود الاحرار المثقفين والناضجين في الغرب الذين رأوا في الصهيونية محاولة خطرة لاشغال اليهود بشوفينية تسعر اصطناعيا ويمكن أن تسوء علاقاتهم مع زملائهم المواطنين من العقائد (الدينية) الاخرى » (حايم وايزمن ـ حياته بأقلام عديدة ـ حرره ماير ويزجال



زفة علم النبي موسى احدى الاحتفالات الشعبية في القدس
كانت تتحول الى تظاهرة ضخمة ضد سياسة بريطانيا الاستعمارية



لجنة التحقيق الدولية في حوادث البراق



وجون كارميخائيل ـ لندن ١٩٦٢ ص ٢٩) ٠٠

لقد افتخر زملاء هرتسل وتلامذته بأن انجاز الزعيم الصهيوني تلخص في أنـــه « جعـــل الصهيونية عاملا سياسيا تقـــر بـــه دول العالم (الكبـــرى) » (كتـاب ماكس نوردو الى شعبه ـ مقدمة بقلم ب٠ نتنياهو ١٩٤١ ص ٥٢) وتبجح ماكس نوردو زميل هرتسل الاقرب في خطابه أمام المؤتمر الصهيوني السادس (بال ـ ٢٤ آب ١٩٠٣) بأن أربع دول هي أعظمها وتسيطر على الكـــرة الارضية أعربت عن عطفها ان لم يكن على الشعب اليهودي فعـــلى الاقل على الحركة الصهيونية ، الامبراطورية الالمانية أعربت عـــن عطفها ٠٠ بريطانيا قرنت عطفها بالاستعداد العملي لتساعـــد الصهيونية ٠٠ الحكومة الروسية (القيصرية) أعلنـــت خططها لمساعدتنا ٠٠ والولايات المتحدة اتخذت خطوات دبلوماسية توحي بالامـــل بأنها ستكون عطوفة حين يحين الوقـــت (المصـــدر ذاتـــه ص ١٤٢) ٠

ولكن في عشية الحـــرب العالميـــة الاولى انشغلت هـــذه الدول الامبريالية التي تفاخر نوردو « بعطفها » على الصهيونيـــة (وأكد أن عطفها لم يكن على اليهود) ، بمصالحها التوسعية ولـــم تر مكانا للصهيونية في اطار تلك المصالح ٠٠

ولكن أزمة الصهيونية لم تنجم عن انشغال الدول الامبريالية عنها فحسب بل نجمت عن انشغال جماهير الطوائف اليهوديـــة عنها أيضا ٠٠ وفى هذا الشأن يمكن قبول تقويم « بن هلبـــرن » الذى كتب : في العقد الذى سبق الحرب العالمية الاولى كانـــت أيديولوجيات يهودية مختلفة بحلولها للقضية اليهودية ، كانـــت هناك الصهيونية والاقليمية والتحـــرر المدني والدعوة للفـــوز

بحقوق الاقليات في التركز الاقليمي واللغة والثقافة . (كتابه فكرة الدولة اليهودية ص ١٥٧) .

ومع أن هلبرن لا يحدد مكانة الصهيونية في هذه الدوامة من الايديولوجيات الا أن الوقائع تؤكد انها كانت أضعفها .. وفي هذا الصدد يعترف هوراس ماير كالين في كتابه الصهيونية والسياسة الدولية : أن الصهيونية في الولايات المتحدة خرجت من تفاهتها بهبوب الحرب عام ١٩١٤ فقط وحتى ذلك الوقت كان أنصار المنظمة الصهيونية حفنة . (ص ١٣١) .

المنظمة الصهيونية تنقسم الى قوميات

أشرنا سابقا الى أن المنظمة الصهيونية كانت مسرحا للتناقضات الامبريالية وخاصة بين الدولتين الامبرياليتين بريطانيا وألمانيا .. ولاحظنا أن الصهيونيين جوهريا انقسموا بين هذين المعسكرين .. فالصهيونيون الالمان ناصروا امبراطوريتهم النامية ... والصهيونيون البريطانيون ناصروا امبراطوريتهم الوطيدة ..

وفي المرحلة التي سبقت صياغة برنامج المنظمة الصهيونية حاول الصهيونيون الالمان ادخال اطروحتهم القومية الاتية الى البرنامج :

« مرتبطين سوية بانحدارهم وتاريخهم المشترك يؤلف يهود كافة الاقطار جماعة قومية . وهذا الاعتقاد لا يناقض بحال من الاحوال مشاعرهم الوطنية النشيطة وقيامهم بواجبات المواطنة وخاصة تلك التي يشعر بها اليهود الالمان حيال وطنهم الام ألمانيا » (فكرة الدولة اليهودية ـ بن هلبرن ص ١٣٩) .

وحايم وايزمن في العقد الذى سبق الحرب لاحظ أيضا أن « الصهيونية فى انكلترا عكست الوضع المتأزم العام في الحركة

في آسوأ حال . ففي هذا الوقت كانت (الصهيونية في انكلترا) تكتسب نكهة تميل الى أن تتحول الى وطنية بريطانية دنيا ـ وطنية بريطانية قائمة على التصاق وهي لقطر خيالي لم يره أحد ولم يعرفه أحد » (ريتشارد كروسمان في كتابه : أمة بعثت ص ٢٧ ـ ٢٨) .

ولذلك ما أن وقعت الحرب العالمية الاولى في عام ١٩١٤ بين كتلتين من الدول الامبريالية : بريطانيا وفرنسا وروسيا القيصرية من ناحية وألمانيا والنمسا ـ المجر وتركيا من ناحية أخرى حتى اشتد التقاطب القومي في المنظمة الصهيونية وتعمق الصراع الاجتماعي في الطوائف اليهودية توافقا مع موضع اليهود الطبقي ..

وهكذا فالى جانب الصراع الطبقي في الاقطار الاوروبية الكبرى خلال الحرب واتخاذ اليهود مواقعهم حسب انتمائهم الطبقي سار الصهيونيون مع أقطارهم .. ولوحوا بأعلامهم القومية حتى حين كانت عواطفهم الطائفية تتعارض مع هذا المطمح أو ذاك من سياسة حكوماتهم ..

وفي هذا الصدد كتب بن هلبرن أن يهود أمريكا (ويقصد الطبقة المتمولة) أقنعوا حكومتهم بالغاء اتفاقها التجاري مع روسيا القيصرية بسبب تمييزها ضد اليهود الذين يحملون جنسية امريكية ، وأن يهود بريطانيا وفرنسا (ويقصد أولئك الذين ينتمون الى الطبقة الحاكمة) كانوا يرغبون في الوقوف مثل هذا الموقف الا أنهم وجدوا أنفسهم يتعاونون في حملة استنفار المشاعر القومية لحرب تقف فيها روسيا القيصرية الى جانب بريطانيا وفرنسا .. وأضاف : أن مهمة يهود برلين (ومن جديد يقصد أبناء الطبقة العليا) كانت أسهل .. (كتابه فكرة الدولة

اليهودية ص ١٥٨ ـ ١٥٩) ٠

ولذلك كان من الطبيعي أن تنقسم المنظمة الصهيونية العالمية على أساس انتماء قادتها القومي ٠

لقد كان مقر المنظمة في وقت اندلاع الحرب العالمية الاولى في برلين ٠ وحاول قادتها ، وجلهم من الصهيونيين الموالين لالمانيا ، أن يسخروها خدمة لاغراض الامبريالية الالمانية ٠ وفي سبيل ذلك نقلوا المكاتب رسميا من برلين الى عاصمة الدنمارك كوبنهاغن المحايدة ٠٠ ولكن كما لاحظ بن هلبرن : بقي مقر المنظمة الصهيونية في كوبنهاغن على صلة مع ألمانيا أكثر مما كان مع الحلفاء ٠٠ وفسر هذا التوجه فكتب : ثم ان فلسطين حتى قبل نهاية الحرب بقليل كانت تحت سيطرة تركيا ولم يكن ثابتا انها لن تبقى كذلك حين تنتهي الحرب ولم يكن الصهيونيون في برلين واستنبول يستطيعون العمل على فرضية أخرى ٠٠ وأضاف : والصهيونيون في أقطار الدول الحليفة لم يكن في مقدورهم القيام بمفاوضات مع الحلفاء الا على أساس استعدادهم على نسف المنظمة الدولية ٠٠ وفعلا تحطمت المنظمة ٠٠ وعمل وايزمن والصهيونيون الامريكيون في عزلة عن الصهيونيين في كوبنهاغن ودول المركز (ألمانيا والنمسا ـ المجر وتركيا) (كتابه فكرة الدولة اليهودية ص ١٦٣) ٠

وجدير بالملاحظة هنا أن ماكس نوردو الذى أصبح يبالغ بعد الحرب العالمية الاولى بالود نحو الامبريالية البريطانية دعا في فترة الحرب العالمية الاولى الى تجميد عمل الصهيونيين والترقب دون التدخل في أي شيء والاكتفاء بنشاط بنك الاستعمار اليهودي ٠ (ثائر وسياسي ـ قصة فلاديمير جابوتنسكي ـ بقلم

جوزيف ب · شختمان ـ نيويورك ١٩٥٦ ص ٢٠٩)

أما مجلة الصهيونيين الامريكيين : « المكابيين » في السنة الاولى من الحرب فقد اكتشفت ذرائع مقنعة لدخول تركيا الى جانب دول المركز وبررت انتهاج السلطات التركية سياسة ابعاد اليهود من فلسطين بوصفهم رعايا دول أجنبية معادية (المصدر ذاته ص ٢١١ ـ ٢١٢)

والثابت أن جناح الصهيونيين الموالين لدول المركز كان قويا ·· ومن مؤيدي التعاون مع تركيا دافيد بنغوريون رئيسوزراء اسرائيل السابق ، وبن زفي ، الرئيس الراحل ·· لقد أخطأ ، على حد تعبير ميخائيل بار زوهر في كتابه « النبي المسلح » : تاريخ حياة بن غوريون ـ لندن ١٩٦١ ص ٢٧ حين طالبا بدمج يهود فلسطين في الامبراطورية التركية ·· وعارضا سياسة وايزمن وجابوتنسكي القائمة على التحالف مع الحلفاء باعتبار انها تضر بيهود فلسطين · (المصدر ذاته ص ٢٨) ·

وهكذا في حين علق حايم وايزمن وزملاؤه المستقبل الصهيوني على انتصار الحلفاء اعتبر الصهيونيون الالمان وبعض النازلين في فلسطين أن الواجب يدعو الى الاندماج بالامبراطورية التركية والتعاون مع جبهة المركز وفي قيادتها الامبراطورية الالمانية · (فكرة الدولة اليهودية ـ بن هلبرن ص ١٦٥)

الصراع الانجلو ـ فرنسي داخل الحلف

لم يكن الصراع جديدا بين الدول الامبريالية على ما كان يطلق عليه آنذاك تركة الرجل المريض (الامبراطورية العثمانية ـ التركية) ·· فالصراع احتدم فى القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين واستطاعت بعض هذه الدول أن تقضم هذا الجزء

أو ذاك ولكن التركة كما بقيت كانت أصعب مـــن أن تتفـــق على توزيعها الدول الامبريالية قبل الحرب العالمية الاولى ..

بل يكاد يتفق المؤرخون أن بقاء الامبراطورية التركيـــة أو الرجل المريض حتى الحرب العالمية الاولى كان بفضل التـــوازن الدقيق بين الدول الامبرياليـــة واتفاقها على صيانـــة تكامـــل الامبراطوريـــة ..

ولكن نشوب الحـــرب أزال وضع التـــوازن الذى جمـــد الامبراطورية المتداعية وأصبحت تركة الرجل المريض بين الاسباب التي يدور حولها القتال بين الكتلتين الامبرياليتين المتحاربتين .

وكان معروفا قبـــل الحـــرب العالمية الاولى أن لكل مـــن الدول الحليفـــة : روسيا القيصرية وبريطانيا وفرنسا مطامـــع في هذه التركة تصطـــدم بعضها ببعض ولذلك لم يكن من الممكن ان تؤدي وحدة المصالح فى محاربـــة دول المركز ـ الامبراطوريات في ألمانيا والنمسا ـ المجر وتركيا ـ الى الغاء تصادم المطامـــع ، بـــل الى محاولـــة تسويتها بشكل من الاشكـــال وبطريقـــة لا تمـــزق الحلف بينها .

وبعـــد مفاوضات دبلوماسية دارت رحاها ـ اذ انها مـــن نوع الحرب الباطنة ـ في لندن وباريس وبتروغـــراد تم الاتفـــاق بين الدول الامبريالية الثلاث على تقسيم التركه بحيث تستولـــي كل دولة على القسم الاهم مما كانت تتوق اليـــه ..

وعرف الاتفاق الانجلو ـ فرنسي ـ الروسي (الـــذي تـــم الوصول الية بين نيسان وأيار ١٩١٦) باتفاق سايكس بيكو (١)

---

١ ـ نسبة للدبلوماسيين الاساسيين الذين توصلا اليه جورج بيكو الدبلوماسي الفرنسي وزميله البريطاني مارك سايكس .

وكان على صورة تبادل وثائق بين وزارات خارجية الدول الثلاث ٠

وبموجب الاتفاق تحددت حصة روسيا بالقسطنطينية (استنبول) مع عدد من الاميال الى الداخل على ضفتي البوسفور وبقطعة كبيرة من شرق الاناضول تضم تقريبا كامل الولايات الاربع المجاورة للحدود الروسية ـ التركية في حين غنمت فرنسا لنفسها القسم الاكبر من سوريا الطبيعية مع جزء كبير من جنوب الاناضول ومنطقة الموصل في العراق ٠ وتألفت حصة بريطانيا من منطقة امتدت من طرف سوريا الجنوبية حتى العراق حيث تتوسع بشكل مروحة لتضم بغداد والبصرة وجميع البلاد الواقعة بين خليج فارس (الخليج العربى) والمنطقة الفرنسية (٢) ٠٠ وتقرر أن تقع المنطقة التي اقتطعت فيما بعد من جنوب سوريا وعرفت بفلسطين تحت ادارة دولية يتم الاتفاق على ملامحها بالتشاور بين بريطانيا وفرنسا وروسيا القيصرية ٠ ولكن الاتفاق نص على منح بريطانيا في هذه المنطقة مينائي حيفا وعكا على أن يكون ميناء حيفا ميناء حرا تستخدمه فرنسا التي منحت بريطانيا بالمقابل استخدام ميناء الاسكندرونه ، الذى كان سيقع في حوزتها ، ميناء حرا ٠٠

ولذلك كان من حق لويد جورج الذى رأس الوزارة البريطانية فى الفترة الاخيرة من الحرب وبعدها أن يكتب في كتابه « الحقيقة حول معاهدات الصلح » (لندن ١٩٣٨ المجلد الثاني ص ١١١٥) : ان نوايا الدول الحليفة بشأن فلسطين حتى عام ١٩١٦ جسدها اتفاق سايكس ـ بيكو بموجبه « كانت البلاد ستتشوه

---

٢ ـ المعلومات عن الاتفاق من النصوص التي اوردها جورج انطونيوس في كتابه يقظة العرب الطبعتين العربيه والانكليزيه ٠

وتمزق الى أقسام بحيث لا تبقى هناك فلسطين » ٠

وجدير بالملاحظة أن الاتفاق تم لا في عزلة عن نشاط الصهيونية فى بريطانيا بل على الرغم منه في هذه الفترة ٠

فما أن وضعت الحرب تركة الامبراطورية التركية على جدول الاعمال حتى تقدم هربرت صموئيل الذى اشترك في الوزراة البريطانية في هذه الفترة وكان أول مندوب سام بريطاني في فلسطين فيما بعد بمشروع يقوم على ضم فلسطين الى الامبراطورية البريطانية وزرع ثلاثة أو أربعة ملايين يهودي فيها وبذلك يتحقق حلف بين الفريقين يخدم مصالح بريطانيا ٠٠

وفي هذا الوقت بالذات في نهاية عام ١٩١٤ ومطلع عام ١٩١٥ كان حاييم وايزمن يكتب لاحد أساطين الامبرياليين س٠ب٠ سكوت محرر مانشستر غارديان : « في حالة وقوع فلسطين في دائرة النفوذ البريطاني وفي حالة تشجيع بريطانيا استيطان اليهود هناك ٠٠ فستستطيع خلال عشرين أو ثلاثين سنة من نقل مليون يهودي أو أكثر اليها فيطورون حارسا فعال يحمي قناة السويس » (كتابه التجربة والخطأ طبعة نيويورك شوكن ١٩٦٦ ص ١٤٩) ٠

وهكذا فمع أن العامل الصهيوني لم يغب عن أساطين الامبريالية البريطانية فقد اختاروا بين عام ١٩١٤ وعام ١٩١٦ اهماله ٠

واذا كان ادراك أهمية العامل الصهيوني في استراتيجية الامبريالية البريطانية لم يغب ادراك أهمية هذا العامل في المنافسة بين بريطانيا وفرنسا ٠٠

فقد كتب رئيس وزراء بريطانيا هربرت اسكويث في كتابه

« ذكريات وتأملات ١٨٥٢ ـ ١٩٢٨ » تحت التاريخين ٢٨ كانـون الثاني و ١٣ اذار ١٩١٥ يصف بعض ملامح مشروع هربرت صموئيل ولاحظ أن « الغريب في الامر أن يكون نصير المشروع الوحيـد الاخر (في الوزارة) لويد جورج ولا حاجـة بي للقـول أنـه (لويد جورج) لا يهتم بالمرة باليهود ، لا بماهيتهم ولا بمستقبلهم ولكنه يعتقد أنه من انتهاك الحرمـة السماح بانتقال الاماكـن المقدسة (في فلسطين) الى حوزة أو حمايـة « فرنسا اللاادريـة الملحدة » » (الجزء ٢ ص ٧١ و ٧٨) . لقد تعلم الامبرياليـون منذ وقت طويل تغليف مطامعهم بغلافات الحماس الديني والقلـق على مصيره .. فلويد جورج ، وفي عهد رياسته الوزارة صـدر وعد بلفور ، كان في هذا الوقت المبكر من الحـرب يرى فائـدة العامـل الصهيوني في ضم فلسطين للامبراطوريـة البريطانيـة بشكل من الاشكـال .. وفي سبيـل ذلك كان مستعـدا أن « يمنح الاماكن المقدسة لليهود » حمايـة لهـا مـن « فرنسـا اللاادرية الملحـدة » !!

دخـول العامل الصهيوني الميـدان

بحق كتب ابرام ليون ساخر أن الاتفاقات زمن الحرب كانت تتغير بسرعة ، وكانت التعديلات ترافـق كـل حدث حربي .. والوعود لم تكن سوى حركات في اللعبة الدبلوماسية .. فكل قطـر كان منهمكا بمناورات معقدة من وراء ظهر القطر الاخر في محاولـة لضمان مصالحه السياسية والاقتصادية ، ووسـط هذه المؤامرات والمفاوضات أعلنت بريطانيا تأييدها للصهيونية وتحول فجـأة الحلم الصهيوني الى حقيقة .. (كتابه تاريخ اليهود ص ٣٦٥ ـ ٣٦٦) .

والسؤال ما هي العوامل التي جعلت بريطانيا تعلن تأييدها

للصهيونية في أواخر عام ١٩١٧ ؟؟

في كتابه « مفترق الطرق الى اسرائيل » (لندن ١٩٦٥) استشهد كريستوفر سايكس - ابن مارك سايكس - بالكاتب الصهيوني ليونارد شتين ، الذي أكب سنوات على دراسة أصول وعد بلفور ، ليؤكد الاستنتاج : أحد لا يعرف بالضبط دوافع الوعد فهناك أسباب عديدة عزيت اليه بحيث لم يعد ممكنا الايمان بأي واحد منهما منفردا .. (ص ١٦) .

ان بعض النظريات السخيفة حول دوافع بريطانيا لاعلان الوعد باقامة وطن قومي يهودي في فلسطين ساعدت على تشويه الرؤيا والتشكيك بمحركات الوعد الحقيقية ..

ومن هذه النظريات أن بريطانيا أصدرت الوعد اعترافا منها بخدمات البحاثة حاييم وايزمن في اكتشاف الاسيتون الاصطناعي (الحيوي جدا) في أدق مراحل الحرب .

وتروي الاسطورة أن لويد جورج رئيس الوزراء البريطاني آنذاك سأل وايزمن : بماذا يستطيع أن يكافئه فأجابه وايزمن : اصنع شيئا لشعبي .. « فتأثر » أساطين الامبراطورية وأصدروا الوعد . . (حتى البحاثة المعاصر ميخائيل بار زوهر يقبل هذا التعليل في كتابه « النبي المسلح » حياة بن غوريون ص ٣٣) ..

وهناك النظرية الانسانية التي روجها صاحب الوعد نفسه اللورد بلفور الذى زعم أن اليهود تعرضوا في أوروبا للطغيان والتعذيب ولذلك كان الوعد تكفيرا عن الجرائم التي ارتكبتها أوروبا بحقهم . (خطابه في مجلس اللوردات البريطاني في ٢١ حزيران ١٩٢٢ كما أورده كريستوفر سايكس في كتابه « مفترق الطرق الى اسرائيل » ص ١٨ - ١٩) .

ولكن هناك معطيات عديـــدة توضع الدوافـــع الجوهريـة التي جعلت بريطانيا تصدر الوعد وتتمسك به ..

وبحـــق لاحظ ابرام ليون ساخر أن بريطانيا كانت تشطب الوعد بسرعـــة لو استدعت مصالحها اعادة النظر في سياستها .. وأضاف أن المناداة بفيصل ملكا على سوريا عام ١٩٢٠ (وهـــذا أعرب عن نهـــوض كبير في حركة التحرر القومي العربية فـــي سوريا الطبيعية) جعلت وعـــد بلفور حقيقـــة (كتابـــه تاريخ اليهود ص ٣٦٩) ..

ولذلك فمن المؤكد أن بريطانيا حين أصـــدرت الوعـــد أخذت في عين الاعتبار ممكنات استخدام الصهيونية في مواجهـــة حركـــة التحـــرر القومي العربيـــة التي كانت قد بدأت تتبلور بوضـــوح وتتحول الى حركـــة ذات جـــذور بين الجماهيـــر العربية في سوريا الطبيعية والعراق وغيرها ..

ان مصالح بريطانية امبريالية عميقـــة جعلت بريطانيـــا تصدر الوعد وتتمسك به ..

وفي معرض بحثه لدوافع بريطانيا كتب كريستوفر سايكس يكشف بعض الملابسات التي رافقت الوعد ما يلي :

« في وقت ما بين أواخر عام ١٩١٦ وأوائل عام ١٩١٧ ســاد الاعتقاد أن وعدا مؤيدا للصهيونية سيحول الرأي العـام اليهـودي الامريكي الـــى جانب الحلفـــاء ويؤثر على الـــرأي الاميركي العام وكان هذا الاعتقاد حافزا كبيرا للساسة البريطان ، ولكـــن هـــذا الاعتقاد لم يبق منه سوى القليل ان بقي منه شيء على الاطـــلاق عند المرحلة الاخيرة من المفاوضات (لاصـــدار الوعـــد أ٠ت) ٠ فيبدو انه نسي ٠ وفي وقت اخر كان هناك خوف كبير من أن يستبق

الالمان الحلف بوعد منهم بشأن وطن قومي لليهود ٠ وفي المرحلة الاخيرة قبل تشرين الثاني ١٩١٧ ساد الاعتقاد أن تأييدا بريطانيا علنيا للصهيونية يبعد اليهود الروس عن الحزب البولشفي ويضمن أن تبقى الثورة لا معتدلة فحسب ، بل حليفا محاربا الى جانب بريطانيا وفرنسا » ٠٠ وأضاف انها كلها اندفاعات عابرة من المؤكد أن تكون أثرت على الحدث الا انها لا تفسره ٠٠ (كتابه « مفترق الطرق الى اسرائيل » ص ٢٧) ٠

وأبرز لويد جورج في كتابه « الحقيقة حول معاهدات الصلح » بعض هذه العوامل ٠٠ فأكد مثلا أن بعض ما حفز بريطانيا الى اصدار الوعد المعلومات بأن قيادة أركان الجيش الالمانية في ١٩١٦ ألحت على الاتراك أن يلبوا مطالب الصهيونيين بشأن فلسطين (ص ١١١٦) ٠ وأن الحكومة الالمانية كانت في أيلول ١٩١٧ تبذل مساعي جديدة للاستيلاء على الحركة الصهيونية (ص ١١٢١) ٠ واستطرد أن جمعية يهودية ألمانية تأسست في كانون الثاني ١٩١٨ بعد وعد بلفور وأن الوزير التركي طلعت ، بايعاز من الالمان ، وعدها وعدا واهيا بتحقيق رغبات اليهود العادلة في فلسطين (ص ١١٤١) ٠

ويؤكد كثيرون وبينهم حاييم وايزمن نفسه أن كسب يهود أميركا ليبذلوا جهودا في اقناع الولايات المتحدة بالوقوف الى جانب الحلفاء كان عاملا جوهريا في اصدار الوعد ٠٠

وبدون التقليل من وزن هذا الاعتبار فهناك ما يوحي بأن الوضع كان على العكس ٠٠ فقيادة الصهيونية البريطانية استنجدت بالصهيونيين الامريكيين ليقنعوا حكومتهم بالضغط على بريطانيا لتصدر تصريح بلفور ٠٠

ثم ان توزيع ألوف نسخ الوعد بالطائرات على يهود روسيا القيصرية وبولونيا وألمانيا والنمسا ـ المجر (٣) يوحي بأن أصحاب الوعد اعتقدوا أنهم بذلك يكسبون تأييد اليهود ـ في روسيا ضد البلاشفة •• وفي دول المركز ضد حكوماتهم ••

ولعل مثل هذه الاعتبارات هي التي قصدها لويد جورج حين كتب في « الحقيقة حول معاهدات الصلح » : « ان أسباب دبلوماسية وعسكرية ملحة حققت اجماعا (اجماع الوزراء ـ أ•ت) حول الموضوع (موضوع الوعد أ•ت) • وحتى السيد مونتاجي (وزير الهند اليهودي الذى عارض الوعد وكان من أشد اضداد الصهيونية أ•ت) استسلم وقبل بالتصريح (تصريح بلفور) بوصفه ضرورة عسكرية » •• (ص ١١٣٤) •

ولكن العامل المقرر في نهاية المطاف كان مصلحة الامبريالية البريطانية لا الانية فقط ، بل البعيدة المدى ••

وهذا ما أعربت عنه الصحافة البريطانية البرجوازية في الفترة التى سبقت الوعد •• وأعقبته •• فتحت عنوان « سياسة بريطانية في فلسطين ـ ضرورة عبرية بريطانية » كتبت « ساندي كرونيكل » :

« ولا يوجد جنس اخر فى العالم كله يستطيع أن يقوم بهذه الخدمات لنا غير اليهود أنفسهم •• ولدينا في الحركة الصهيونية القوة المحركة التي ستجعل امتداد الامبراطورية البريطانية الى فلسطين ـ في غير هذه الحالة ضرورة غير مسرة ـ مصدر كبرياء وركن قوة •• »

وقبل هذا الكلام دعت الصحف البريطانية الاخرى حكومتها

٣ ـ الحقيقة حول معاهدات الصلح ص ـ ١١٤٠ •

الى اعادة فلسطين الى اليهود خوفا من أن تقع في أيدي مؤذية (للامبراطورية البريطانية) ..

وكتبت « ايفننغ ستاندرد » : لقد أوضحت المصالح البريطانية منذ وقت طويل ضرورة قيام دولة حاجزة بين مصر وحكومة تركية معادية . والصهيونية تزودنا بالحل »

وتجرأت الصحف البريطانية بعد صدور الوعد في ٢ تشرين الثاني ١٩١٧ فكتبت على سبيل المثال جلاسكو هيرالد تؤكد انه سيكون للوعد أثر سياسي مباشر في أميركا وروسيا وبولونيا والمجر ثم أضافت « ومن وجهة النظر البريطانية فالدفاع عن قناة السويس يتم على أفضل وجه باقامة شعب في فلسطين ملتصق بنا ، واعادة اليهود الى فلسطين تحت الرعاية البريطانية يضمن ذلك » ..

وفي هذا الصدد كتب نورمان بنتويش في كتابه « اسرائيل الناهضة » (لندن ١٩٦٠) : لقد ربط حاييم وايزمن عجلة الصهيونية بنجم انكلترا معتقدا أن بناء فلسطين يجب أن يكون شراكة بريطانية يهودية (ص ٢٩) .

وشرح مدلول ربط عجلة الصهيونية بنجم انكلترا ماكس نوردو في خطاب ألقاه في احتفال جرى في ألبرت هول عام ١٩١٩ بحضور كبار الامبرياليين لويد جورج واللورد بلفور .. آنذاك كان ماكس نوردو قد تخلص من ولائه لالمانيا المهزومة وأصبح يهتدي بالنجم البريطاني .. قال :

« نعرف (أيها السادة أ.ت) ما تتوقعونه منا . تريدون أن نكون حرس قناة السويس . علينا أن نكون حراس طريقكم الى الهند عبر الشرق الادنى . نحن على استعداد لان نقوم بهذه الخدمة

العسكرية ولكن من الضروري تمكيننا من أن نصبح قـــوة حتـــى نقدر على القيام بهذه المهمة » ·· (« ماركس نوردو الـــى شعبه » ص ٥٧) ·

ولم تغب أهمية العامل الصهيوني فى التنافس الانجلـــو ـ فرنسي على كريستوفر سايكس فهو يعتـــرف بأن المسؤولـــين البريطانيين في الحكومة البريطانية رأوا في الصهيونيـــة في فلسطين فرصة رائعة لمواجهة أي توطيد فرنسي في سوريا · (كتابه مفترق الطريق الى اسرائيل ص ٢٠) · وهـــذا العامـــل اكتسب أهميـــة خاصة بعد الحرب حين أصبح الحلفاء في وضع يمكنهـــم من تحقيق اتفاقات توزيع الاســـلاب أو تركـــة الامبراطوريـــة التركيـــة المنهـــارة ·

ولذلك من الممكـــن أن نلخص دوافع وعد بلفور فنقسمهـــا الى جوهري وثانوي ·· آني وبعيـــد المـــدى ··

فالجوهري كان رؤية ممكنات البرنامج الصهيوني في توطيد مواقع الامبريالية في الشرق الادنى ·· وهذا يعني صـــد الحركـــة القومية العربية واجهاضها اذا أمكن ··

وهذا الهدف ، وهو هدف بعيـــد المـــدى ، قرر أيضـــا صيغة وعـــد بلفور ··

أما الثانوي الآني فكان تفويت الفرصة على الامبرياليـــة الالمانية لكسب الصهيونية ·· والاستفادة من تأييـــد من يمكـــن جذبهم من اليهود لقضية الحلفاء وخاصة في الولايات المتحدة ··

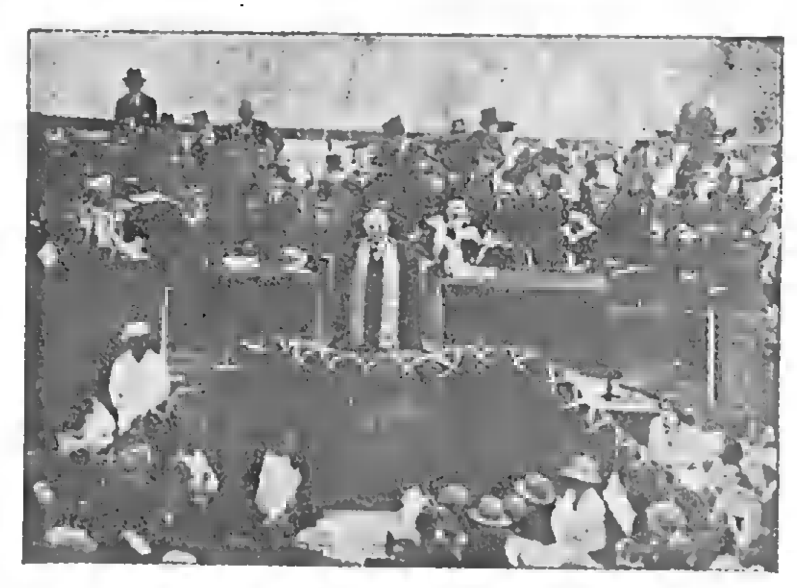
أما مسألة استخدام الصهيونية في المنافسة بين بريطانيـــا وفرنسا فقد كان ثانويا حين صدر الوعد ، ولكنه تحـــول فـــي فترة الصراع بعد الحرب الى عامل جوهري بعيد الاثر ···

ولا جدال في ان استخدام الصهيونية كما ذكر كريستوفر سايكس ، لابعاد اليهود الروس عن البلاشفة كان عاملا ثانويا ٠٠ ولكن أهميته ازدادت باشتداد الحاجة الى مقاومة الشيوعية والاتحاد السوفياتي عامة ٠٠

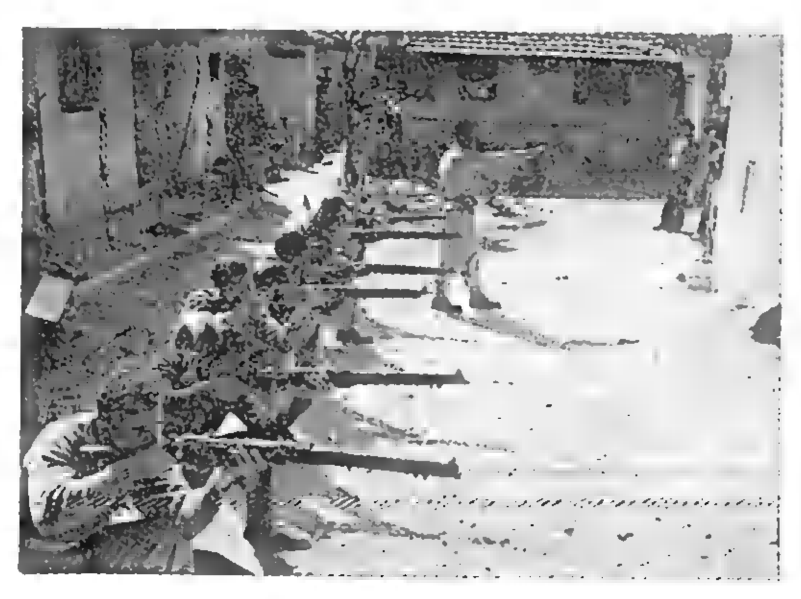
وتتأكد المصلحة العليا البريطانية ـ بوصفها العامل الحاسم في الوعد ـ من صيغته ٠٠ وبحق لاحظ « أحد هعام » المفكر الصهيوني الكبير أن الوزارة البريطانية صاغت وعدها في نهاية المطاف بدون اهتمام بمقترحات الصهيونيين أو اضداد الصهيونية ٠

فقد جاء في هذا الوعد الذى أتخذ صورة رسالة من اللورد بلفور وزير خارجية بريطانيا الى اللورد روتشيلد : « ان حكومة جلالته لتنظر بعين الارتياح الى انشاء وطن قومي في فلسطين للشعب اليهودى وستبذل أطيب مساعيها لتسهيل بلوغ هذه الغاية ٠ وليكن معلوما انه لن يعمل شيء من شأنه أن يلحق الضرر بالحقوق المدنية والدينية التي تتمتع بها الطوائف غير اليهودية الموجودة في فلسطين أو بالحقوق التي يتمتع بها اليهود في أي بلد اخر والمركز السياسي الذى حصلوا عليه » ٠

أما الصهيونية البريطانية فقد كانت تطالب بأن يأخذ بيان الحكومة البريطانية شكل اعتراف بحق اليهود التاريخي في فلسطين وبفلسطين وطنا قوميا لليهود (لا وطنا قوميا يهوديا في فلسطين) ٠٠ كذلك لم تشمل المقترحات الصهيونية اعترافا بحقوق « غير اليهود » أو بحقوق اليهود في أي بلد اخر الامر الذي أصر عليه غير الصهيونيين من اليهود ٠٠



الدكتور ماغنس في احتفال وضع الحجر الاساسي للجامعة العبرية بالقدس



كان التدرب على القتال يجري «بالسر» من قبل الهجانا



ومع أن الوقت كان مبكرا ، فقد ظهرت في صيغة الوعـــد نوايا الامبريالية البريطانية على محاولـــة مجابهة اليهود « بغيـــر اليهود » ! أي العرب ·· واقامة حكم فرق تســـد ··



الفصل السادس

الحركة القومية العربية حيال وعد بلفور

يزعم الايديولوجيون الصهيونيون الان ، أن الحركة الصهيونية باعتبارها « حركة البعث القومي اليهودية » استنفرت الحركة القومية العربية الفلسطينية .. وكتب أحدهم على سبيل المثال أن عملية خلق الامة اليهودية في اسرائيل (فلسطين) أسهمت في خلق « الامة العربية الفلسطينية » (١) ..

أما غير الصهيونيين فيجدون صعوبة في تحديد مسيرة التطور التي أدت الى ظهور حركة قومية عربية في فلسطين .. ولهذا فلا بد من توضيح الامر لادراك طبيعة مقاومة الصهيونية أولا .. وتقويم الموقف العربي من وعد بلفور ثانيا ..

ولسنا في حاجة الى عناء كبير لنقرر أن فلسطين ، في مطلع القرن العشرين حين ظهرت الصهيونية ، لم تكن وحدة جغرافية مستقلة أو كيانا سياسيا منفردا .. بل كانت جزءا من الامبراطورية العثمانية وألفت مع أقاليم أخرى سوريا الطبيعية (٢) .

ولذلك لم يكن من الضروري أن تكون فيها حركة عربية قومية مستقلة فالطبيعي أن تشملها الحركة العربية الواحدة .

---

١ ـ أهداف اسرائيلية جديدة لاسرائيل اريه الياف ص ٧

٢ ـ نقصد ما يعرف الان بسوريا ولبنان والاردن وفيما مضى فلسطين .

وتعود بوادر الحركة القوميـــة العربية في الشرق العربي الى القرن التاسع عشر ، الا أن جذور الحركة القومية العربيـــة المعاصرة نمت فى سوريا الطبيعية مع مطلـــع القـــرن العشرين وتجسمـــت في جمعيات ونواد تألفـــت في الاستانـــة عاصمـــة الامبراطورية العثمانية آنذاك ..

ولعـــل أجمـــل تعبير عن الوعي القومي العربي الباكـــر جاء في أهداف المنتدى الادبى الذى تأسس في عـــام ١٩١١ وعمل على حد تعبير رئيسه عبد الكريم الخليلي من أجـــل توثيق عـــرى الاخاء بين العرب على اختلاف أجناسهم وأديانهم وعناصرهم وطوائفهم حتى لا يذكر الواحد منهم في السياســـة والوطنيـــة غيـــر عربيتـــه الشريفـــة (٣) .

وتؤكد الحقائـــق التاريخيـــة كلها على أن الحركة القومية العربية ، في المشرق العربي ، في عهد الامبراطوريـــة العثمانية ، تجاوزت الاقليمية التي ظهرت فيما بعد .

وهكذا ـ على سبيل المثال ـ انتسب قادة جمعية العربية الفتاة، التي تأسست في باريس عام ١٩١١ ، للعمـــل من أجـل النهوض بالامة العربية الى مصاف الامم الحية ، الى مختلف الاقاليم العربيـــة المشرقيـــة ، التي قسمتها الدول الامبريالية فيما بعد الى أقطـــار منفردة بغية السيطـــرة عليها (٤) ..

ولا تعرف هذه الفترة حركة عربية ضيقة كانت أم واسعـــة

---

٣ ـ العرب والترك في عهد الدستور العثمانـي ١٩٠٨ ـ ١٩١٤ توفيـــق علي البرو ص ٣١٦ .

٤ ـ كان قادة هذه الجمعية وقت تاسيسها محمد رستم حيدر (لبنان) عوني عبد الهادي (فلسطين) جميل مردم (سوريا) محمد المحمصاني (لبنـان) رفيق التميمي (فلسطين) توفيق السويدي (العراق) ..

تقيدت بحدود أقليمية ‥ فالمعركة في الولايات العربية العثمانية كانت من أجل حقوق العرب عامة ـ وكما جاء في نداء بعض القوميين العرب في « الاهرام » في ٨ـ٨ـ١٩١٢ ـ كان هدف الكفاح أن تعترف السلطنة العثمانية بالعرب أمة حية ذات حقوق قومية في لغتها وادارة أقاليمها ‥

وانعكس كل هذا قبل الحرب العالمية ـ الاولى في المؤتمر العربي الاول الذى عقد في باريس في حزيران عام ١٩١٣ من أجل بحث الحياة الوطنية ، ومناهضة الاحتلال ، وحقوق العرب في المملكة العثمانية ، وضرورة الاصلاح على قاعدة اللامركزية ٠

وأوضح جدول أعمال المؤتمر ثلاث حقائق :

* ان الحركة القومية العربية قد استيقظت على أخطار الامبريالية الاوروبية التي كانت قد تقاسمت عددا من الاقطار العربية : الجزائر وتونس ومصر وطرابلس الغرب « ليبيا » وبدأت تتطلع الى الولايات العربية العثمانية (٥) ٠

* ولذلك فقد كانت ترى طريقها فى البقاء في اطار الامبراطورية العثمانية ، لا في الخروج منها ، اعتقادا من قادتها أن ذلك يردع الامبرياليين الاوروبيين ويردهم عن الولايات العربية العثمانية ٠

* ومن أجل تحقيق مطامحها القومية كانت ترى ضرورة الاصلاح على أساس اللامركزية لان ذلك يجمع بين الامرين : البقاء في الامبراطورية العثمانية ، اطار الدفاع ، ازاء الهجوم الامبريالي ‥ وتحقيق المطامح القومية في التطور والازدهار ٠

وفعلا انتهى المؤتمر الى قرارات أعلنت ضرورة الاصلاح

---

٥ ـ عالجنا السياسة الامبرياليه في فصل سابق ‥

٠٠ وأن من حـــق العرب في أن يتمتعـــوا بحقوقهم السياسيـــة بالاشتراك في الادارة المركزية فعــلا ٠٠

كذلك قـــرر المؤتمر ضرورة انشاء ادارة لا مركزية (حكم محلي) في كل ولايـــة عربية واعتبار اللغة العربيـــة لغة رسمية في مجلس النواب العثماني وفي الولايات العربيـــة ٠

التحذيـر من الكولونيالية الصهيونيـة

واستيقظت الحركة القومية العربية في الولايـات العربيـــة العثمانية في وقت مبكـــر عـــلى أخطـــار الصهيونية على الرغـم من أن الحركة الصهيونية انذاك اقتصرت نشاطها ، كما أوضحنـــا ، على الاتصال بالدول الاوروبية الامبريالية لتدعـــم مطامعها وحاولت اقناع السلطان العثماني بقبول برنامجها ٠٠

وظهرت هذه اليقظـــة البدائيـــة باثارة النائبين شكـــري العسلي (نائب دمشق) وروحي الخالـــدي (نائـــب القـــدس) قضية النشاط الصهيوني في فلسطين في مجلس النواب العثماني (أو مجلس المبعوثان كما كان يسمى في ذلك الوقت) ٠

وفي احـــدى خطبـــه في المجلس قال شكري العسلـــي : « وهم يودون شراء الارض المشرفـــة على سكـــة حديد الحجـــاز ويرمون الى التوســـع في سوريا حتى العراق » ٠٠

واستشهـــد روحي الخالدي بتصريحات أحد زعماء الصهيونية مناحم أوسيتشكين (من أوائل الصهيونيين) ليقـــول ان أمانـــي الصهيونية : نيـــل الميزة والافضلية في فلسطين وانفاق الامـــوال لتأليف أمة يهودية في فلسطين واستيطان أرض الميعـــاد ٠ وحذر الخالدي من الهجرة اليهودية قائـــلا : ان عدد اليهود في متصرفية

القدس بلغ مئة ألف وأن أغنياء اليهود ابتاعوا نحو مئة ألف دونم (!!) وهم قد أسسوا بنكا باسم « بنك الاستعمار اليهودي » (٦) لاستيطان البلاد ..

وأضاف الخالدي في معرض تأكيده على هذا الخطر أن نسبة العثمانيين من اليهود المهاجرين ١٠ بالمئة والباقي من أوروبا التي كانت القوى الوطنية تراها معقل الامبريالية والتوسع والعدوان .

وجدير بأن نلاحظ أن النائب اليهودي آنذاك (ويسجل توفيق برو في كتابه العرب والترك في عهد الدستور العثماني ان اسمه نسيم مزلياح) ، استهجن الامر وطالب بالتحقيق دفعا للشكوك وأكد تمسك اليهود العثمانيين بعثمانيتهم ..

ولعل تحذير نواب الولايات العربية ، السلطنة العثمانية من أخطار التسرب الكولونيالي الذى كانت تدعو اليه المنظمة الصهيونية ساعد على تجميد محاولات مؤسس الصهيونية السياسة تيودور هرتسل لكسب تأييد السلطان للمشروع الصهيوني .

وفي هذا الوقت المبكر كان من الممكن أن نرى الموقفين من الصهيونية .. فقادتها كانوا يجدون آذانا صاغية في محافل السلطنة العثمانية في حين كان القوميون العرب يعارضون المخطط الصهيوني بأسره .

وقد استمر هذان الموقفان الى اليوم .. فالصهيونية تحظى بتأييد الامبريالية والرجعية .. وتقاومها قوى الاشتراكية والتحرر .

ولذلك لم يجد قادة الصهيونية لغة مشتركة مع

---

٦ ــ المصدر ذاته ص ٢٨٢ ــ ٢٨٣ .

الجماهير العربية أبدا ..

وتروي الوثائق الصهيونية أن قوميين عرب اتصلوا بقائدي الصهيونية (قبل الثورة التركية ١٩٠٨) ف. يعقوبسون و ن. سوكولوف بغية الاطلاع على استعداد الصهيونيين لمساعدة الحركة القومية في ثورتها على الطغيان العثماني .. ويضيف أن الزعيمين الصهيونيين قطعا علاقاتهما « بأدب وحسم » مع أولئك القوميين العرب حين عرفا بنواياهم .. فالصهيونيون كانوا يتمسكون بمبدأ الامانة ازاء الحكم العثماني (٧) .

مباحثات وايزمن - فيصل

اوالمعاهدة العربية اليهودية

ليس واضحا تماما متى عرف العرب بوعد بلفور وأدركوا أبعاده الحقيقية .. فالحركة القومية العربية أثناء الحرب العالمية الاولى أصيبت بضربتين قاسيتين وكانت تحتاج بعض الوقت لتستجمع قواها .

وكانت الضربة الاولى اجراءات القمع الدموية التي اتخذها حاكم سوريا السفاح جمال باشا وذهب ضحيتها مئات من كبار القوميين العرب .. بعضهم علق على المشانق والبعض الاخر اعتقل أو شرد في الاناضول .

وكانت الضربة الثانية - وان لم تظهر حقيقتها مباشرة - نجاح العائلة الهاشمية في السيطرة على قيادة الحركة القومية العربية النامية ..

---

٧ - نقل هذه الوثائق الدكتور م . سنيه حين كان يتقرب الى الحزب الشيوعي في كتابه حول المسأله القومية ، استنتاجات علىضوء الماركسيه - اللينينيه ص ٩٢ .

واتضحت مصيبة الحركة القومية العربية في هذه القيادة حين نشر البلاشفة ، بعد ثورة اكتوبر الاشتراكية الكبرى معاهدة التقسيم الامبريالي المعروفة بمعاهدة سايكس بيكو ليستنفروا الشعب العربي الى مكافحة الامبريالية البريطانية ـ الفرنسية دفاعا عن مصالحه ٠

فآنذاك « اقتنع » الهاشميون ـ الشريف حسين والامير فيصل ـ وأشقاؤه ـ بصدق نوايا الامبرياليين البريطانيين الذين كانوا قد وعدوا الشريف بمساعدته على اقامة دولة عربية واحدة تشمل شبه الجزيرة العربية والهلال الخصيب (العراق وسوريا الطبيعية) ٠ وقبلوا فيما بعد بيان الحلفاء الذي صدر في ٨ تشرين الثاني ١٩١٨ لتبديد الشكوك المتعاظمة في نوايا بريطانيا وفرنسا الامبريالية في المنطقة ٠٠ وجاء فيه :

« ان السبب الذى من أجله حاربت فرنسا وانكلترا في الشرق هو رغبتهما في تحرير شعوبه من ظلم الترك واستعبادهم وخلاصهم من عسف الالمان ومطامعهم وميلهما الى تأليف حكوما ت وادارات وطنية حرة تنتخب حسب رغائب الامة وتستمد سلطتها منها ٠٠ ولتأييد هذه المقاصد وابرازها على أن تساعدا الاهلين في تأليف هذه الحكومات في سوريا والعراق وفي جميع البلاد التي حررها الحلفاء » ٠٠٠

لم يظهر في هذا البيان ذكر عن وعد بلفور مع انه كان من برنامج الحلفاء في الشرق وذلك امعانا في التضليل وخوفا من الجماهير العربية ، ولكن الامير فيصل كان يعرف به وبمخطط الصهيونية وسكت عنهما ٠٠

ففي أول حزيران ١٩١٨ أي قبل هذا البيان بحوالي نصف سنة زار الدكتور حايم وايزمن زعيم الصهيونية انذاك الامير فيصل في العقبه « وبسط له أغراض الصهيونية ورغبتها في التعاون مع العرب » (٨) ٠

وأكد وايزمن في كتابه الذكريات « التجربة والخطأ » انه أوضح للامير رغبته في تبديد مخاوف العرب وطلب منه تأييده ٠٠ ثم أضاف أنه وجد الامير مطلعا على الحركة الصهيونية وقد اتفق اتفاقا تاما مع وايزمن حول الفوائد التي يجنيها العرب من تنفيذ البرنامج الصهيوني (ص ٢٣٤) ٠

كذلك وقع الامير فيصل والدكتور وايزمن في هذه الفترة على معاهدة تنسق بين الدولة العربية الموعودة وفلسطين اليهودية !!

وحسب المصادر العربية ان الاثنين لاحظا القرابة العنصرية القديمة الكائنة بين العرب واليهود واتفقا فيما اتفقا عليه من أمور أن يسود علاقات الدولة العربية وفلسطين التفاهم القائم على أساس الاخلاص وحسن الادارة ٠٠ وأن تحدد الحدود بين الدولتين بعد مؤتمر الصلح وأن « تؤخذ جميع التدابير وتعطى أفضل الضمانات لتطبيق تصريح الحكومة البريطانية الصادر في ٢ نوفمبر » ، وأن تتخذ التدابير لتشجيع الهجرة اليهودية والاستيطان على أن تصان حقوق الفلاحين ويتقدموا اقتصاديا (٩) ٠٠

---

٨ ـ ذكر هذه المباحثات امين سعيد في كتابه الثورة العربية الكبرى الجزء الثالث ص ٤٠ ، كما ذكرها عيسى السفري في كتابه « فلسطين بين الانتداب والصهيونية » ص ١٤ ٠

٩ ـ حسب عيسى السفري تم وضع المعاهدة في ٤ـ٦ـ١٩١٨ كتابه اعلاه ص ١٥ ـ١٦ ٠

ولا ينفي المؤرخـــون العرب ، الموضوعيون منهم على الاقل ، حقيقة هذه المعاهدة . الا انهم في معرض الدفـــاع عن فيصـــل يلاحظون انه ذيـــل المعاهدة بشرط جاء فيه : « اذا توطـــدت دعائم الحكومة العربية » .. « أما اذا أجريت تعديـــلات فلا أكون مسؤولا عن عدم قيامي بما جاء فيها » ..

كذلك يستشهـــدون بتصريحه الى « جويش كونيكـــل » (البريطانية) في ١٤ـ١٠ـ١٩١٩ وجاء فيه : « يجب أن تظـــل فلسطين جزءا من سوريا فليس بينهما حد طبيعي ولا فاصـــل وما يؤثر في الواحـــدة يؤثر في الاخرى . فالعـــرب يرون فلسطين ولاية عربية ولا يرونها بلادا قائمة بذاتها . ونحن نسعى لننشـــيء امبراطورية (دولة) عربيـــة تتألف من العراق وسوريا وفلسطين. وقد قيـــل لي أن جميع اليهود يعتمـــدون على التصريح الذي قال به اللورد بلفورد ويتطلعون الى انشاء وطن قومي لهم في فلسطـــين أي أن تصبح فلسطين دولة يهودية . ولا ريـــب أن هذه الامانـــي تناقض أفكـــار العرب ولا ترضيهم . فأناشـــد اليهود وهـــم ساميون قبل العرب طالبا معونتهم لنا في انشاء المملكـــة العربية ، حتى اذا كثر عدد اليهود في فلسطين تيسر أن تجعل ولاية يهودية من ولايات هذه المملكة » . وهكـــذا أكـــد في التصريح مقاومـــة العرب وعد بلفور ورفضهم الجازم فصل فلسطين عن سوريا .

وليس من الصعب رؤية المؤثرات التي حركت فيصـــل .. فقد إنتمى الى عائلة اقطاعيـــة وتماثل ، منذ أن تسرب الى قيادة الحركـــة القوميـــة العربيـــة ، مع أسياد الارض (كما اتضـــح هذا خلال الفترة القصيرة من حكمه في سوريا) وتهادن مـــع الامبرياليـــة البريطانية وتســـاوق معها في مناوراتها المتعاقبـــة

بعــد الحرب العالميــة الاولى ..

ومن المؤكد أن فكــرة « التعاون » العربي ـ الصهيوني ولدت في الدوائر البريطانية كما يظهر ذلك من اراء سايكس (الــذي صاغ اتفاق سايكس بيكو أولا .. وكان صلــة الوصــل بين الوزارة البريطانية وقادة الصهيونية ثانيا) .. و ت.أ لــورانس وكيل المخابــرات البريطانية الذى التحق بالامير فيصل ورافقــه مثــل الظــل ، وكان يوحي له بكــل شيء يتوافــق مــع المخططات البريطانية (١٠) ..

وفي هذا الصــدد يتفــق وايزمن في كتابه « التجربة والخطأ» وناحوم سوكولوف في كتابــه « تاريخ الصهيونيــة » ، على أن مارك سايكس كان يتخيــل « تحريــر » الشعوب الثلاثــة المضطهدة : العرب واليهود والارمن ويرتأي تعاونها الوثيــق من أجل مصلحتها وفي سبيل تطوير المنطقــة (١١) ..

وحسب ما أورده سوكولوف كان سايكس يعتقــد أن العرب الذين يقاومــون الصهيونية كانوا يتطلعون من وجهة نظر ضيقة قصيرة الافــق (!!) ولا يثمنون تثمينا صحيحا فكــرة « الحلف العبري ـ العربي » العظيــم كما أن بعض العناصر كانت تسفــه أهمية المصالح البريطانية في المنطقة وتقلل من قيمتها (١٢) ..

وهكذا يظهر أن التقارب بين فيصل ووايزمن والمعاهــدة بينهما انسجما مع المصالح الامبريالية البريطانية التي تصــورت استخدام الحركة القوميــة العربيــة والصهيونية وحركة الارمن

---

١٠ ـ سجــل ت.أ. لورانس نشاطــه في هذه الفترة في كتابه المشهــور « اعمدة الحكمــة السبعه » ..

١١ ـ ص ١٨١ في المجلد الاول والمجلد الثاني ص ٢٥ من المقدمة .

١٢ ـ المصدر نفسه (تاريخ الصهيونية) .

التحررية لتوطيد مواقعها في هذه المنطقة الواسعة من تركة الامبراطورية العثمانية ..

ولعل رسالة فيصل الى الزعيم الصهيوني الاميركي فيلكس فرانكفورتر في ١٣ اذار ١٩١٩ أبرز دليل على هذا التساوق بين الامبريالية البريطانية وفيصل .. ففي هذه الرسالة (١٣) ـ التي نفى علمه بها في ١٩٢٩ (١٤) ـ يردد فيصل فكرة سايكس أن العرب واليهود تحملوا الاضطهادات المتشابهة من الدول القوية وأن على الشعبين العربي واليهودي التعاون من أجل بعث الشرق الاوسط واصلاحه ..

وعلى هذا الضوء تؤكد هذه الاتصالات والاتفاقات بين فيصل وقادة الصهيونية ، أن الصهيونية ـ خلافا لما ادعته فيما بعد في الغرب في محافل عالمية ـ كانت تجد التأييد بين الاقطاعيين العرب والعناصر المتعاونة مع الامبريالية البريطانية .. أما جماهير الشعب العربي فقد قاومتها منذ أن عرفت بحقيقتها وأدركت أبعاد وعد بلفور ..

الحركة القومية العربية ترفض الصهيونية ووعد بلفور

لقد أعادت الحركة القومية العربية تنظيمها بعد سنوات القمع التركية بعد الحرب العالمية الاولى مباشرة في ظل الادارة العربية التي قامت في سوريا بعد احتلال القوات البريطانية والعربية لها ..

ولاحظ عدد من الكتاب العرب بحق أن هذه الحركة ـ التي لم تكن قد تخلصت من الاقليمية ـ تأثرت بالحقائق

---

١٣ ـ نشرها كاملة وايزمن في التجربه والخطا ص ٢٤٥ ـ ٢٤٦ .
١٤ ـ فلسطين العربية بين الانتداب والصهيونيه عيسى السفري ص ١٤ .

التي بدأت الدول الامبريالية تخلقها فانقسمت الى شطرين شطر سوري وشطر عراقي ..

وفي هذا الصدد يكتب أمين سعيد :

« فلما تم فتح سورية وظهرت نيات الحلفاء وأغراضهم اجتمع مؤسسو هذا الحزب (حزب العهد) وأعضاؤه القدماء من الضباط العرب الذين اشتركوا في الثورة (المقصود نشاط القوات المسلحة التى نظمها الامير فيصل أثناء الحرب العالمية الاولى) عراقيين وسوريين وقرروا أن ينقسم العهد الى حزبين سوري وعراقي فيعمل كل منهما لخدمة قضية بلده مستقلا عن الاخر (١٥)

وفعلا تنادت القوى الوطنية في سوريا الطبيعية وعقدت المؤتمر السورى الاول في دمشق في ٨ حزيران ١٩١٩ وأبرزت في قرارها الموقف الواضح الذى اتخذته الحركة القومية العربية من الصهيونية .. وجاء في القرار :

« نحن أعضاء هذا المؤتمر رأينا بصفتنا الممثلين للامة السورية في جميع أنحاء القطر السوري تمثيلا صحيحا .. واستنادا على حقنا الطبيعي والشرعي في الحياة الحرة .. وعلى الوعود والعهود والمبادىء السامية ، وعلى ما شاهدناه ونشاهده كل يوم من عزم الامة الثابت على المطالبة بحقها والوصول الى ذلك بكل الوسائل .. نعلن باجماع الرأي وحدة بلادنا السورية بحدودها الطبيعية ومنها فلسطين ورفض مزاعم الصهيونيين في جعل فلسطين وطنا قوميا لليهود أو محل هجرة لهم » (١٦) .

وفي تلك الفترة وصلت لجنة كرين الامريكية الى الشرق

---

١٥ ـ الثورة العربية الكبرى المجلد الثاني ص ٣٥ .
١٦ ـ عيسى السفري فلسطين العربية بين الانتداب والصهيونيه ص ٣٣ .

العربي للتحقيق في رغبات الاهالي فاجتمع المؤتمر السوري في ٢ تموز ١٩١٩ وقرر تقديم مذكرة ضافية الى اللجنة يعرب فيها عن مواقف الشعب العربي من مختلف القضايا ويجسم مطامحه القومية ..

وفعلا قدم ٢١ عضوا اختارهم المؤتمر هذه المذكرة التي جاء في مطلعها نحن أعضاء المؤتمر السوري « الحائزين على اعتمادات مقاطعاتنا وتفويضاتهم من مسلمين ومسيحيين وموسويين (هكذا يظهر اسم اليهود في وثائق تلك الفترة ـ أ.ت) .. « نطلب الاستقلال السياسي التام الناجز للبلاد السورية التي تحدها شمالا جبال طوروس وجنوبا رفح فالخط المار من جنوب الجوف الى جنوب العقبة الشامية والعقبة الحجازية وشرقا نهر الفرات والخابور والخط الممتد شرقي أبي كمال الى شرقي الجوف وغربا البحر المتوسط بدون حماية ولا وصاية » ...

كذلك رفضوا في مذكرتهم بالتحديد مطامع الصهيونية في اقامة دولة يهودية في جزء من جنوب سوريا المعروفة بفلسطين وعارضوا في الهجرة اليهودية الى أي جزء من البلاد .

ثم رفضوا الاعتراف بحق الصهيونيين في البلاد وأعلنوا أنهم يعتبرون مزاعم الصهيونية خطرا جسيما يهدد حياة الشعب القومية والسياسية والاقتصادية . وأنهوا هذه الفقرة بالقول ان المواطنين الموسويين سيتمتعون بكافة الحقوق ويقومون بكافة الواجبات مثلهم في ذلك مثل سائر المواطنين (١٧) .

واعترفت لجنة كرين التي نشرت تقريرها في ١٩٢٤ فقط

---

١٧ ـ اثبت جورج انطونيوس في كتابه نهضة العرب بالانكليزيه النص الكامل لهذه المذكرة ص ٤٤٠ ـ ٤٤٢ .

ـ بسبب ضغوط الدول الامبريالية بريطانيا وفرنسا على الولايات المتحدة ـ بأن المؤتمر السورى أعرب عمليا عن أماني الشعب العربي في المنطقة ٠٠ وأوصت « بصيانة وحدة سوريا تلبية لرغبة الاكثرية العظمى من الشعب السوري » ، واعتبرت أن من الانصاف للعرب الاعتراف بالامة العربية ورغباتها الوطنية كما أن من مصلحة العالم أن تتألف حكومة عربية على القواعد السياسية الحديثة ٠٠ وحذرت من تنفيذ البرنامج الصهيوني الذى يعني احتلال فلسطين واقترحت تقليص هذا البرنامج بحيث تتخلى الصهيونية عن فكرة الدولة اليهودية وعندئذ لا يكون هناك سبب يمنع بقاء فلسطين في الدولة السورية الموحدة (١٨) ٠

والشعور بخطر الصهيونية كان من عوامل انقسام الحركة القومية العربية ، كما كانت الوقائع التي تفرضها الامبريالية واطماع بريطانيا وفرنسا بالتحديد سببا في انقسام العهد الى شطرين سوري وعراقي ٠٠

وصور ساطع الحصري في كتابه « يوم ميسلون » هذه الحقيقة عند وصفه الاتجاهات الاقليمية في الحركة القومية العربية الواحدة فكتب :

« فهذا فلسطيني يعتبر الصهيونية أول ما يجب ان يهتم به من المشاكل ، وذاك سوري يرى في أطماع فرنسا اكبر الاخطار التي تهدد القضية العربية وذلك عراقي يقول بوجوب الثورة ضد الانكليز قبل كل شيء (ص ٩٢) » ٠

وتبلور هذا التطور حين عقد المندوبون الفلسطينيون

---

١٨ ـ المصدر نفسه بين صفحات ٤٤٣ و ٤٥٨ ٠٠ والقسم عن الموقف من الصهيونية ص ٤٥٠

في المؤتمر السوري العام مؤتمرا لهم في دمشق في ٢٧ شباط ١٩٢٠ وقرروا : « ان أهالي سوريا الشمالية والساحلية (لبنان أ٠ت٠) ما خطر لهم في وقت من الاوقات ان يعتبروا سوريا الجنوبية ، أي فلسطين ، قطعيا ، غير سوريا وكما أثبتوا ذلك في مقررات مؤتمرهم السوري فهم الان يثبتون هذا القرار مرة ثانية » ٠

كذلك رفضوا الوطن القومي اليهودى واعتبروا الصهيونية خطرا على البلاد ، ورفضوا قيام أي حكومة في فلسطين قبل أن تعترف تلك الحكومة بعدم فصل البلاد عن سوريا ٠

وظهرت بداية عملية تطور الحركة القومية الفلسطينية الاقليمية فى هذا الوقت حين أعلن المؤتمرون ، دفعا للالتباس ولان الاوساط الاوروبية تستخدم كلمة فلسطين منفصلة عن سوريا ، تأليف « لجنة الدفاع الوطني العربي عن سوريا وفلسطين » تهدف الى اخراج المحتلين من الساحل (لبنان ـ أ٠ت) وكانوا فرنسيين ، ومن فلسطين وكانوا بريطانيين ٠

وفى تموز ١٩٢٠ حسم احتلال فرنسا سوريا الشمالية وتصفية ادارة فيصل العربية ، وتوطيد التقسيم الامبريالي بين بريطانيا ـ التي احتلت العراق وفلسطين ، وفرنسا التي احتلت لبنان وسوريا ـ حسم كل هذا في وجهة الحركة القومية العربية ودفعها الى وجهة اقليمية ٠٠

وهكذا كانت بداية الحركة القومية العربية الفلسطينية ٠٠

وفي ١٤ كانون الاول ١٩٢٠ عقد القوميون من فلسطين مؤتمرا وطنيا في حيفا اعتبروه المؤتمر الثالث (المؤتمر السوري



من المناظر المألوفة آنذاك « تفتيش » عن السلاح وارهاب



البوليس البريطاني يتصدى لاحدى المظاهرات في القدس



العام كان الاول ·· ومؤتمر المندوبين الفلسطينيين كان الثاني) ، وقرروا رفض وعد بلفور ووقف الهجرة اليهودية وانشاء حكومة وطنية في فلسطين تتحد مع سوريا ولبنان (١٩) ·

وبدأ الصراع التحرري واضحا في فلسطين ··

---

١٩ ـ الثورة الكبرى امين سعيد الجزء ٣ ص ٥٢ ـ ٥٣

الفصل السابع

المجابهة الاولى

في ٢٨ حزيران عام ١٩١٩ وقعت الدول الاوروبية المستقلة ، باستثناء الاتحاد السوفييتي ميثاق عصبة الامم الذى نص بنده الثاني والعشرون على نظام الانتداب الذي حدد بدوره حالة فلسطين ..

وكان الانتداب غطاء الامبريالية في أعقاب الحرب العالمية الاولى ، التي شهدت قبل نهايتها ثورة أكتوبر الاشتراكية الكبرى في روسيا القيصرية ، وانتهت تبعا لذلك وبتأثير هذه الثورة بنقاط الرئيس الامريكي ويلسون التي عرفت بالنقاط الاربع عشر وأوحت بحق الشعوب في تقرير مصيرها ..

واعترف الانتداب ـ وكان على درجات ـ مبدئيا بحق الشعوب بحكم نفسها بنفسها ، ولكنه اعتبر تلك الشعوب قاصرة على ذلك ، انذاك وأوكل أمرها لدولة كبرى « تأخذ بيدها في مدارج الرقي » ! حتى تقف على أقدامها وتستقل بأمورها .. وعندئذ ينتهي نظام الانتداب .

وأوكل مجلس مؤتمر السلام الاعلى أمر الانتداب على فلسطين ببريطانيا أثناء اجتماعه في سان ريمو في ٢٥ نيسان عام ١٩٢٠ . كما وزع الانتدابات الاخرى على الدولتين

الامبرياليتين بريطانيا وفرنسا ٠

وخـــلال هذه الفترة أشتـــد الصـــراع بين بريطانيـــا وفرنسا حـــول حدود فلسطين ٠٠ وكما يقول فـــورس آدم أحد الاخصائيين البريطانيين فى مؤتمر السلام استخدمت بريطانيـا الحـــدود التي كان يزعـــم الصهيونيون انها حـــدود فلسطيـــن في مجابهتهـــا فرنسا (فكرة الدولة الصهيونية بن هلبـــرن ص ٢٩٦) ٠٠ وبذلك وصلت الى ذروة الاستفادة من وعـــد بلفور للفـــوز بحصـــة الاسد فى سوريا ٠٠ وفعلا استطاعت بريطانيا أن تقتطع لنفسها فلسطين وشرق الاردن ٠٠

وأقـــر مجلس عصبـــة الامم نظام الانتـــداب عـــلى فلسطين في ٢٤ تموز عام ١٩٢٢ ، وكان ذلـــك الاجـــراء اعتراف بواقع الاحتلال البريطاني الذى بدأ في نهاية الحرب العالمية الاولى٠٠

أمـا المعركـــة في فلسطين فلـــم تنتظر اقرار الانتـــداب رسميا ، بـــل بدأت قبلـــه بكثير ٠٠

المعركة مع الامبريالية واصطدامات بين العرب واليهـود

ويقـــع بعض المؤرخين وبينهم مؤرخون عرب فى « خطـأ » تاريخي ، مغرض في أكثر الاحيان ، حين يبـــدأون بتدويـــن كفاح الشعـــب العربي في فلسطـــين بالاصطدامـــات بين العرب واليهود في نيسان عـــام ١٩٢٠ ٠

فالحقيقـــة أن بدايـــة المعركـــة كانت في رفض الحركـــة القوميـــة العربيـــة الموحـــدة في سوريا الطبيعية الاحتلال ووعد بلفور ومطامـــع الصهيونية ٠٠

وتطـــورت المعركـــة مع الامبريالية البريطانية حتى مـــن

قبل أن ينفصل « القطاع الفلسطيني » عن الحركة القومية العربية في سوريا الطبيعية ويتلاءم مع ظروف التجزئة الامبريالية في العالم العربي المشرقي ..

ولعل بداية موجة عام ١٩٢٠ كانت في تلك المظاهرة الضخمة التي اشترك فيها ٤٠ ألف مواطن وطافت في القدس في ٢٧ شباط ١٩٢٠ ..

لقد أعقبت هذه المظاهرة ، وكانت الاولى من نوعها في القدس ، اجتماع رؤساء الطوائف وأعيان البلاد بدعوة من حاكم البلاد البريطاني الجنرال بولز ..

ففي هذ الاجتماع صرح الجنرال بأن مجلس الحلفاء قرر أن يدمج وعد بلفور بانشاء وطن قومي لليهود في فلسطين في معاهدة الصلح مع تركيا .. وأن بريطانيا قبلت الانتداب على البلاد ، وانها ستحافظ على الحريات الدينية وتسمح للمهاجرين بدخول البلاد قدر حاجتها الى النمو ..

وأضاف : « وتسيطر حكومة بريطانيا على المهاجرة ولا يخرج أصحاب الاملاك الحاليون عن أملاكهم ولا تنزع منهم ولا تمنح امتيازات اقتصادية لافراد أو جماعات اذا كان منحها ضررا لغيرهم .. فالحكم سيكون للحكومة البريطانية ولا يسمح بحال من الاحوال لاقلية أن تسيطر على الاكثرية من السكان ».

وقبل المظاهرة تألفت جمعيات اسلامية ـ مسيحية في مدن فلسطين واتفقت على مذكرة أعلنت فيها : « اننا لا نتخلى عن مطالبنا المنحصرة في استقلال سوريا المتحدة من طوروس الى رفح ونرفض الهجرة الصهيونية رفضا باتا ونرفض فصل فلسطين عن سوريا .. لان فصل فلسطين

عن سوريا يضـر بمصالـح البلاد الاقتصادية والعمرانيـة ·· وبمصالـح الوطنيين القوميـة والمحلية » ··

وأضافت : ان الاراضي تكفي لاهلها الذين هم في ازدياد مستمر وستسبب الهجـرة الشغـب والثـورة الدائمين ··

وهكـذا كانت المظاهـرة احتجاجا على التجزئة الامبريالية أولا ، والاحتـلال الـذي جـرد الشعب من استقلالـه ثانيا ، وعـلى وعـد بلفور ثالثا ··

وقد طاف المتظاهـرون على قناصل الـدول الاجنبيـة وسلموهم احتجاجـات بهذه الـروح · (فلسطـين العربيـة بين الانتداب والصهيونية ص ٣٧ ـ ٣٨) ··

وهنا لا بـد من دحض تزييـف الرجعيين من بريطانيـين امبرياليين وصهيونيين حاقديـن ، حقيقـة الحركة القوميـة العربية في فلسطين وتصويرهـا ، تصويـرا عنصريـا ، (!) ، بتضخيـم الاصطدامات بين العرب واليهـود ·

فالحركـة القومية العربيـة في فلسطين لا يمكـن فصلها عن الحركات القوميـة العربية في العالـم العربي التي امتازت بتشديـد الكفاح ضد الامبريالية ·· ومعروف تمامـا أن براكين الثـورات المعاديـة للامبريالية تفجـرت في هذه الفترة بعنف شديـد زعـزع مواقـع الامبريالية ·· وتوالـت الثـورات فوقعت ثـورة ١٩١٩ فى مصر ·· وثـورة العراق الشاملـة في عام ١٩٢٠ والنضـال المسلـح الذى بدأ في سوريا من قبـل أن تحتـل القوات الفرنسية دمشق في تموز ١٩٢٠ ، واستمـر بعـد احتلالها فترة من الزمـن ··

وهكـذا فالموجـة الثوريـة في العالم العربي كانت عامة

ومنها مظاهرة القدس الكبرى .. ولذلك فالاصطدام بين العرب واليهود الذي وقع في القدس كان لاسباب عديدة لا تمت الى العنصرية بصلة .. ولا تشوه جوهر هذه الحركة بشيء ..

وعلى هذا الضوء يمكن أن ننتقل الى اصطدامات العرب واليهود فى القدس يوم الاحد فى ٤ نيسان عام ١٩٢٠ ..

يكتب المؤرخون الصهيونيون .. وقد تلقوا « العلم » على يدي معلم الرجعية الواحد ان المحرضين العرب أعدوا مجزرة اليهود في موسم النبي موسى بوحي من السلطات البريطانية أو بعض المحافل فيها ويستشهدون على ذلك بأن الذين هاجموا اليهود في القدس القديمة كانوا يصرخون « الحكومة معنا » !!

ويؤيدهم في هذا الكتاب البريطانيون الذين يدافعون عن وعد بلفور والسياسة البريطانية التي انتهجها الانتداب البريطاني في فلسطين ..

ولكن المعطيات ترسم صورة أخرى ..

ففي ظروف الموجة القومية الثورية في العالم العربي المشرقي ، وخاصة في سوريا حيث كان الحكم العربي (الفيصلي) لا يزال قائما ، وتصارع القوى القومية الزحف الفرنسي ، تحول موسم النبي موسى الى مظاهرة قومية من الدرجة الاولى .. فالوفود الكبيرة التي توافدت الى المقام من مدينة القدس وقراها والخليل ونابلس وغيرها كانت « تنادي بالوحدة العربية والاستقلال وترفض الهجرة الصهيونية » .. واشتد حماسها الوطني وهي تصغي الى خطابات القوميين امثال عارف العارف وخليل بيدس وموسى كاظم الحسيني رئيس بلدية القدس آنذاك .

وكانت اللجنة الصهيونية التي وصلت الى البلاد حتى قبل اتمام احتلال البريطانيين البلاد تعرب عن مطامعها في السيطرة على البلاد وتتجاهل حقوق الجماهير العربية تجاهلا تاما مما زاد في مخاوف هذه الجماهير من مدلولات وعد بلفور ··

كذلك ظهرت الممارسة الصهيونية المعادية للجماهير العربية فى مظاهر عدة أبرزها الاعدادات العسكرية ·· بذريعة اقامة فرقة دفاع عن النفس ··

ويعترف جوزيف شختمان في كتابه « متمرد وسياسي » « قصة فلاديمير جابوتنسكي بهذا الامر وبالتساوق بين القيادة الصهيونية والامبريالية البريطانية مما يدحض اسطورة هتاف الجماهير العربية : « الحكومة معنا ·· »

كتب ان أمر تدريب الجنود اليهود كان علنيا تعرفه السلطات ، وأضاف :

« وقبل أيام من العيد الاسلامي النبي موسى قامت فرقة الدفاع عن النفس بمناورات عسكرية منظمة على سفح جبل الزيتون وعند أقدامه أمام مركز الحكومة (البريطانية) « واستعرض » الضباط البريطانيون حركتنا بمناظرهم ·· ولم يكن الموقف الرسمي تجاه منظمة الدفاع الذاتي غير سلبي فحسب ، بل كان يبدو أبويا الى حد » ·· (ص ٣٢٥) ·

وهكذا فبعض قادة الصهيونية من أمثال الزعيم المتطرف جابوتنسكي كانوا يعدون قوة عسكرية ويقومون بمناورات عسكرية منظمة عشية موسم النبي موسى مما ينفي صورة الحمل الوديع « اليهود » والذئب الكاسر « العرب » ·

ولا جدال في ان اساطين الامبرياليـــة البريطانيـة العريقيـن بسياسة « فــرق تسد » بذلــوا كل جهد لتأجيج الاحتـــراب العنصري بين العرب واليهود لحرف النضـــال عن مساربه الصحيحة ليصبحوا قضاة بين متحاربين بــدلا من أن يكونوا هدف المحاربين من أجـــل الاستقـــلال بوصفهم أعداء الشعوب الالـــداء وعقبـة التحـــرر القومي الكأداء ..

وحتى في هذا الوقت المبكـــر وجدت الامبريالية البريطانية عناصر الرجعيـــة العربيـــة تسير في ركابها بعد أن حظيـــت بتأييـــد الصهيونية التام .

وساعـــد على ذلك بناء الحركـــة القوميـــة العربيـــة في فلسطين ، في هذا الوقت ، عـــلى أسس طائفيـــة كانت تعـرب عن الاوضاع الاقتصاديـــة المتخلفة التي تميزت بعلاقات اقتصادية شبـــه اقطاعيـــة وبغياب البرجوازية الصناعية والطبقة العاملة ..

كما أن المجتمع العثماني كان يقوم على التنظيم الطائفـــي (الملي) ولم يكن قد تغير بعد في عهد الاحتلال البريطاني الاول .

وفي هـــذا الجو المتوتـــر كان من السهل أن يشتعـــل الاحتراب العنصري وأن يؤدي ـ كما كتب عيسى السفري ـ مـــرور بعض اليهود بين الشعب العربي الصاخـــب الى اهتيـــاج الافكار « واحتـــدام نار الفتنـــة بين الطرفين فقتـــل منهما عدد ليس بالقليل وظلت الحالة مضطربـــة حتى المساء » ..

لقد كان حصيلـــة هذا الاصطـــدام بين العرب من ناحيـــة ، والقـــوات البريطانية واليهود من ناحية ، مقتـــل ٥ من اليهـــود و ٤ من العرب وجـــرح عشرات من الطرفين .. ولكن الاخطـــر من وقوع الضحايا ، اتساع الهوة بين العـــرب والصهيونيين ..

ونحدد الهوة بين العرب والصهيونيين لان نسبة واسعة من اليهود في البلاد كانت ترفض المشروع الصهيوني في ذلك الوقت المبكر ..

وعلى أثر هذا الاحتراب ، وضعت لجنة تحقيق عسكرية ، كانت الاولى من سلسلة لجان تحقيق مختلفة ، تقريرا عن ملابسات الاصطدام أكدت فيه ما يلي :

* « خيبة أمل العرب بسبب عدم تنفيذ الوعود بالاستقلال التي يدعون انها أعطيت لهم أيام الحرب .

* اعتقاد العرب بأن وعد بلفور ينفي حقهم في تقرير المصير وتخوفهم من أن يؤدي قيام الوطن القومي الى زيادة الهجرة اليهودية ، مما سيقود الى اخضاعهم لسيطرة اليهود الاقتصادية والسياسية .

* تعميق هذه المشاعر بالدعاية من خارج البلاد المرتبطة باعلان الملك فيصل ملكا على سوريا الموحدة ونمو أفكار الجامعة العربية والجامعة الاسلامية من ناحية ونشاط اللجنة الصهيونية تدعمها مقدرات اليهود ونفوذهم في شتى أنحاء العالم من الناحية الثانية » .

(استعراض أوضاع فلسطين (تقرير أعدته الحكومة البريطانية) للجنة التحقيق الانجلو ـ أمريكية بين ١٩٤٥ـ١٩٤٦ ص ١٧) ..

لم تكن لجنة التحقيق نزيهة في كل ما ذهبت اليه .. فالامبراطورية البريطانية كانت تقصد بلجانها الموجهة تخدير الجماهير أولا وكسب الوقت ثانيا والدس المغرض ثالثا .. ومع هذا فقد أضطرت الى الأعتراف بحقيقة كبرى : هي أن الجماهير العربية كانت تتوق الى الاستقلال وترغب في حق

تقريـــر المصير في سوريا الطبيعيـــة وتتخوف ، أشد الخوف ، من الوطن القومي اليهودي ·

مؤتمر القاهرة والاصطدام الثاني

ويعتبـــر الكتاب مطلع أول تموز ١٩٢٠ نهايـــة الادارة العسكرية في فلسطين وبدايـــة الحكم المدني الذى دشنـــه تسلم المندوب السامي الاول السير هربرت صموئيل مهام منصبه في البلاد·

وكان هربرت صموئيل على الرغـــم من انتسابه الى الطائـــفة اليهودية وعطفـــه على الصهيونية ، بريطانيا ، مـــن المحافـــل الامبريالية ، يضع مصلحة الامبراطورية فى المكانة الاولى ··

ولهـــذا كانت سياسته تجمـــع بين الولاء لوعـــد بلفور وسياســـة اقامة الوطن القومي من ناحيـــة ، ومهاوده قيـــادة الحركة القومية الاقطاعية لكسب تأييدها من ناحية ثانيـــة ··

بعـــد شهر من تسلمه ادارة البلاد ، في ٢١ آب عام ١٩٢٠ أصـــدر تشريعا يسمـــح بدخـــول ١٦٫٥٠٠ مهاجر يهـــودي فى السنـــة الاولى ·

وخـــلال الاشهر الاولى من حكمـــه عفا عن الحاج أمـــين الحسيني ، الذى اتهم بالتورط في الاصطدامـــات الداميـــة في نيسان ١٩٢٠ ، وعينه مفتيا على القـــدس ·

وجســـد موقفه في تصريح كان نموذجا من التصريحـــات الامبريالية المطاطـــة التي توافـــق المرحلة والممارسة الصهيونية التي امتازت بالواقعيـــة والمرونـــة ·· فالاهـــداف البعيدة المدى كانت تتراجـــع وتختفي من على سطح المياه السياسيـــة لعـــدم وجود ظروف لتحقيقهـــا ، وتبرز في الوقت ذاتـــه الاهـــداف

العينية التى يمكـــن تحقيقها ٠

وجاء في تصريح هربرت صموئيل :

« وقفت أثناء وجـــودي فى فلسطين عـــلى الاحتجاجـــات التى قدمها الاهلـــون على الصهيونيين وعندي انها احتجاجـــات لا خطـــر منهـــا لانهـــا مبنيـــة على قضايا فاســـدة وجهـــل بالمسألة الصهيونية » ٠

وجاء أن الذين ينسبون الى الصهيونيين أطمـــاع السيطـرة ينسبون لهم أمورا لم تخطر لهم على بال ٠٠ وان الهجرة ستكـــون تدريجيـــة بقدر طاقـــة البلاد ٠٠ وان المهاجريـــن سيكونـــون الاغنياء (!) وان المنافـــع ستفيض على العـــرب ٠٠ (كتـــاب فلسطين العربية بين الانتداب والصهيونية ص ٥٤) ٠

وفي هـــذا الوقت أثـــر سقوط الحكـــم العربي في دمشق في تموز عام ١٩٢٠ ٠٠ وتراجـــع الثـــورة العراقية في الفتـرة ذاتها ٠٠ أثـــر على الحركـــة القومية العربية في فلسطين وفرض عليها أن تتراجـــع قليلا لتجمـــع قواها من جديـــد ٠

واتخـــذت السلطات البريطانية خطـوات عينية في سبيل التهدئة فقـــررت عقد ما عرف بمؤتمر القاهـــرة الذي عقـــد في الاسبوع الثانى من اذار ١٩٢١ بحضـــور وزير المستعمـــــرات البريطاني ونستون تشرشل وكبار الجنرالات والمندوب السامـــي في فلسطين وشخصيات مواليـــة لبريطانيا أمثال جعفر العسكري وساسون أفندي من العـــراق ٠

وقـــرر مؤتمر القاهرة ما يلـــي :

* تنصيب الامير فيصل ، الذى فقـــد عرشـــه في سوريا ، ملكا على العـــراق وبذلك يصبح من الممكـــن تهدئـــة الثـــورة

العراقية باقامة حكم « قومي » يتزعمه ابن الشريف حسين فيصل ٠

* تنصيب الامير عبد الله شقيق فيصل أميرا على شرق الاردن ، فبذلك يتخلص البريطانيون من وضع مشحون بالاخطار ٠

* محاولة اقامة مجلس تشريعي في فلسطين يحل محل المجلس الاستشارى المعين الذى أقامه المندوب السامي ٠٠

ولكن في حين كان تنصيب الملك فيصل ملكا على العراق عاملا من عوامل التضليل والتهدئة في العراق ٠٠ كانت محاولة اقامة المجلس التشريعي فاشلة زادت في تعميق وعي العناصر العربية الواعية على خطورة سياسة الامبريالية البريطانية والصهيونية ٠٠

وهكذا انفجرت اضطرابات يافا التي عرفت باضطرابات أول أيار عام ١٩٢١ لوقوعها في يوم عيد العمال العالمي ٠

ومثل كل احتدام عنصري أو قومي كانت هناك شرارة وكانت هناك أسباب موضوعية عميقة ٠٠

أما الشرارة فكانت اصطداما وقع بين متظاهرين يهود في أول أيار عام ١٩٢١ ، فالعمال الهستدروتيون الصهيونيون اصطدموا بالعمال الذين ساروا تحت شعار حزب العمال الاشتراكي (موبس) الخارج على الصهيونية ودعوا العمال جميعا الى الاضراب في يوم عيد العمال العالمي ٠

ويبدو أن المواطنين فى يافا اعتقدوا ان المتظاهرين الذين اصطدموا في تل أبيب بالقرب من منشية يافا يريدون لهم الشر فتصدوا لهم ووقعت الواقعة وامتدت مثل النار في الهشيم الى منطقة يافا كلها ٠٠

ومـــرة أخـــرى تدخلت القوات البريطانية لتبطش بالعرب ٠٠ وكالمعتاد وقعت الضحايـــا من الطرفين وكان حصاد المصادمات « الثلاثية الجوانب » مزيـــدا من الضحايـــا ٠٠ فسقط من القتلى ٤٧ يهوديا و ٤٨ عربيا وأصيب بجراح العشرات من الجانبين ٠٠

وفي هذه المرة أيضـــا اتهمت القيادة الصهيونية سلطـــات الامن الانتدابية بالاهمـــال ٠٠ وروجت اسطورة «الافندية العرب» الذين يحرضـــون المعدمين العرب على اليهود بسبب فقدانهـــم امتيازاتهم !! وتظاهـــرت بان القضية لا تعدو قضية « الحمـــل الصهيوني » الذى يريد أن يبني البـــلاد و « الذئـــب الكاســـر العربي » الذى يصر على بقاء البلاد « مستنقعات » !!

وألفت الحكومـــة البريطانية في فلسطين لجنة تحقيـــق جديـــدة ترأسها قاضي القضاة توماس هيكرافت لتبحـــث فـــي أسباب الانفجار الجديـــد ٠٠

واستوحت اللجنة استنتاجاتها من ماهيتها الامبريالية ووجهة نظر رجالها الطبقيـــة ٠٠ ولهذا اعتبرت « مظاهرة البولشفيك » ـ وقصـــدت مظاهرة حزب العمال الاشتراكـــي (موبس) ـ الشـــرارة التي أشعلـــت موجة الاصطدامـــات ٠٠

ومـــع هذا اضطرت اللجنة الى أن تنفي التأكيد الصهيوني القائـــل بأن « الافندية » هـــم الذين يحرضـــون « الجماهيـــر غير المتعلمة » لانهم يأسفون كثيرا لـــزوال الحكم التركـــي ولان الادارة البريطانية الحاليـــة قد قضت على منافعهم الشخصية !!!

وتوصلـــت اللجنة الى أن اتساع الاضطرابات وامتدادهـــا من يافا الى منطقتها يؤكـــد أن الجماهير العربيـــة قلقـــة من سياســـة الوطن القومي اليهودي وتعتبـــر المهاجريـــن خطرا

اقتصاديا عليها ..

ولاحظت اللجنة أن الصهيونيين يقاطعون العرب .. والتاجر اليهودى لا يشتري من العربى . ومضت تؤكد ان الهجرة اليهودية لاقت اعتراضات اقتصادية من العمال وأصحاب الصنائع .. وأضافت : لو كان المهاجرون يوزعون حين وصولهم على المستعمرات اليهودية الزراعية لما أثر مجيئهم على طبقة العمال في يافا وسائر مدن فلسطين .. فقدوم المهاجرين بكثرة ومزاحمتهم السكان الاصليين يثيران قلق العمال .. وذكرت اللجنة - ما أصبح ممارسة يومية - أن الصهيونيين ضغطوا على صاحب أراضي في ريشون لتسيون وأكرهوه على استبدال العمال العرب بيهود ..

وبدون الاعتماد على استنتاجات اللجنة كان من الممكن رؤية ممارسة الصهيونية سياسة احتلال الارض والعمل مما جعل أمر التعاون بين العرب واليهود على الصعيد الشعبي غير ممكن ، فلم يكن ممكنا أن يتم التعاون بين العمال العرب واليهود ما دام خط المنظمة النقابية اليهودية والصهيونية احتلال العمل وطرد العمال العرب الذين يعملون في المزارع أو الاشغال التي يمتلكها اليهود .

ومما زاد الازمة حدة ، تواتر تصريحات الصهيونيين حول أهدافهم النهائية .

حتى « جويش كرونيكل » البريطانية كتبت في ٢٥ أيار ١٩٢١ :
« ان الحل الوحيد لمسألة فلسطين هو اعطاء اليهود كيهود تلك الحقوق والامتيازات في فلسطين التي تمكنهم من جعلها يهودية كما ان انكلترا انجليزية وكندا كندية » ..

أما فلاديمير جابوتنسكي فقد كان يدعو الى اقامـــة الدولة اليهودية ويعتبر الجيش اليهودي الذى كان يحاول بناءه من الفرقة اليهودية التي اشتركـــت في الحـــرب العالميـــة الاولى أمـــرا ضروريا لتحقيـــق ذلك ٠

وكان الدكتور وايزمن حين ظهر في مؤتمر الصلح أو مجلس العشرة في فرسايـــل في عام ١٩١٩ قد قال ردا على سؤال وزيـــر خارجية الولايات المتحدة روبرت لانسنغ عما يقصـــده من تعبيـــر « الوطن القومي اليهودى » :

« اقامة ادارة تنشأ من ظروف البلاد الطبيعيـــة ٠٠ بأمـــل أن تصبح فلسطين نهائيا عن طريـــق الهجـــرة يهودية مثلمـــا بريطانيا بريطانية » ٠

وقرر المؤتمر الصهيوني في كرلسباد في أيلول عام ١٩٢١ توصيـــة لجنة العمـــل باتخـــاذ كافة الاجراءات مع سائـــر الهيئات « لتنظيـــم الشعب اليهودي لبنـــاء فلسطـــين وطنا قوميا لليهود » ٠

ومن الناحيـــة الاخـــرى رافق الاضطراب الناجـــم عـــن معاداة العرب الامبريالية والصهيونية نشاط سياسي اتخذ شكـــل وفد قومي تألف من أسياد أرض وبرجوازيين تجاريين (موسى كاظم الحسيني وتوفيق حماد وأمين التميمي وابراهيم الشماس ومعين الماضي وشبلي الجمل) وزار بريطانيا ليعرض قضيـــة البـــلاد على المسؤولين البريطانيين ٠٠

وطالب هـــذا الوفد بتحقيـــق الوعود البريطانية باستقلال فلسطين والغاء وعـــد بلفور ٠٠ وبذلـــك عكس مطالب الجماهير على الرغم من طابعـــه الطبقي ٠٠

وفي هذا الوقت بالذات كتب الزعيم الصهيوني الدكتور وايزمن رسالة الى وزير المستعمرات البريطاني ونستون تشرشل جسد بحدة قاسية طبيعة الصهيونية •

كتب في تموز عام ١٩٢١ :

« لم أندم أبدا على ثقتي بكلمة بريطانيا العظمى ولكن وضعي المزدوج بوصفي زعيما لحركة عالمية (الصهيونية) وبوصفي مواطنا بريطانيا يخضع آمال الصهيونية لبلاده (بريطانيا) هو وضع فيه حرج •• هناك حلف طبيعي بل تماثل في المصالح تام تقريبا بين الصهيونية وبريطانيا •• »

ثم كتب في هذه الرسالة :

« لو لم تكن هناك فلسطين لكان من الضروري حسب اعتقادي خلقها في مصلحة الامبريالية فهي قلعة مصر •• » واضاف أن بريطانيا تصون مصالحها عن طريق الاستيطان الكولونيالي اليهودي بأرخص ما يمكن •• (كتاب أمة تبعث بقلم ريتشارد كروسمان ـ ص ١٢٥ ـ ١٣١)

وهكذا وجدت بريطانيا نفسها أمام وضع لا ندري اذا كانت قد توقعته بحذافيره منذ البداية •• لقد وجدت نفسها أمام :

* حركة قومية عربية تنمو بازدياد (١) وتتضامن معها الحركات القومية في العالم العربي وتناضل من أجل

١ ـ اتصل الوفد الفلسطيني المذكور اثناء وجوده في اوروبا بوفد الاتحاد السورى في جنيف وعقدا مؤتمرا قررا فيه مطالبة عصبة الامم بالاعتراف بالاستقلال والسلطان القومي لسوريه والبنان وفلسطين والاعتراف بحق فلسطين في الاتحاد مع باقي الدول العربية والغاء الانتداب ووعد بلفور وجلاء الجيوش عن سوريا والبنان وفلسطين •

الاستقلال والغاء وعد بلفور ، والاتحاد مع الاقطار العربيـــة •

* ومنظمـــة صهيونية ترتبـــط بالامبريالية البريطانيـــة باوثق رباط وتخـــدم الاستراتيجية الامبريالية في المنطقة والقارة الاسيوية عامـــة أجـــل خدمـــة •

وتحت ضغط الحركـــة القوميـــة العربية وفي سبيـــل تحقيق الموازنة بينها وبين الصهيونية وتأكيـــد سياسة فـــرق تسد أصـــدرت الحكومة البريطانيا كتابا أبيض في ٢٢ حزيـــران عام ١٩٢٢ أذاعه وزير المستعمرات ونستون تشرشـــل •

والكتـــاب الابيض مثل كلاسي عـــلى هذه الموازنـــة التي برعـــت فيها بريطانيا ••

فقد جاء فيـــه : يعود التوتـــر في فلسطين الى مخـــاوف جالت في خواطـــر اليهود والعرب •• أما مخاوف العرب فتعـــود الى التفاسير المبالـــغ فيها لمعنى وعد بلفور سنة ١٩١٧ ••• اذ ظهرت تصاريـــح غير رسمية بأن الغاية من ذلك جعـــل فلسطين يهودية بجملتها غيـــر أن حكومـــة جلالة الملك تنظـــر الى هذه الامال على انها غير قابلـــة التطبيـــق وانها لا تفكر في وقت من الاوقات باخضـــاع أو محـــو السكان العـــرب أو قتـــل لغتهم وآدابهـــم في فلسطـــين •

أما فيما يتعلـــق بالسكان اليهود فالظاهـــر أن بعضهـــم خامره الشـــك في أن حكومة جلالة الملك قد تتخلى عن سياستهـــا التى تضمنها تصريح بلفور •• ومـــن الضروري التأكيـــد أن لا أساس لهـــذه المخاوف •

ومضى الكتاب الابيض ففسر معنى الوطـــن القومي اليهودي

.. ونفى أنه يفرض الجنسية اليهودية على العرب أو يحرم سكان البلاد عملهم . فالقصد أن « يصبح لليهود في فلسطين مركزا يكون موضع اهتمامهم وفخرهم من الوجهتين الدينية والقومية » .

وأعلنت الحكومة البريطانية في هذا الكتاب الابيض ، الاول من سلسلة ، نيتها اقامة حكومة ذاتية واسعة وذلك بتأسيس مجلس تشريعي يتألف من المندوب السامي رئيسا وعشرة أعضاء منتخبين وعشرة أعضاء رسميين (معينين) .

وفي هذا الوقت بالذات تأكد عامل قام بدور كبير فيما بعد - تأييد الولايات المتحدة الامريكية الوطن القومي .

ففي ٣٠ حزيران عام ١٩٢٢ أقر الكونغرس قرارا ينسب فيه اقامة وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين على أن لا يصاب بالضرر السكان الاصليين ..

ومع هذا اعتبرت الحركة القومية العربية الكتاب الابيض تراجعا الى حد ما .

وهذا هو تقدير ريتشارد كروسمان (من زعماء حزب العمال الان وعضو اللجنة الانجلو - أمريكية في عام ١٩٤٦) .

وقد سأل في كتابه « أمة تبعث » : ماذا حدث بين عام ١٩١٧ (وقت الوعد) وعام ١٩٢٢ (موعد الكتاب الابيض) وأجاب :

« في السنوات الخمس الحاسمة بين وعد بلفور والانتداب وقع حادثان بشرا بنهاية سيادة أوروبا على العالم وبداية عهد تصبح فيه بريطانيا منطقة في السياسة الدولية

بين غيرها » ·· والحادثــان : ثــورة اكتوبر الاشتراكية الكبرى وشيوع فكــرة حــق تقرير المصيــر ··

الا أن التغييــر لم يكــن حاسمــا بحيث يلغي الامبريالية البريطانيــة ·· وهكــذا فبعد شهر تقريبــا على الكتاب الابيض صادق مجلس عصبة الامم على نظام الانتداب على فلسطــين ·

الفصل الثامن

نظام الانتداب والممارسة الصهيونية

في ٢٤ تموز ١٩٢٢ صادق مجلس عصبة الامم على نظام الانتداب على فلسطين وفي ٢٩ أيلول ١٩٢٣ سرى مفعول هذا النظام رسميا على البلاد

وبذلك انتهت المماحكات بين الدول الكبرى حول تقسيمات التركة العثمانية بعد الحرب العالمية الاولى ·· واكتسبت بريطانيا التي كانت تسيطر على فلسطين فعلا منذ أن احتلتها قواتها عام ١٩١٧ « حقا شرعيا دوليا » ! في البلاد ··

وأصبح في وسعها أن تمارس « وعد بلفور » باعتباره جزءا لا يتجزأ من نظام الانتداب ··

وفي هذا الاطار لا يمكن اعتبار نظام الانتداب مجرد وثيقة شكلية منحت بريطانيا « الوجود الشرعي الدولي » في فلسطين ، فقد وضع هذا النظام الاسس لاقامة ما وصفته لجنة بيل الملكية البريطانية ـ التي حققت في فلسطين عام ١٩٣٧ ـ « حكومة داخل حكومة » ·· حين أستوحت نصوصه مفهوم وعد بلفور ·

وهكذا أكد البند «ج» من المقدمة مسؤولية بريطانيا ، الدولة المنتدبة ، على وضع تصريحها في ٢ تشرين الثاني ١٩١٧ موضع العمل « تنفيذا لانشاء وطن قومي في فلسطين للشعب

اليهودي » • فبذلك يتم « الاعتراف بما للشعب اليهودي من الصلة التاريخية بفلسطين وبموجبات اقامتهم من جديد لوطنهم القومي في تلك البلاد » (البند د من المقدمة) •

ولم يكتف نظام الانتداب بهذه المقدمة ، بل دعا في الفقرة (٤) الى الاعتراف بوكالة يهودية تنصح ادارة فلسطين وتتعاون معها فيما قد يؤثر فى انشاء الوطن القومي اليهودى ومصالح السكان اليهود •• كما أكد في الفقرة ٦ أن على ادارة فلسطين أن تسهل الهجرة اليهودية في أحوال مناسبة « وأن تشجع بالتعاون مع الوكالة اليهودية المشار اليها في الفقرة (٤) استقرار اليهود المتراص على الارض ومنها ما لا يحتاج اليه للمقاصد العامة من أراضي الحكومة والاراضي البور » •• (١)

كذلك نصت بنود الانتداب هنا وهناك على ضرورة تجنب ما من شأنه أن يجحف بالمجتمعات « غير اليهودية » القائمة في فلسطين وعلى صيانة حقوقها المدنية والدينية •• ولكن مجرد الاصطلاح « غير اليهودية » عمق الوعي بتجاهل الامبريالية البريطانية والصهيونية حقوق الشعب العربي القومية بل بمجرد وجود ذلك الشعب أصلا ــ من ناحية ، وأكد خضوع حقوق « غير اليهود » المدنية والدينية لعملية بناء الوطن القومي اليهودي ••

فالفقرة (٢) وضعت على بريطانيا مسؤولية « وضع البلاد في ما يضمن انشاء الوطن القومي اليهودى » •• كما وضعت عليها مسؤولية « تطوير منشآت الحكم الذاتي » •

---

(١) اخذنا نصوص الانتداب مترجمة الى العربيه من كتاب وديع البستاني الانتداب الفلسطيني باطل ومحال بعد أن دققنا فيصحتها•

ولكن الامر المقرر لم يكن تطوير منشآت الحكم الذاتي بل انشاء الوطن القومي،ولذلك فشلت المحاولة الاولى لاقامة المجلس التشريعي عام ١٩٢٢ . وفشلت بعدها المحاولات التي جرت لاقامة حكم وطني في البلاد ، رسمية كما كانت في عام ١٩٢٦ ، وغير رسمية كما في عام ١٩٢٩ ..

ويذكر محمد دروزة في كتابه « حول الحركة العربية الحديثة » في هذا الصدد أن مساعد السكرتير العام ملز اتصل في عام ١٩٢٦ ببعض القوميين العرب وبينهم (الكاتب ورفيق التميمي وعمر الصالح البرغوثي ورشيد الحاج ابراهيم ومعين الماضي ..) وباحثهم بشأن تعديلات دستورية تخلق الظروف لاقامة حكم وطني ، واقترح عليهم اقامة هيئة تمثيلية عربية لهذا الغرض .. وفعلا عقدوا المؤتمر القومي العربي السابع في حزيران ١٩٢٨تحقيقا لذلك ولكن تعارض الحكم الوطني مع مصالح الامبريالية والصهيونية جمده وانتهى أمره ..

هذا على الرغم من أن القوميين العرب الذين باحثهم ملز قبلوا بمبدأ تعيين نصف اعضاء مجلس الاعيان وانتخاب مجلس النواب .. وأقروا تعهدات بريطانيا الدولية ، واكتفوا بأن ينص الدستور على تحفظ جاء فيه « ان أهالي فلسطين لم يستشاروا فيما اتخذته حكومة بريطانيا من تعهدات دولية بشأن بلادهم » ..

واقترح العرب ـ وهذا الذي على ما يبدو دعا المندوب السامي الى القول أن بعض المقترحات متعذر العمل بها ـ أن يكون أمر الهجرة اليهودية بقرار يوافق عليه البرلمان تراعي فيه مصالح الاهالي العرب والبلاد الاجتماعية والصحية والاقتصادية والاخلاقية والسياسية والدينية (الجزء الثالث

ص ٥٤ و ٢٧٣ ـ ٢٧٥)

أما المحاولة غير الرسمية فقد أجراهـا الوكيل البريطاني المعروف ، الذى قام بدور كبير في العربية السعودية جون (عبد الله حين أسلم) فيلبي ٠

ففي تشرين الاول ١٩٢٩ وصل الى البلاد ، بعد أن اجتمع مع بعض قادة الحركة القومية العربية في سوريا ، يحمل مشروعا لتسوية القضية الفلسطينية عرضه على القوميين العرب في فلسطين وباحثهم بشأنه وتوصل معهم الى اتفاق يمكن تلخيصه على الوجه الاتي :

* تدار فلسطين على أساس جمهوري دستوري ديمقراطي٠٠

* الهجرة حرة وخصوصا للعرب واليهود مع اعتبار مصالح البلاد وطاقتها ٠

* تكمن السلطة التشريعية بكاملها في مجلس ينتخبه المسلمون والمسيحيون واليهود ٠

* تكون السلطة التنفيذية في مجلس وزراء فلسطيني يتألف من عرب ويهود بموجب نسبتهما ويجري التوظيف في المناصب العالية على الاساس النسبي

* يتحمل المندوب السامى البريطاني مسؤولية الامن حتى تغدو حكومة فلسطين قادرة على القيام بهذا العبء حسب رأى عصبة الامم ٠

* يحق للمندوب السامي نقض « فيتو » أي قانون يتعارض مع التزامات بريطانيا الدولية أو يجحف بحقوق الاقليات أو الاجانب أو يتنافى مع مصالح البلاد (!) ٠٠ وعندئذ يحق للحكومة أن ترفع الامر الى عصبة الامم ٠٠ (المصدر ذاته ص ٥٩ ـ ٦١)

وهكـــذا ، فعلى الرغم من أن الحكم الوطني كان حكما وطنيـا كاريكاتوريا الى حد كبير من حيث خضوعه لبريطانيا ٠٠ فقـــد « مات » مسودة على الورق قبل أن يصـــل الى درجـــة المباحثـات الرسمية ، لتعارضه مع المصالح الامبراطورية ، كمـــا فرضتهـــا ظروف ذلك العصر ومـــع المشروع الصهيونى كما صاغـــه نظام الانتـــداب

وبهذا الشكـــل اصطـــدم الانتداب البريطاني والمشـــروع الصهيونى اصطداما مباشرا مستمـــرا مع أماني الشعب العربـــي في فلسطين في التحرر والاستقـــلال ، ولم يكن من الممكـــن حتى الخطو خطوات اولى في هذا السبيـــل واقامة حكومة محلية كمـــا كان الحـــال في الاقطار العربيـــة المجاورة امتدادا من العـــراق حتـــى مصر ٠

لقد كان كـــل مشروع تعديلات دستورية يصطـــدم كذلك بعالمية الصهيونية ٠٠ أو بأيديولوجيتها حـــول تعريف الشعـب اليهودي بوصفه « شعبا عالميا » ٠٠ فالصهيونيون كانوا يعتبـــرون فلسطين وطنا « قوميا » للشعب اليهودي بأسره ولذلك أقامـــوا الوكالة اليهودية على هـــذا الاعتبار ، ولم يكـــن من الممكـــن أن يقبلوا تمثيلا يقوم على أساس القائم في فلسطيـــن بـــل عـــلى أساس ما سيكـــون ٠

وهذا ما أكـــده بن غوريون حين عالج مقترحات المجلس التشريعي التي جاءت في كتاب أبيض جديد صدر عام ١٩٣٠ قال :

« نصـــادق على تغييرات دستورية تهدف الى اعطـــاء السكان قسطا من الادارة ولكننا نرفض بـــلا هـــوادة المجلس التشريعي الذى اقترحـــه الكتاب الابيض ٠ ونعد اليهودية (العالمية أ٠ت)

والعمال والامـــة العربيـــة أن لا نقبل أبدا بأن يسيطـــر فريق قومي واحد في فلسطين على الاخر الان أو الى الابـــد ٠ واذا كنـــا لا نقبل فكـــرة دولة يهودية حيث يحكم اليهود العرب ، كذلـــك لا نقبل ازدواجية القومية في سويسرا أو كندا ٠٠ فالحقـــوق في فلسطين لا تعود كما هو الحـــال في ذاكين القطرين الـــى المواطنين الحاليين يهود كانوا أم عربا . فالجوهـــر حـــق عـــودة اليهود المشتتين ، حق اعادة البناء والتطويـــر والحرية والسيـــادة بدون الاجحاف بحقوق الاخرين أو السيطرة عليهم » (ولادة اسرائيل مجددا ومصيرها دافيد بن غوريون مجموعـــة خطابات ومقـــالات ١٩٥٤ ص ٣٨) ٠

وفي الوقت ذاته منح الانتداب في فقرته الخامسة والعشرين بريطانيا سلطـــة استثناء « الاراضي الواقعة شرقي الاردن » مـــن سريان وعد بلفور وبقيامها بذلك لاغراض استراتيجيتها في المنطقة استنفرت احتجاج المنظمة الصهيونية التي اعتبـــرت ذلك تقليصـــا اقليميـــا لبرنامجها ٠٠

الصهيونية في الممارســـة

ولكـــن لا يمكن القول أن القادة الصهيونيين الواقعيين توقفوا كثيرا عند استثناء شرقي الاردن من سريان مفعول وعد بلفور الذي أصبح جزءا لا يتجزأ من الانتداب ٠٠ ولعلهم وافقـــوا الكاتـــب ج٠س هورفيتس في كتابه « النضـــال من أجـــل فلسطين » حين كتب أن حدود الوطن القومي لم يتحـــدد أبدا ٠

« فالحدود النهائية ، بداهة كان سيقررها في الدرجـــة الاولى (١) الاسلوب الذي ستستخدم فيـــه بريطانيا صلاحياتهـــا الواسعة (٢) ومـــدى تجاوب الصهيونيين مع فرصهم (٣) ودرجـــة

مقاومة العرب » (ص ١٩) ٠

ولا جدال في أن الاسطورة الامبريالية ــ الصهيونية القائلة بتلاشي مقاومة العرب لنظام الانتداب والمشروع الصهيوني الكولونيالي ، مع الايام ، هدفت في الاساس الى تضليل الرأي العام الذى لم يكن يقبل بسهولة اقامة وطن قومي على حطام شعب اخر وحقيقة كون المشروع الصهيوني مشروعا يقيم وطنا قوميا على حطام شعب اخر ظهرت في السنوات الاولى من الانتداب ٠٠ فالفترة الاولى حسمت وجهة التطور ٠٠ وجسمت الممارسة الصهيونية ٠٠ وقررت لذلك العلاقات اليهودية العربية ٠٠

ولمقاصد هذا البحث من الممكن اعتبار الفترة الاولى ، امتدادا بين المصادقة على نظام الانتداب والاصطدامات الدامية في عام ١٩٢٩ وما أعقبها من كتاب أبيض صدر في ١٩٣٠ ٠

فما هي أبرز أحداث هذه الفترة وملامحها

أولا : نمو السكان ففي حين توزع السكان بموجب احصاء ١٩٢٢ على الوجه التالي : ٦٦٠ ألف عربي و ٨٣ الف يهودي أصبح توزيعهم في ١٩٢٩ ، ٧٥٧ الف عربي و ١٦٤ ألف يهودي ٠

ثانيا : برزت حقيقة « مثالية » الدعوة الصهيونية ٠٠ من حيث انها دعوة « تحرك » الجماهير اليهودية في مختلف أقطارها ٠٠ فلم تكن المثالية القومية هي الدافع المقرر للهجرة اليهودية الى فلسطين بل الحاجة الى اللجوء الى مكان أمين أو الى قطر يفور بالممكنات الاقتصادية هي المحرك ٠٠ ولهذا تأرجحت الهجرة حيال الصعوبات الاقتصادية ٠٠ وفي حين كان المهاجرون منها حوالي الالفين زاد في عام ١٩٢٧ عدد المهاجرين من فلسطين الذين دخلوا فلسطين في عام ١٩٢٥ حوالي ٣٤ ألفا ، والمهاجرون

على الذين دخلوا اليها بنسبة الضعف (٢،٧١٣ دخلوا البلاد و ٥،٠٧١ خرجوا منها) ٠

ثالثا : وخلال هذه السنوات تحولت الهستدروت التي قامت في عام ١٩٢٠ لتكون أداة العمال اليهود في النضال الطبقي الى أداة لتنفيذ سياسة العمل العبري أو احتلال العمل من العمال العرب الذين يعملون في المزارع والمنشآت اليهودية ومن هنا أصبحت أداة ممارسة المخطط الصهيوني الاساسية ٠٠

وفسر ولتر بريوس في كتابه « حركة العمال في اسرائيل » هذا الامر بقوله « ان الجماهير الواسعة من العمال غير المنظمين (وأكثرهم من العرب) ألفوا هيئة منافسة ومارسوا ضغوطا على شروط العمل التي فاز بها العمال المنظمون مما جعل « الاعتراف القانوني » بمبدأ الاحتلال محتوما وضروريا » (ص ٩٠) ٠

وكان س٠ليفنبرغ في كتابه « اليهود وفلسطين » أكثر صراحة فكتب « ان على العمال اليهود أن يدافعوا عن أنفسهم ضد استبدالهم بعامل عربي رخيص وغير منظم ٠٠ ويعتقد زعماء العمال اليهود ان على العمال العرب في الوقت الحاضر أن يستخدموا لا في الاقتصاد اليهودى ، بل فى القطاع العربي والحكومي » (ص ٦٦) ٠

وأكمل أ٠س والدشتين الصورة في كتابه « فلسطين العصرية » فكتب يفسر احتلال العمل باعتباره عملية المحافظة على النفس :

« فاليهود لا يزالون أقلية في فلسطين ٠ ومستقبلنا أن نصبح أكثرية فيها ٠٠ وحتى نحقق ذلك الهدف لا نستطيع أن نسمح للعامل العربي أن يهيمن فى الزراعة والصناعة على

حساب العامل اليهودى وبذلك نهدد مستقبلنا بذاته في فلسطين » . (ص ١٤٠) .

وبدون الاستشهاد بعدد اخر من الكتاب نستطيع القول أن هدف احتلال العمل كان خلق ممكنات أوسع لاستيعاب المهاجرين الجديد وتعميق الانعزالية اليهودية عن الشعب العربي في البلاد .

ويكتب تيفنبرغ أن العمال اليهود كانوا ينفذون سياسة قومية متكاملة لم يجدوا فيها ادنى تناقض مع البرجوازية اليهودية (الصهيونية) الا بقدر استخدامها العمال العرب الارخص !

والامر المقرر فى نهاية المطاف أن قادة العمال الصهيونيين وضعوا أسس الفرقة بين العمال العرب واليهود وعمقوها مع الايام ، وكانت مزاعمهم حول التعاون العمالي في المؤتمرات الدولية (النقابية والسياسية العمالية) مجرد ذر رماد في العيون ..

رابعا : كذلك كان الاستيطان الزراعي الصهيوني انعزاليا عن الفلاحين العرب وعلى حسابهم في حالات كثيرة ..

ودلت احصاءات الحكومة على أن عدد المستوطنات الصهيونية بلغ في عام ١٩٢٢ ، ٧١ مستوطنة كما بلغت مساحة الملكيات اليهودية ٥٩٠٠٠٠ دونم ..

ونما عدد المستوطنات فأصبح في عام ١٩٢٧ ٩٦ مستوطنة واتسعت مساحة الملكيات فأصبحت في السنة ذاتها ٩٠٣٠٠٠ دونم . (تقرير حكومة فلسطين ص ٣٧٣) .

ومع هذا فاتساع الملكيات الصهيونية تم بشراء أراضي أسياد الارض (وفي حالات عينية أسياد أرض غائبين) وبتشريد

المزارعين العرب الذين كانوا يقتاتون من كدحهم فيها ..

ويعترف وايزمن في كتابه « التجربـــة والخطأ » بأن المنظمات الصهيونية اقتنت ٨٠ ألف دونم من سهل مرج بن عامر من عائلـــة أسياد الارض الغائبين في لبنان عائلة سرسق وقد كانت عليهـــا بضعة قرى عربيـــة .. ولكنه يزعم أن هذه القرى العربيـــة كانت « نصف مهجورة » ! بسبب الملاريا (ص ٢٥٣) .

وبتأييد جهاز الادارة البريطانية حولت الصهيونية هـــذه القرى « نصف المهجورة » الى قرى مهجورة تماما ومسحتها عـــن الوجود .. أما أهلها فكانوا المشردين الاوائل من الشعب العربـــي الفلسطيني وان لم يتركوا البلاد انـــذاك .

لقد زعـــم الصهيونيون اليساريـــون أنهم كانوا يقيمـــوا استيطانا زراعيا اشتراكيا في فلسطين ولهذا كانوا يقيموا مجتمعـا أرقـــى !

فما هي حقيقة « اشتراكية الاستيطان الزراعي » ؟

في دراسته « القـــوى الاجتماعيـــة في فلسطين » تعرض إبراهام ريفوسكي الى هذه القضيـــة وكتب :

« مع أن المؤتمرات الصهيونية الاولى سيطرت عليها الطبقات الوسطى اليهودية و « المثقفون » فقد صادقت على مبدأ تأميم الارض باعتبارها أهم أساس للدولة اليهودية في المستقبل .. وبمصادقتها على مبدأ تأميم الارض وبموافقتها على التجربة الاجتماعية الجريئـة في التعاون الزراعي لم تتأثر المؤتمرات الصهيونية بالنظريـــات الاشتراكيـــة ، بل بالضرورة القوميـــة » .

ومضى الى القول أن هذا الشكـــل كان ضروريـــا لان الملكية الفردية في الارض أصبحت عقبـــة أمام اتساع الهجـــرة ، ولان

استخدام الايدي العاملة العربية الرخيصة في المزارع اليهودية كان يهدد المشروع الصهيوني بأسره (باعتباره مشروعا قوميا انعزاليا متعصبا أ٠ت) ـ ص ٥ ـ ٧ ٠

ثم هناك الحاجة الى المثالية ٠٠

فالدعوة الصهيونية واجهت الدعوة الشيوعية الثورية ، وخاصة في روسيا القيصرية ، وأرادت التغلب عليها من أجل جذب العمال اليهود الذين انخرطوا فيها ٠٠ ولهذا كان لا بد للصهيونية من أن تخضع توق العمال اليهود الى المجتمع الاشتراكي لاغراضها ووجدت أن الدعوة الى التعاون الزراعي تؤدي هذا الدور ٠٠ فيتحقق الاستيطان اليهودى رغم المقاومة العربية ٠٠ ويمد المستوطنين بالمثالية ٠٠ ولا يضر المشروع الصهيوني الرأسمالي في قاعدته وأيديولوجيته القومية المغالية في الانعزالية الرجعية ٠

وهذا يفسر لماذا « عطف » وايزمن ممثل البرجوازية في الصهيونية وقائدها لاكثر من ثلث قرن على التعاون الزراعي ٠٠

ويكتب ريتشارد كروسمان في « أمة بعثت » ان وايزمن لم يكن يأبه بتنديد المتمولين اليهود بالكيبوتسات اعتقادا منه انها حل مؤقت ٠٠ (ص ٣٥) ٠

وهذا ما لاحظه موريس أيدلمان في كتابه « بن غوريون سيرة حياة سياسية » حين كتب : ان بن غوريون بعد قيام الدولة أراد ان يجذب الى البلاد رؤوس أموال غربية ، وهذا خلق تعقيدات للحركة العمالية التي قاومت الرأسمال المالي وأرادت اقامة نظام مساواة تعاوني ٠٠ وأضاف ٠٠ ولكن حاجات التطوير «اضطرت» بن غوريون الى أن يمنح المستثمرين فرصا لتوظيف أموالهم

وهكـــذا « انتهـــى الحلم الريفي » ·· (حلـم المساواة التعاونية) (ص ١٦٥) ·

خامسا : وينتسب الى هذه الفترة التي كما قلنا حـــددت مسيرة التطور تأسيس قوة الصهيونية العسكريـــة الضاربـــه التى عرفت بالهجانا (الدفاع) ·

أما موريس بيرلموتر في كتابه الحديث « العسكرية والسياسة في اسرائيل » فيعـــود الى الطوائف اليهودية المشتتة ليرسم تطـور القوة العسكرية الصهيونية التي أقيمت في فلسطـــين (ص ٤) ·

كذلك يعتقد يغئال ألون أحد القادة العسكريين في القـــوة العسكرية الصهيونية في كتابه « بناء الجيش الاسرائيلى » ان البداية كانت في عـــام ١٨٩٠ ·

ولكـــن بن غوريون الذى يمكن الاعتماد عليه يضع البدايـة في تعاونيـــة « شجرة » في العقد الاول من القرن العشريـن ·· ويصف باسهاب كيف نجح في اقنـــاع المسؤولين في التخلص من الحارس الشركسي واختيار حارس يهودي ··

ومـــع هذا فالاتفاق كامـــل على أن قوة « الدفاع » الهجانا تأسست (أو نمت من حركة الحراس) في ١٩٢٠ · وكانـــت في البدايـــة تحت أشراف الهستدروت ·

ويقـــول بن غوريون في محادثاته مع موشي بيرلمان في كتاب « بن غوريون ينظر الى وراء » ان اسم المنظمـــة في البدايـــة كان « فرق الدفاع والعمل » (جدود هاجناه فهعبودا) · وكانـــت الاشارة اليها في البدايـــة فرق العمل - بحـــذف الدفاع ··· ولكن باتساع فرق الـــدفاع وازدياد قوتها أصبحت تعرف بالهجانا ولصـــق بها الاسم ·· ويضيف ان هذه القـــوة الدفاعيـــة

الضاربة انتقلت من اشراف الهستدروت الى اشراف المجلس القومي اليهودي في عام ١٩٣٠ (ص ٥٥ ـ ٥٦) ٠

وفسر بن غوريون في هذا الكتاب الاسباب التي دعت الى اقامة الهاجانا فقال : للدفاع عن المستوطنات ٠٠ واضاف ولم يكن من الممكن الاعتماد على الانتداب للدفاع عن هذه المستوطنات التي انتشرت في البلاد ٠٠ اذ ان ذلك كان يعني أن تصبح المقرر في عددها ومواقعها ٠٠ (ص ٥٧ ـ ٥٨) ٠

وهكذا فقوة « الدفاع » الضاربة لم تكن قوة دفاع بالمعنى الحقيقي بل قوة هجوم ترافق الاستيطان الصهيوني الذى كان يجري حسب خطة مرسومة تأخذ بعين الاعتبار طاقة الصهيونية المالية والبشرية ٠

ويتضح من هذه الملامح أن الاصطدام مع الشعب العربي لم يكن محتوما فحسب ، بل ان الصهيونية خططت له منذ البداية ٠٠ امتدادا من جلب المهاجرين الى اقامة قوة ضاربة تزرع قلاعا زراعية لا مجرد مستوطنات يعيش أفرادها على الزراعة ٠٠

سادسا : ومما جعل الهجوم يشمل جميع الجبهات قيام الصهيونيين بالتصنيع ٠٠ لقد كان فى بدايته في هذه الفترة ، الا أنه كان يوحي بالمستقبل خصوصا بعد ما منحت سلطة الانتداب امتياز الكهرباء لشركة تأسست في لندن برأسمال مشترك وعرفت بشركة روتمبرج ٠٠

الفصل التاسع

الحركة القومية العربية

اعتبرت الحركة القومية العربية في فلسطين المؤتمر العربي السوري العام الذى عقد في دمشق في ٨ حزيران ١٩١٩ ـ واشترك فيها رجالات العرب من فلسطين أو سوريا الجنوبية كما كانت تعرف آنذاك ـ مؤتمرها الاول ٠٠

وحين عقد الوطنيون العرب من فلسطين مؤتمرهم الثاني في دمشق في ٢٧ شباط ١٩٢٠ ، صدروا عن الاقتناع بوحدتهم مع الحركة القومية العربية في سوريا الطبيعية وترابط مصيرهم مع مصيرها ٠٠ ولهذا تلخصت قراراتهم في :

* ان أهالي سوريا الشمالية والساحلية يعتبرون سوريا الجنوبية « فلسطين » قطعة متممة لسوريا ٠

* وهم يرفضون الهجرة الصهيونية لخطرها على كيانهم السياسي ويرفضون جعل فلسطين وطنا قوميا لليهود ٠

* ويعدون حركتهم الوطنية القائمة في البلاد للمطالبة باستقلال سوريا بحدودها الطبيعية وكما انها موجهة لاخراج المحتلين من الساحل (لبنان) ، كذلك هي موجهة لاخراج المحتلين من فلسطين ٠٠ (فلسطين العربية بين الانتداب والصهيونية عيسى السفري ص ٣٤) ٠

وهنا يظهر ما لاحظناه من قبل بشأن تأثير تقسيم الامبريالية الولايات العربية العثمانية ، في أعقاب الحرب العالمية الاولى ، الى أجزاء على الحركة القومية العربية ..

فالوقائع حتى في هذا الوقت المبكر فرضت نفسها على هذه الحركة ، فاجتمع رجالات فلسطين على حدة وعالجوا قضية ولايتهم العينية .. وانطلاقهم من وجهة نظر عربية سورية عامة وشعورهم بالخطر على اقليم فلسطين عمق التناقض الواضح بين الاقليمية والعروبة .. وكان بمثابة محطة انتقال فصلت بين الوطنيين ودفعتهم الى اقامة حركات قومية مستقلة في ولايتهم ، التي تحولت الى أقطار تسيطر عليها الدول الامبريالية .

واذا كان من الممكن اعتبار المؤتمر الثاني محطة انتقال .. فمن الممكن اعتبار المؤتمر العربي الفلسطيني الثالث الذي عقد في حيفا في ١٤ كانون الاول ١٩٢٠ بداية التنظيم القومي الفلسطيني ..

لقد عقد المؤتمر بعد نكبة ميسلون وانهيار الحكومة العربية في دمشق تحت ضغط الاحتلال الفرنسي .. ولهذا كان عليه أن يأخذ بعين الاعتبار الواقع الناشيء بحذافيره ويكيف النضال القومي حسب الاوضاع الجديدة ..

وهكذا قرر المؤتمر العربي الفلسطيني الثالث رفض وعد بلفور والمطالبة بمنع الهجرة اليهودية وبانشاء حكومة قومية في فلسطين .

وفي الوقت ذاته انتخب المؤتمر لجنة تنفيذية برئاسة موسى كاظم الحسيني ، كانت بمثابة قيادة الحركة القومية في تلك الفترة ..

ثم عقد المؤتمر العربي الفلسطيني الرابع في القدس في ٢٥ حزيران ١٩٢١ بعد المجابهة الاولى التي وصفناها وقرر ارسال الوفد العربي الفلسطيني الاول الى لندن وتألف من موسى كاظم الحسيني وتوفيق حماد وأمين التميمي ومعين الماضي وابراهيم شماس وشبلي الجمل ٠٠ وعقد المؤتمر العربي الفلسطيني الخامس في ٢٢ آب ١٩٢٢ للاستماع الى بيان الوفد ومقترحات الحكومة البريطانية حول المجلس التشريعي المقترح ٠٠

وقرر هذا المؤتمر :

١ ـ مقاطعة الاشتراك في انتخابات المجلس التشريعي ٢ ـ ورفض القرض الذى تنوي الحكومة عقده لمقاصد القيام بمنشآت وتطوير البلاد ! ٣ ـ ومقاطعة اليهود مقاطعة تامة ٤ ـ وضع ضريبة على جميع أبناء العرب في فلسطين للقيام بالدفاع عن قضية البلاد و ٥ ـ ارسال بعثة الى جزيرة العرب و ٦ ـ تأسيس مكتب دعاية في لندن ٠٠

ووضع المؤتمر ميثاقا بقي دستور الحركة القومية العربية الفلسطينية في مسيرتها ، وجاء فيه :

« نحن ممثلي فلسطين أعضاء المؤتمر العربي الخامس نقسم أمام الله والامة والتاريخ بأن نواصل المساعي المشروعة لتحقيق الاستقلال والاتحاد العربي ورفض الوطن اليهودي والهجرة الصهيونية » ٠٠ (المصدر ذاته ص ٩٥) ٠

ويظهر التطور واضحا في الحركة القومية العربية الفلسطينية ٠٠

فمن الناحية الواحدة أصبحت تصدر عن تربتها الاقليمية وتعالج قضاياها العينية مثل المجلس التشريعي ٠٠ والقرض

الحكومي ·· ومن الناحية الثانية بدأت تواجه مشكلة الصهيونية وتحاول مجابهتها لا بشعار عام مثل رفض وعد بلفور ·· بل بالمقاطعة ومقاومة الهجرة ·· ثم جسمت ، من الناحية الثالثة ، تماثلها مع فكرة الوحدة العربية بوضعها الاتحاد العربي بعد الاستقلال في ميثاقها وبارسالها وفدا الى الجزيرة العربية لاقامة العلاقة مع المسؤولين فيها وتوطيدها ··

لقد تألفت الحركة القومية العربية في هذه الفترة الاولى من قيادة في القمة ثابتة الى حد ما وتنبثق عن مؤتمرات دورية بلغ عددها سبعة فى سنوات العشرين ·· وجماهير فلاحية وشعبية تتجاوب مع هذه القيادة تجاوبا معينا ولكن لا ترتبط بها برابطة تنظيمية ··

وازاء هذا تظهر بالمقارنة الفروق الجوهرية بين الحركة القومية العربية في فلسطين الفضفاضة تنظيميا وأيديولوجيا والحركة الصهيونية بتنظيماتها المتطورة وأجهزة الاستيطان القوية التي أقامتها وأيديولوجيتها القومية المتعصبة العدوانية ··

وقد تضخمت هذه الفروق لتزيد من ترجيح كفة المنظمة الصهيونية على الحركة القومية العربية في فلسطين في ظروف تأييد الامبريالية البريطانية الصهيونية وقمعها بعنف تارة وبالتآمر تارة أخرى نشاط الحركة القومية العربية ··

وزاد من هذا التفاوت لان القيادة القومية العربية تألفت جوهريا من أسياد الارض الكبار أو أبناء العائلات الاقطاعية أمثال عائلات الحسيني والنشاشيبي وعبد الهادي في حين كانت القيادة الصهيونية برجوازية عصرية تستند الى امبريالية قوية ··

ومع هذا جمعت القوى الوطنية العاملة في الميدان

السياسي بين أسياد الارض المتخلفين فكريا (الرجعيين) والمتنورين من ناحية ، ومن الناحية الاخرى التجار وأصحاب المهن الحرة (أمثال الاطباء والمهندسين والمحامين) الذين كانوا يجتمعون في هذه المؤتمرات الدورية ..

ولكن الاوضاع الموضوعية كما تجلت في سياسة الصهيونية : احتلال الارض واحتلال العمل والاقتصار على البضائع العبرية ، دفعت هذه القيادة الى اتخاذ قرارات مضادة دفاعا عن التجار والماليين العرب (قرار مقاطعة اليهود) وعن الفلاحين والعمال العرب ..

وهكذا أخذ المؤتمر السابع الذى عقد في القدس في ٢٠ حزيران سنة ١٩٢٨ الظروف الاقتصادية ـ الاجتماعية (الطبقية) الناشئة عن سياسة الامبريالية البريطانية والاستيطان الصهيوني بعين الاعتبار فقرر المطالبة بحكومة قومية برلمانية ، والاحتجاج على كثرة الموظفين الانجليز في الحكومة «الفلسطينية» (الانتدابية) كما قرر الاحتجاج على اعطاء امتياز البحر الميت لشركة أجنبية وعلى تفضيل العمال اليهود على العمال العرب في الاشغال الحكومية والمطالبة بوقف سن القوانين ريثما تؤلف الحكومة البرلمانية ..

ولا بد من رؤية التناقض هنا بين هذه المطالب الاقتصادية ـ الاجتماعية التي تعرب عن مصالح طبقات وفئات معينة (الاحتجاج على الامتيازات صدر عن الماليين .. وعلى الموظفين الانجليز صدر عن الفئات المتعلمة .. وعلى سياسة التشغيل

عن العمال المهاجرين من الريف والمتذمرين من البطالة (١)) ، وقيادة الحركة القومية العربية في فلسطين ‥ فقد ظلت هذه القيادة جوهريا من أسياد الارض (رجال العائلات الاقطاعية الحسيني والنشاشيبي والهادي والتميمي والماضي) ولم تعكس القوى الاجتماعية المتضررة من سياسة الامبريالية البريطانية والصهيونية ·

وهذا يعود الى ضعف هذه الطبقات والفئات الاجتماعية على الصعيد السياسي ‥ ولا يغير من هذا الواقع أن العمال العرب كانوا قد أقاموا منظمتهم النقابية الاولى في عام ١٩٢٥ ‥ فجمعية العمال العربية الفلسطينية كانت ضيقة الاطار واقتصر نشاطها بين العمال في حيفا في البداية ·

ولعبت سلطات الانتداب الامبريالية دورا هاما في توطيد مواقع أسياد الارض الكبار (رجال العائلات الاقطاعية) في قيادة الحركة القومية العربية ‥

فهذه السلطات هي التي عينت الحاج امين الحسيني مفتيا للقدس على الرغم من أنه لم يأت في المرتبة الاولى عند التصويت ‥ بل لقد عينه المندوب السامي هربرت صموئيل في هذا المنصب بعد أن عفا عنه وألغى حكما غيابيا بالسجن ١٥ سنة صدر بحقه باعتباره أحد قادة الحوادث الدامية عام ١٩٢٠ بين العرب من ناحية واليهود وسلطات الانتداب من ناحية ثانية ‥

---

١ ـ في السنوات الاولى من الانتداب لم تبرز قضية الفلاحين العرب بحدتها ‥ ولذلك غابت المطالبه بالدفاع عن مصالحهم في هذه المؤتمرات ‥ ولكن هذه القضية احتدمت بعد اجلاء الفلاحين عن اراضيهم فانعكست في الحركه القوميه العربيه كما سنرى ·

وهو الذى عينه أيضا رئيسا للمجلس الاسلامي عام ١٩٢٢ وبذلك وضعه في موقع قيادة الحركة القومية العربية ..

ويعتبر محمد عزة دروزة في كتابه حول الحركة العربية الحديثة (٢) السلطات البريطانية مهندس الصراع بين الكتلتين العائليتين السياسيتين اللتين نشأتا بعد تعيين راغب النشاشيبي رئيسا لبلدية القدس ..

واتخذ هذا الصراع في هذا الوقت المبكر شكل صراع ، بن المجلسيين (عائلة الحسينى الاقطاعية وأنصارها) والمعارضين (الذين تكتلوا حول عائلة النشاشيبي وأنصارها) وقد أضر بالحركة القومية العربية في فلسطين ضررا بالغا بتجزئة قواها وارباك الرؤيا بين الجماهير ..

ومن السذاجة رؤية هذا الصراع اختلافا اقطاعيا على مواقع النفوذ فحسب .. لقد كان الخلاف والتنافس على هذه المواقع عاملا فعلا .. ولكنه نجم عن خلاف في التوجه نحو سلطات الانتداب والصهيونية ، وكان بين عناصر أقل مهادنة (الحسينيين) وأكثر مهادنة (النشاشيبيين) ..

ثم ان الموقعين اللذين انطلق منهما الصراع قررا التقاطب الاجتماعي الذى تم فيما بعد حول كل منهما ..

فالمجلس الاسلامي الاعلى الذى أشرف على الاوقاف والمساجد والمعاهد وبعض المدارس اتصل مع الفلاحين على نطاق واسع مما عكس ذلك على توجهه ..

في حين كانت رئاسة بلدية القدس ـ مركز التفاف

---

٢ ـ الجزء الثالث ص ٤٦ انظر ص ١٢٦ .

لاعضاء بلديات أخـــرى ـ متصلـــة بأهالي المدن ووثيقة الاتصال بالتجار وأصحاب المهن الحـــرة ٠

واذا تذكرنا أن الفلاحين فى فلسطين مثلهم في ذلـك مثـــل الفلاحين في كافة المستعمرات ، هم قـــوى الثـــورة الجوهرية ٠٠ وان التجار فى المستعمرات يميلـــون الى مهادنة الامبريالية أمكننا فهم الظروف التي جعلت المجلسيين ، لاتصالهم بالفلاحين ، يظهرون أكثر عـــداء للامبريالية البريطانية ٠٠ ودفعت المعارضين الـــى مهادنة الامبريالية البريطانية حتى حين كانت الموجـة الثوريـــة توحدهم مع كافة القوى وراء المطالب القوميـــة الحقة ٠٠

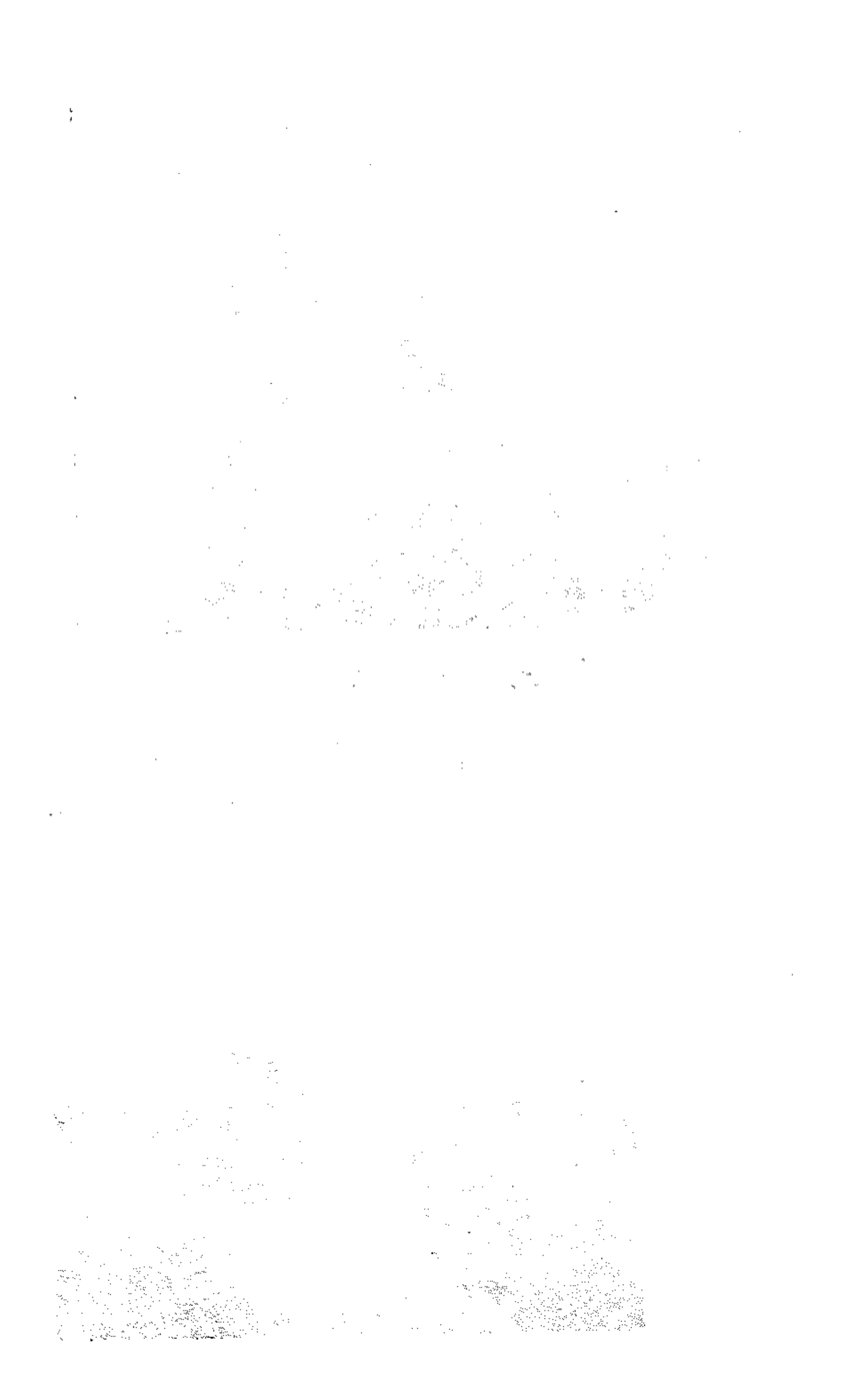
ولم يؤد الصراع كما قلنا الى تجزئة القوى القومية واربـــاك رؤيا الجماهير واشاعـــة العصبية العائلية التي هي من تقاليـــد الاقطاعية فحسب ، بل أدى الى اقحام الديـــن في المعركـــة ٠٠ فالمجلسيون ، كما يقول محمد عزة دروزة ، (في المصدر ذاتـــه ص ٤٨) أقاموا حكومـــة اسلامية واستخدموا الدين لاضعـــاف مواقع أعدائهم ٠٠ وهذا أدخـــل الدين الاسلامي عنصرا في الحركة القوميـــة العربيـــة امتاز بالسلبية في أكثر الاحيان خصوصـــا ازاء المـــد الثـــوري في الحركة القوميـــة العربية العامة ٠٠

ومما قـــوى هذا الاتجاه الديني اعتماد الصهيونية عـــلى الدين اليهودي لبناء أيديولوجيتها وممارستها اليومية حتـــى أن الاصطـــدام الخطير العربي من ناحية ، واليهودي ـ البريطاني من ناحية ثانية ، الذى وقع في عام ١٩٢٩ اندلـــع بشرارة تطايـــرت من خلاف بشأن حائـــط المبكى الذى كان يعتبره المسلمون جـزءا من باحة مسجد الصخرة ويعتبره اليهود الاثر الباقي من هيكـــل الملك سليمان وتبعا لذلك يقدســـوه ٠

من افراد الهجانا في زي البوليس الاضافي



كانت الصهيونيـة تخطـط للاصطدام «المحتوم» مع العرب والصورة تظهر احدى عمليـات تهريب السلاح .



وكان بديهيا ، وقد تسلمت قيادة المجلس الاسلامي الاعلى ، بأيديولوجيتها الاقطاعية ـ الدينية الضيقة ، مركز القيادة في الحركة القومية العربية أن يسهل على الامبريالية البريطانية تشديد التناحر اليهودي العربي لحرف النضال القومي المعادي للامبريالية على طريقه الصحيح ..

وهكذا ظهرت الحركة القومية العربية وكأنها ضد اليهود لا الامبريالية البريطانية ، على الرغم من أن كل تصادم كان يؤدي الى تصادم مع قوات الانتداب البريطاني ..

وفي هذا الصدد لاحظ محمد غزة دروزة الظاهرة الغريبة في فلسطين فكتب : في كل البلاد تقاس الوطنية بموقف القومي من الامبريالية ، أما في فلسطين فأصبح يستساغ أن يكون لمن يعقد أواصر الصداقة مع الانجليز ويخدم أغراضهم ويروج مطالبهم .. أن يكون له شأن في الحركة القومية العربية اذا كان مناوئا لليهود والحركة الصهيونية ... وأضاف ان ذلك يعود الى نجاح الانجليز في التظاهر نفاقا بالحدب على المطالب القومية العربية مع أن هدفهم كان : « استغلال كل من اليهود والعرب وتخويفهم كل منهم الاخر » (المصدر ذاته ص ٥٢) .

لم تبق المعركة القومية العربية في فلسطين في مكان واحد .. فقد تطورت بالتغييرات التي طرأت على البلاد وعلى المجتمع العربي ..

ولعل من المفيد أن نلاحظ هنا أن البرجوازية العربية في فلسطين ـ ونقصد هنا البرجوازية الصناعية ـ التي كانت جنينية عند بداية الانتداب تطورت ببطء هائل ولذلك لم تصل الى مركز القيادة في الحركة القومية العربية .. أو

على الاصح لم تصل الى مركز الحسم في القيادة القوميـــة ٠٠٠

وهـــذا يعود أولا الى السبب التقليدي الساري المفعـــول في كافـــة المستعمرات ، الى اغراق الدولة الامبرياليـــة الاسواق بالبضائع الجاهـــزة الرخيصـــة التي لا تستطيع الصناعة القومية منافستها ، وثانيا الى ممكنات الصهيونية الاوســـع لاقامة صناعات محليـــة حيث أمكـــن ذلك بالتعاون مع الاحتكارات الاجنبيـــة البريطانية مثلا ٠٠ مما زاد من صعوبـــات البرجوازية العربيـــة ازاء المنافســـة المزدوجـــة ٠٠

وفي الوقت ذاتـــه لم يغير نشاط الصهيونية في شـــراء الاراضي العربيـــة من التركيب الاجتماعي في الـــريف العربـــي الفلسطيني ٠٠ فأغلـــب الاراضي الشاسعـــة التي اشترتهـــا الصهيونية باعها الاقطاعيون الغائبـــون ٠ وأما الاراضي التـــي باعها الاقطاعيـــون القائمون في البلاد فلم تكن مـــن الاتســـاع بحيث تفيـــد البناء الاجتماعي ٠٠ ومع هذا فقد تشردت جمهـــرة من الفلاحين العرب ، الذين كانوا يزرعون هذه الاراضي ، وبذلـــك شددوا أزمة الريف وعقدوا مشكلة البطالـــة بانضمامهم الـــى سوق العمل في المـــدن ٠٠ وفي هذا الميـــدان حصلت تغييـــرات جذريـــة ، فالطبقة العاملة العربيـــة التي كانت ضئيلة العـــدد ضعيفـــة التنظيم في هذه الفترة ، ازدادت مـــع الايام عـــددا باتساع النشاط الاقتصادي (وفي أيـــام الحرب العالميـــة الثانية نتيجـــة المشاغل الحربيـــة) ، ووطـــدت تنظيمها وأصبحـــت تمارس نفوذها على الحركة القوميـــة العربيـــة ٠

ثم كان هناك اشتـــراك المرأة العربيـــة في الحركة القومية ٠٠ لقد قـــذف بها زخم الحركة الثوريـــة المعادية للامبرياليـــة

والصهيونية الى ميــدان المعركــة ٠٠ وسجل المؤرخون اقتحامها الميدان في ١٩٢٩ ، حين عقدت النساء أول مؤتمر لهن في ٢٦ تشرين الاول في القدس وأيــدن مقررات المؤتمرات العربية الفلسطينيــة ودعون الى تنشيط الصناعــة والتجارة الوطنيــة وتعزيــز الروابط الاقتصادية مع سوريا وغيرها من الاقطار العربيــة ٠

سياسة الحركـة القومية ومواقفهـا

في هــذه الفترة التى امتــدت حتى عام ١٩٢٩ ـ وهـي فترة تميز عالميا بتراجــع الموجة الثورية التي اجتاحت العالم عامة بعــد ثــورة اكتوبر الاشتراكية الكبــرى ـ واصلــت الحركة القومية العربية نشاطها السياسي على شكــل مؤتمرات ووفود تحــج الى لندن وتحــاول « اقناع » المسؤولــين فيهــا بعدالــة القضية العربية ٠٠

وقد ذكرنا عن نشاط الوفــد الاول في بريطانيا واخفاقه ٠٠ ونستطيــع أن نضيف أن الوفدين الثاني والثالث في ١٩٢٢ و ١٩٢٣ لم يحققا نجاحات ما وتركا اثارا دعائية طفيفة جدا فــي المحافــل البريطانية أو الغربية ٠٠ فالوفــود الفلسطينية هذه والتي تلتها هدفــت في الدرجة الاولى الى الاتصــال بممثلــي الامبريالية البريطانية في السلطــة أو مــع محافــل حاكمــة تظاهرت بتأييــد العرب ضد الصهيونية ولم تقم بأي اتصــال ـ وما كان تركيبها الطبقي يسمح لها بأي اتصال ـ مــع القــوى الثورية المعاديــة للامبريالية في بريطانيا ٠

ولكن جديــر بالملاحظــة ان الوفــد العربي الفلسطيني الاول اتصــل أثناء وجوده في أوروبا بوفــد الاتحاد السوري وعقــدا

سوية في جنيف في ٢٥ آب ١٩٢٢ مؤتمرا فلسطينيا ـ سوريا صاغ مطالب الحركتين وقدمها الى رئيس جامعة الامم وتتلخص في :

* الاعتراف باستقلال سوريا ولبنان وفلسطين وبسلطانها القومي ٠

* الاعتراف بحق هذه البلاد في أن تتحد معا في حكومة مدنية مسؤولة أمام مجلس نيابي ينتخبه الشعب وأن تتحد مع سائر الاقطار العربية المستقلة في شكل ولايات اتحادية ٠

* الغاء الانتداب حالا ٠

* جلاء الجنود الفرنسيين والانجليز عن سوريا ولبنان وفلسطين ٠

* الغاء تصريح بلفور ٠٠

وتكمن أهمية هذه الظاهرة من التضامن العربي في أن تحرك الجماهير في الفترة الممتدة بين ١٩٢٢ و ١٩٢٩ ارتبط بهذا التفاعل العربي في المنطقة التى عرفت قبل تجزئتها الى سوريا ولبنان وفلسطين وشرق الاردن بسوريا ٠٠

وهكذا اشتركت جماهير فلسطين في عام ١٩٢٥ ثم في عام ١٩٢٦ باضرابين عامين رافقتهما المظاهرات الشعبية تأييدا لكفاح الشعب العربي في سوريا ضد الانتداب الفرنسي ٠٠ وكان الاضراب الاول تضامنا مع الثورة التي كان يخوضها الشعب العربي في سوريا في عام ١٩٢٥ ٠٠ وكان الاضراب الثاني احتجاجا على زيارة المندوب السامي الفرنسي في سوريا ولبنان م٠دي جوفنيل للقدس زيارة رسمية ٠٠ وتضاما أيضا مع تلك الثورة السورية ٠٠ (تقرير لجنة فلسطين الملكية ١٩٣٧ الوثيقة ٥٤٧٩ ص ٥٩) ٠

وفي الوقت ذاتـه استقبلت المظاهـرات الصاخبـة اللورد بلفور صاحب الوعد الصهيوني حين وصـل الى دمشـق قادمـا من القدس حيث وضـع الحجر الاساسي في بناء الجامعة العبرية فيها . (المصـدر ذاتـه) .

وظهرت سياسـة الحركة القوميـة العربية في فلسطـين ازاء الانتـداب البريطاني والوضـع الدستوري من موقفها مـن الاقتراح البريطاني الداعي الى اقامـة مجلس تشريعي ..

لقد اقترح ونستون تشرشل وزير المستعمرات المشروع عـلى الوفـد العربي الفلسطيني الاول عام ١٩٢٢ .. ولكـن الوفد ، وأيدته المؤتمرات العربيـة الفلسطينية التي عقـدت بعد ذلـك ، رفض الاقتراح .

وكان الاقتـراح قد نص على تأليف مجلس تشريعي من ١١ عضـوا من موظفي الحكومة و ١٢ عضوا منتخبا منهم ١٠ عـرب ويهوديان برئاسة المندوب السامي الذى يتمتع بصوتين .

أما صلاحيات المجلس فكانت صفر تقريبـا ..

فليس من حقـه النظر في أيـة نقطـة تخالف سياسة حكومة الانتداب الاساسيـة أو نص الانتداب الذي قام ليمهـد السبيل لانشاء وطن قومي يهودي في فلسطين ..

كذلك كان يتوقف تنفيـذ قرارات المجلس عـلى ادارة المندوب السامي الذى عهد اليه بتطبيـق تصريح بلفور ..

وأوضـح الاقتراح بأن المجلس التشريعي لا يتمتـع بأية سلطة تنفيذيـة .

وأما المظاهـرة بالتنازل أمام المطالب العربيـة فكانـت باقتراح تشكيـل لجنة من أعضاء المجلس المنتخبين لكي تنظـر

مع الحكومة في أمر مراقبة الهجرة اليهودية •• ولكن تلاشي هذا التنازل حين اشترطت الحكومة أن تكون اللجنة مقيدة بأنظمة لا تتخطاها وأن يعود تنفيذ قراراتها الى رأي المندوب السامي ••

وحين أصرت حكومة الانتداب على المضي في المشروع أصدرت اللجنة التنفيذية التي انبثقت عن المؤتمر الخامس بيانا في ٢ أيلول جاء فيه :

« أجمعت الامة العربية الفلسطينية على رفض الانتداب ومشروع انشاء وطن قومي لليهود فى فلسطين وذلك بعد أن تجلت لها نتائج هذه السياسة الرهيبة على حياتها القومية والاقتصادية • وان من مقتضيات رفض الاصل أن نرفض الفرع لذلك الاصل • ولهذا قرر المؤتمر العربي الفلسطيني الخامس المنعقد في ٢٢ آب سنة ١٩٢٢ رفض الدستور الجديد لفلسطين بمقاطعة الانتخابات المقبلة للمجلس التشريعي ، لانه وجد بعد البحث الدقيق أن الاشتراك في تلك الانتخابات انما هو قبول محسوس بالانتداب وبتصريح بلفور » • (كتاب عيسى السفري فلسطين بين الانتداب والصهيونية ص ٨٦) •

ولبى أصحاب حق الاقتراع العرب دعوة اللجنة التنفيذية فقاطعوا الانتخابات التي جرت في مطلع عام ١٩٢٣ مما اضطر حكومة الانتداب الى تجميد فكرة المجلس التشريعي وتعديل الدستور بحيث يتمكن المندوب السامي من انشاء مجلس استشاري من العرب واليهود ••

وقام المندوب السامي بذلك وعين مجلسا استشاريا اختار له عشرة من العرب واثنين من اليهود ولكن العرب بضغط الحركة

القومية العربيـــة انسحبوا أثناء الجلسة الاولـــى التي عقـــدت في ١٣ حزيران ١٩٢٣ •• (المصـــدر ذاته) •

وقـــد صـــدرت الحركة القومية في موقفها عن اعتبـــارات مبدئية صحيحـــة تقوم على حـــق الشعب في الاستقلال والحكم القومـــي ••

وهذا ما أكدته اللجنة التنفيذية في مذكرة قدمتها الى وزيـر المستعمرات البريطاني ج٠ايمري في نيسان ١٩٢٥ وجاء فيها :

« ان العـــرب وهم في فلسطين يطلبـــون حقهم في الحكـم التشريعي لم يريدوا قـــط أن يغمطوا حقـــوق اليهود الذيـــن يساكنونهم ولكنهم يريدون أن يتمتعـــوا بحقهم باعتبار انهم أكثرية ساحقـــة في العدد والمصلحـــة وباعتبار انهم وعدوا بوعـــود صريحة وباعتبار أن عهد جامعة الامم يخولهم ذلك مـــع حفظ حـق اليهود الوطنيين في الاشتراك في الادارة والتشريع بحسب نسبتهم (المصدر ذاتـــه ١١٥)

وقد كان هذا الموقف فيما بعد موضـــع نقاش في محافـــل الحركة القوميـــة العربيـــة •• فقد حاولت بعض العناصـــر التشكيك في صـــدق هذه السياسة السلبيـــة على اعتبـــار أن السياسة المثـــلى هي « خذ وطالب » •• ولكن الواقـــع أكـــد أن طبيعة المعركـــة لم تكن تسمح بمثـــل هذه السياسة •• ثـــم لم يكن هناك ما يأخـــذه الشعب العربي ، فالمناورة كانت مفضوحـــة والاقتراح كان تضليـــلا لا تنازلا ••

صحيح ان الفترة كانت تراجـــع ثـــوري في المستعمـــرات وفي العالم العربي ••

صحيح كذلك أن الحركة القوميـــة العربيـــة في مصـــر

قبلت بتصريح فبراير في عام ١٩٢٣ واعتبرته تراجعا امبرياليا لاعلانه انهاء الحماية البريطانية واعترافه باستقلال مصر ..

ولكن المعركة في فلسطين كانت من أجل فرض التراجع على الامبريالية البريطانية وصد تقدم الصهيونية ، والاشتراك في مجلس تشريعي لا يختلف عن الدمية بشيء كان سيوطد مواقع الامبريالية وسيغطي على هذا التقدم أو يعطيه شيئا من الشرعية أو الموافقة العربية .

وفي هذه الفترة حاولت السلطات البريطانية اشراك الحركة القومية العربية في الانتداب البريطاني عن طريق اقامة وكالة عربية تكون على غرار الوكالة اليهودية التي ارتأى قيامها نظام انتداب فلسطين في المادة ٤ ، والتى قامت فعلا في عام ١٩٢٩ ..

وقد أعلن الاقتراح وزير المستعمرات الدوق ديفونشاير في ٤ تشرين الاول ١٩٢٣ وشرحه المندوب السامي في اجتماع ضم ٤٠ « وجيها عربيا » ..

ورفض العرب الاقتراح .. فالمندوب السامي هو الذي كان عليه أن يعين الوكالة العربية بالتشاور مع الزعماء العرب المحليين ، الأمر الذي اعتبره القوميون انه لا يتوافق مع أماني العرب القومية ..

لقد زعمت المحافل البريطانية أن الاقتراح ، الذي كان سيجمع مندوبين عن الاقطار العربية المجاورة في تلك الوكالة العربية ، تجاوب مع المشاعر العربية العامة واعتراف بالقربى بين الشعوب العربية ، ولكنها تجاهلت أن وكالة يعينها المندوب السامي من المتعاونين مع الامبريالية البريطانية كان هدفها

كما أعلن ذلك الدوق ديفونشاير ، مثل هدف المجلس التشريعي والمجلس الاستشاري توثيق مشاركة العرب بحكومة فلسطين (٣) التي أعلنت أن سياستها قائمة على تنفيذ المشروع الصهيوني .

ومن نتائج هذه المواقف أن الامبريالية البريطانية اعترفت ـ وهذا يعني أن انطباع الرأي العام أو بعضه كان هكذا ـ « ان اعتراض العرب لم يكن حيال أسلوب عمل الانتداب ، بل ضد مجموع سياسة الانتداب ولم يكن أي تنازل يستطيع ـ مهما كان ليبراليا ـ أن يجعل العرب يتوافقون مع نظام يعترف بمدلولات وعد بلفور » .. (تقرير عن فلسطين أعدته الادارة البريطانية للجنة التحقيق الانجلو ـ أمريكية بين كانون الاول ٩٤٥ وكانون الثاني ١٩٤٦ المجلد الاول ص ٢٢) .

---

٣ ـ تقرير لجنة فلسطين الملكيه وثيقه ٥٤٧٩ ص ٥٧ .

الفصل العاشر

حوادث ١٩٢٩ الدامية

يلاحظ أكثر الكتاب أن الفترة التي امتدت بين ١٩٢٥ و ١٩٢٨ امتازت « بالهدوء » في فلسطين ..

ويماثل هذا الوضع الاوضاع في الاقطار العربية المجاورة باستثناء سوريا حيث اشتعلت الثورة المسلحة في عام ١٩٢٥ واستطاعت أن تحقق انتصارات كبرى قبل أن يغرقها الامبرياليون الفرنسيون في بحر من الدماء ..

ومن أسباب هذا الهدوء هبوط حدة الخوف العربي من الوطن القومي اليهودي بسبب الازمة التي انتابته .. ففي هذه الفترة بالذات كما كتب هاري ساخر اجتاحت أوروبا الشرقية أزمة اقتصادية وانعكست في نمو الوطن القومي اليهودي « فالهجرة الى البلاد تضاءلت والبطالة تضخمت وفي عام ١٩٢٧ كانت الهجرة من البلاد ضعف الهجرة اليها » (كتابه اسرائيل : اقامة دولة ص ١٠) .

ومع هذا فالحركة القومية لم تتوقف عن النضال السياسي وعقدت مؤتمرها السابع في حزيران ١٩٢٨ في القدس بحضور ٢٥٠ مندوبا يمثلون جميع المناطق والاحزاب وقررت : المطالبة بحكومة برلمانية والاحتجاج على كثرة الموظفين الانكليز في الحكومة

الفلسطينية والاحتجاج على تفضيل العمال اليهود على العمال العرب في الاشغال الحكومية والمطالبة بوقف سن القوانين ريثما تؤلف الحكومة البرلمانية ..

بداية التغيير

وطرأ تغيير في منتصف عام ١٩٢٨ حين وقفت حركة الانحدار في الهجرة اليهودية الى فلسطين وتجاوز عدد المهاجرين الى البلاد عدد المهاجرين منها وأصبح عدد اليهود ثلاثة أضعاف عددهم في نهاية الحرب العالمية الاولى أي ١٥٠ الفا .

ولم يكن التغيير في الكمية والنوعية مقتصرا على عدد السكان اليهود .. ففى هذه الفترة تضاعفت مساحة الملكيات اليهودية في الاراضي وارتفعت من ٤٢٠ ألف دونم (في عام ١٩١٤ ـ ١٩١٨) الى حوالي المليون دونم في ١٩٢٨ (ورد في تقرير حكومة فلسطين المقدم الى لجنة التحقيق الانجلو ـ أمريكية في كانون الاول ١٩٤٥ أن ملكيات اليهود في ١٩٢٧ بلغت ٩٠٣ الاف دونم) .

ثم ان القيادة الصهيونية في سبيل توطيد مواقفها في فلسطين تشددت في ممارسة سياستها القومية الانعزالية من ناحية والعدوانية من الناحية الاخرى : سياسة احتلال العمل واحتلال الارض ..

وكتب ولتربريوس كما ذكرنافي كتابه حركةالعمال في فلسطين يصف نهج قيادة الهستدروت في هذه الفترة : « ومارس وجود جماهير واسعة من العمال غير المنظمين (وجلهم من العرب) الذين ألفوا هيئة منافسة ، ضغطا مستمرا على شروط العمل التي فاز بها العمال المنظمون مما جعل الاعتراف القانوني

بأساس الاحتلال أمرا ضروريا محتما » (ص ٩٠) ٠

وأضاف في فصله الفرعي « العلاقات بين طائفتي العمال اليهود والعرب . اضطرابات ١٩٢٩ وأثرها على الحركة العمالية » :

« لقد وجد العامل اليهودي كيانه مهددا من منافسة العمل الرخيص ٠ وبما أن الاكثرية الساحقة من طائفة العمال اليهود التزمت طبيعيا الفكرة القائلة أن أساس تحقيق الصهيونية خلق جمهور واسع من العمال اليهود في البلاد فقد تعهدوا تعهدا لا رجوع عنه بمبدأ العمل اليهودي في الاقتصاد اليهودي » (وهو اصطلاح اخر لاحتلال العمل) (ص ٩٢ ـ ٩٣) ٠٠

والتزام احتلال العمل أصبح مبدأ من مبادىء الكيبوتسات كما أقرها مجلس توحيدها الذى عقد فى بيتح تكفا فى ٥ آب ١٩٢٧ وجاء فيه « السعي لاحتلال الاعمال للعمال اليهود وتحسين أوضاعهم الاقتصادية أي احتلال العمل في المنشآت اليهودية والحكومية وتطوير فروع عمل جديدة » ٠٠ (المصدر ذاته ص ١٠٤) ٠

وأكد هذا الاتجاه بيرتس مرحاب في كتابه « تاريخ الحركة العمالية في فلسطين » ٠ ففي تعريفه برنامج هبوعيل هتسعير (أو العامل الشاب ٠٠ منظمة العمال القيادية في هذه الفترة ـ أ٠ت) كتب : في تحقيق الصهيونية يقوم بدور حاسم احتلال المواقع الاقتصادية والثقافية في « أرض اسرائيل » ٠ ان الشرط الضروري للاحتلال الاقتصادي هو تركيز الممتلكات والعمل في أيدي يهود ٠٠ وأضاف أن دور هبوعيل هتسعير في أرض اسرائيل هو العمل على تحقيق الصهيونية عامة والاهتمام باحتلال العمل (ص ٣٧) ٠

وكان أبــرز حــدث في الحركة الصهيونية في عام ١٩٢٩ قيام الوكالة اليهودية ..

لقد نصت الفقرة الرابعــة من نظام الانتــداب الذى اعتمدته حكومة الانتداب على أن الحكومة البريطانية في فلسطين ستعترف بالوكالة اليهودية هيئة عامة تقوم بــدور النصح وتتعاون مــع الادارة الفلسطينية في الميادين الاقتصاديــة والاجتماعية وغيرهــا مما يؤثر عــلى بناء الوطن القومي اليهــودي ومصالــح السكان اليهود في فلسطــين ..

وفي المرحلــة الاولى اعترفــت الادارة الفلسطينية بالمنظمــة الصهيونية وكالة يهودية .

ولكــن المؤتمر الصهيوني العالمي الثالث عشر الــذى عقد في كارلسباد بين ٦ و ١٨ آب ١٩٢٣ دعــا لجنته التنفيذيــة الــى العمــل على اقامة مؤتمر يهودى عالمى يقوم مقام الوكالة اليهودية .. وأيــد هذه الدعوة المؤتمر الصهيوني العالمي التالي الــذي عقد في فينا في آب ١٩٢٥ اعترافا منــه ـ كما جاء في القــرار برغبــة اليهود في العالم فى المساهمــة في بناء الوطن القومــي بروح تصريح (وعــد) بلفور .

وكان أساس التعــاون اليهودى العالمى أو هــدف هــذا التعاون : زيادة الهجرة الى فلسطين .. واستخــلاص الاراضــي وجعلها ملكية الشعب اليهودى .. والاستيطان الزراعي الكولونيالي القائــم على العمــل العبري .. وبعث اللغة والثقافة اليهوديــة .. (فكرة الدولة اليهودية بن هلبرن ص ١٧٩) ..

وكان القصــد من وراء اقامة الوكالة اليهودية استنفــار يهود العالم ـ وخاصة الاغنياء الذين لا يتماثلون مع أيديولوجيــة

الصهيونية الجوهريـــة (القائمة على جمع الشتات واستحالـــة العيش في المهجر ·· واقامة الدولة اليهودية) استنفارهم لمد يـــد المعونة لاقامة الوطن القومي اليهودي في فلسطين واستقرار اليهود فيهـــا ··

واستفـــز تأليف الوكالة اليهودية على قاعدة عالمية أوســـع مخاوف محافـــل مقررة في الشعب العربي الفلسطينـــي خصوصا ازاء ازدياد عدوانيـــة القيادة الصهيونية التي استمـــدت مزيـدا من الثقة من هذه الخطوة ·· وليس من قبيـــل الصدفة أن تعتبر المصادر البريطانية والصهيونيه حـــوادث عام ١٩٢٩ ردا عـــلى قيام الوكالة اليهودية · (كتب هذا بالضبط حايم وايزمن في كتابه « التجربـــة والخطأ » ص ٣٣١) ·

وقد جرت هذه التغييرات في ظروف عينية أسهمت الممارسة الصهيونية في خلقها ·· ومن أبرزها ازدياد عدد الفلاحين المعدمـين الذين ألفوا في هذه الفترة ـ حسب بيان الحكومة البريطانية في عام ١٩٣٠ ـ ٢٩٫٤ بالمئة من الفلاحين أو ٨٦٫٩٨٠ عائلـــة ريفية (تقريـــر اللجنة الفلسطينية الملكية لعام ١٩٣٧ ص ٣٢٩) ·

والقول أن الصهيونية أسهمت في زيادة عدد الفلاحين المعدمين يعود الى أن استمـــلاك المنظمات الصهيونية الاراضي الزراعيـــة ادى الى اجـــلاء المزارعين العرب منها ·· فمعروف أن الاقطاعيـــين العرب وفي بعض الحالات الاقطاعيين الغائبين (في لبنان) هـــم الذين باعوا مساحات واسعـــة من الاراضي الزراعية التي كـــان فلحها المزارعون العرب خـــلال أجيال وبذلك جردوا أولئك المزارعين من حقوقهـــم وساعـــدوا الصهيونية ، والسلطات البريطانيـــة التي أيدتها ، على اقتـــلاع المزارعين من تربتهم وتشريدهم ··

وهكـــذا فاذا تذكرنا مساوىء حمـــلات احتـــلال العمل ، التي كان العمال العرب ضحيتها ‥ وسياسة الادارة البريطانيـــة في « تفضيـــل العمال اليهود على العمـــال العرب » كما أشار الى ذلك المؤتمر السابع عام ١٩٢٨ ‥ فعندئذ نستطيـــع أن نتصور شعور النقمـــة على الادارة البريطانية والصهيونية في هذه الفترة بين الجماهيـــر الشعبيـــة ‥

وزاد في هذه النقمـــة أن البرجوازية العربيـــة الضعيفـة جدا كانت تشعر بالخطـــر على مصالحها مـــن جـــراء النشـــاط المتزايد الذى تقوم به البرجوازية اليهودية بالتعـــاون مع مؤسسات احتكارية أجنبية ٠ (في هـــذه الفترة بريطانية وجنوب افريقيـــة في الاســـاس) ٠

ولعـــل قرار المؤتمر السابـــع الاحتجاج على اعطاء امتيـــاز البحر الميت لشركة أجنبيـــة ‥ والاحتجاج السابـــق على منـــح « روتمبرغ » امتياز توليـــد الطاقـــة الكهربائيـــة كان تعبيـــرا عن هذه النقمة الناجمة عن تلك المخاوف ‥

كل هذا في وقت كانت الحركة القوميـــة تواصـــل فيـــه المطالبة بحكم وطني وبدستور يمنح البلاد استقلالها ‥

حـــوادث عـــام ١٩٢٩

يتفـــق المؤرخون جميعا على أن حـــوادث عام ١٩٢٩ أدت الى سقوط قتـــلى وجرحى من العرب واليهود ‥

ولكنهم يختلفـــون على كل شيء اخر ‥ حتى عـــلى عـــدد الضحايا من الجانبين التي بلغت حسب الاحصاءات الرسميـــة انذاك ١٣٣ قتيـــلا و ٣٣٩ جريحا من اليهود ‥ و ١١٦ قتيـــلا

و ٢٣٢ جريحا من العرب ..

ومن الممكن ايجاد قطاع واسع من المؤرخين يتفقون على أن الامبرياليين البريطانيين قاموا بدورهم الخبيث بتأجيج الاحتراب العنصري بين اليهود والعرب استرشادا بمبدأ « فرق تسد » .

ولكن هنا ينشب الخلاف بعد الاتفاق العام .. فالصهيونيون يتهمون الادارة البريطانية في فلسطين في تحريض العرب وتشجيعهم على الاضرار باليهود وبوطنهم القومي .. في حين تقوم اطروحة المؤرخين العرب على أن الامبريالية البريطانية ساندت الصهيونية مساندة كاملة .. وتعاونت مع قيادتها في فلسطين باستمرار .. ولا يغير من هذه الحقيقة وجود خلافات بين الجانبين ..

والان ماذا جرى في عام ١٩٢٩ ؟ ..

تبدأ الرواية العربية بالتأكيد على أن حائط المبكى ، ويسمونه البراق أيضا ليس جزء من الحائط الخارجي للهيكل القديم فحسب بل هو جزء من الحرم الشريف أيضا .. ولهذا فاليهود يقدسونه والمسلمون يحترمونه احتراما عظيما .

كذلك تؤكد الرواية العربية أن البراق ملك للمسلمين منذ الفتح الاسلامي وهم يحتفظون بصكوك بهذا المعنى تخولهم حق ادارة المكان .. وخلال السنين والاتفاق غير المكتوب قائم بين ادارة الوقف الاسلامي واليهود المتدينين من حيث الزيارة والصلاة بالقرب منه .. وينص الاتفاق على أن لا يقيم اليهود أي بناء بالقرب من الحائط أو يضعوا أي شيء في باحته .

وتلاحظ الرواية العربية أن الادارة البريطانية حظرت

يطلب من الوقف الاسلامي - على المسؤولين اليهود وضع مقاعد في باحة البراق لان ذلك يغير الوضع القائم ويعتبره المسلمون تجاوزا على حقوقهم .. كما أنها أمرت البوليس في أيلول ١٩٢٨ رفع الستار الذى وضعه اليهود في عشية عيد الغفران على الرصيف المحاذي للبراق بعد أن شكا ذلك المسلمون ..

وبعد ذلك تعرض الرواية العربية الحقائق على الوجه التالي :

* في يوم ١٤ آب ١٩٢٩ (عشية ٩ آب يوم الصوم استذكارا بخراب الهيكل تظاهر اليهود في تل أبيب وهتفوا : الحائط حائطنا ..) العار من نصيب كيث روش (حاكم القدس الذى أمر برفع الستار في العام الماضي) ..

* وفي اليوم التالي جاء وفد من شباب تل أبيب الى القدس وسويا مع يهودها تظاهروا في مظاهرة صاخبة اخترقت الشوارع في اتجاه حائط المبكى (البراق) وترددت فيها الهتافات نفسها الحائط حائطنا ..

* وفي اليوم التالي قام المسلمون بدورهم في مظاهرة صاخبة وصلت الى باحة البراق (حائط المبكى) وخلال ذلك قلبوا طاولة الشماس وأخرجوا الاسترحامات التي يضعها عادة المصلون اليهود في شقوق الحائط .. ومزقوا ثياب الشماس وتفرقوا الى بيوتهم ..

* لقد مرت المظاهرات الثلاث في سلام ولكنها شحنت الجو بالتوتر وأشاعت مزيدا من الشكوك والريبة بين العرب واليهود ولذلك ما أن وقعت حادثة محلة البخارلية في القدس (طعن فيها أحد العرب أحد الشباب اليهود الذي دخل بستانه لاسترجاع كرته في أعقاب مشاجرة بينهما توفي بعدها)،

حتى اشتعـــل الجو وبدأت سلسلـــة المصادمـات بين العـــرب واليهود في مختلف انحاء البـــلاد ٠٠ وفعلا في يوم حادثـــة البخارلية « ١٧ ـ آب ١٩٢٩ ، وقعت مشاجـــرة عامة بين العرب واليهود جرح فيها أحد عشر يهوديا وخمسة عشر عربيا ٠٠

* وفي ٢٣ آب سرت اشاعـــة مفادها أن اليهود قتلـــوا عربيين « فهاجـــت خواطر العـــرب وما لبث أن سرى الهيـــاج الى القرى المجاورة ثم اتســـع وشمـــل القرى والمدن وفي مقدمتها يافا وحيفا وصفد والخليل ، وقامـــت مظاهـــرة هائجـــة فـــي نابلس للاعراب عن سخطها واستيائها وتحولت الاضطرابات فـــي الخليل الى مذبحـــة يهودية عموميـــة قتـــل فيها ٦٠ يهوديـــا وجرح أكثر من خمسين » ٠

* استمـــرت الاضطرابات وخـــلال هذا هجم اليهود عـــلى العرب في أكثر من موقـــع وقتلوا بدورهم بعض العرب ومن بينهم امام مسجد سكنة أبي كبير وستة من أفراد عائلتـــه ٠٠

* وانتهـــت الاضطرابات في ٢٩ آب ١٩٢٩ بحوادث صفد حيث قتل وجرح فيها ٤٥ يهوديـــا وعدد غير محـــدد من العرب ٠٠

* وفي حـــالات عديدة كانت الضحايا بين العرب نتيجـــة الاصطـــدام بالبوليس والجيش الذي استنفر امـــدادات وصلت اليه من مصر خلال أيام الاضطرابات الاولى ٠٠ (اعتمـــدت في هذه الرواية على كتاب عيسى السفـــري « فلسطـــين بين الانتـــداب والصهيونية » باعتبارها نموذجا لما كتبـــه العرب حـــول هـــذه الحوادث ص ١٢٤ ـ ١٢٧) ٠

وقوم القوميـــون العرب هذه الحـــوادث انتفاضـــة قومية ضد الصهيونية والانتداب البريطاني ٠٠

أما الرواية الصهيونية فتعرض الحقائق على الوجه التالي :

* تؤكد أن الحاكم البريطاني كيث روش بضعفه وتراجعه أمام العرب شجعهم على التمادي في تجاوزهم حقوق اليهود في حائط المبكى ..

* المظاهرة التى جرت في القدس كانت احتجاجا على أعمال العرب الاستفزازية بقذفهم المصلين اليهود بالحجارة في اليوم السابق ..

* وتتفق الروايتان حول حادثة البخارلية وانتشار الشائعات الا أن الرواية الصهيونية تقول أن العرب روجوا ، متعمدين اهاجة الخواطر ، ان اليهود يعدون هجوما على مسجد الصخرة وقد حرضوا الاف الفلاحين العرب ، الذين تقاطروا على المسجد في القدس من الخليل والقرى المجاورة للصلاة كعادتهم يوم الجمعة من كل أسبوع ، فاقترف هؤلاء المذبحة ..

* وهناك نسختان للرواية الصهيونية .. فرواية تكتفي بالقول ان العرب قتلوا اليهود العزل ولا تذكر عدد القتلى من العرب في هذه الحوادث التي استمرت اسبوعين .. ورواية أخرى تلاحظ أن قتل اليهود جرى في المواقع التي لم يكن فيها تنظيم يهودي دفاعي في حين صد العرب في المواقع اليهودية المحصنة .

* ويلقي المسؤولون الصهيونيون مسؤولية خاصة على السلطة البريطانية في الخليل التي لم تتخذ احتياطات دفاعا عن المواطنين اليهود هناك ، على الرغم من تحذيرهم مندوبي السلطة هناك ..

وهنا أيضا تتباين ماهية التهم .. فمن الكتاب

الصهيونيين من يضع اللوم على الادارة البريطانية المحلية في فلسطين .. وهناك من يضعها على الحكومة البريطانية في لندن .. (اعتمدنا في عرض الرواية الصهيونية في الاساس على كتاب وليم ل.هل « سقوط اسرائيل ونهوضها » ص ١٥٨ ــ ١٥٩) .

أما تقويم الصهيونية لهذه الحوادث فيجمل بوصفهم اياها « المذبحة » (البوجروم) التى لا تختلف عن المذابح التي تعرضت لها الطوائف اليهودية في أوروبا واتسمت باللاسامية .. وفي أغلب المصادر الصهيونية يصف الكتاب الصهيونيون حوادث ١٩٢٩ « بالاجرام » ... والعرب الذين اشتركوا فيها « بالقتلة والمجرمين » .

والان ماذا كان الموقف البريطاني الذى تماثل في نظرته الى الامور مع الرواية الصهيونية ؟

لقد جسمه المندوب السامي البريطاني جون تشانسلور الذى كان وقت الحوادث في بريطانيا فعاد على أثرها وأصدر بيانا جاء فيه :

« عدت من المملكة المتحدة فوجدت بمزيد الاسى أن البلاد في حالة اضطراب فأصبحت فريسة لاعمال العنف غير المشروعة .. وقد راعني ما علمته من الاعمال الفظيعة التي اقترفتها جماعات من الاشرار سفاكي الدماء عديمي الرأفة وأعمال القتل الوحشية التي ارتكبت في أفراد من الشعب اليهودي خلوا من وسائل الدفاع بقطع النظر عن عمرهم وعما اذا كانوا ذكورا أو اناثا والتي صحبتها ــ كما وقع في الخليل ــ أعمال همجية لا توصف وحرق المزارع والمنازل في المدن والقرى ونهب وتدمير الاملاك .. فواجبي أن أعيد النظام الى نصابه في

البلاد وأن اوقع القصاص الصارم بأولئك الذين يثبت انهم ارتكبوا أعمال عنف » (١) ..

وهكذا آدانت الادارة البريطانية الغرب « بالجريمة » ولكنها كشفت في الوقت ذاته عن استخدامها هذه « الجريمة » لضرب مطالب الشعب العربي في فلسطين ..

ففي بيانه المذكور أعلن المندوب السامي كذلك انه سيؤجل المباحثات التي كان ينوي اجراءها مع وزير المستعمرات لاحداث تغييرات دستورية وفقا لتعهد أعطاه للجنة التنفيذية العربية التي طالبت في مؤتمرها السابع بحكومة وطنية وعادت وطالبت المندوب السامي بذلك في حزيران من ذلك العام كما يظهر ذلك من بيانه . (نص البيان في كتاب عيسى السفري المذكور ص ١٢٩) .

وعند هذا الحد يصح السؤال : كيف يمكن تقويم هذه الحوادث التي وقعت في عام ١٩٢٩ ؟

وهنا لا بد من رؤية وجهيها .. فهي لم تكن مجرد اصطدامات بين عرب ويهود ، بل كانت جوهريا هبة جماهيرية في وجه الادارة البريطانية الامبريالية .. وهذا ما جسمته المظاهرات الشعبية لا في المدن المختلطة فحسب ، بل في المدن العربية الخالصة مثل نابلس .. وهكذا لم تكن هذه المظاهرات عنصرية بالمعنى المعاصر بل كانت معادية للامبريالية البريطانية ..

وهذا ما لاحظته اللجنة التنفيذية في ردها على بيان المندوب السامى فأعلنت « ان اضطرابات فلسطين السابقة والحالية

((١) وفعلا حكم على ٢٢ عربيا بالاعدام ونفذ الحكم بثلاثة اعتبرتهم الحركه القوميه شهداء ابرار ..)

انما ناشئة مباشـــرة عن السياســـة البريطانية الصهيونية التي ترمي الى اخفاء القوميـــة العربيـــة في وطنها الطبيعي لكي تحل محلها قومية يهودية لا وجـــود لها » ..

وهذا ما جعـــل الشيوعيين اليهود والعرب يقومون الحوادث بغض النظـــر عن سلبيـــة بعض مظاهرها والمآسي التي سببتهـا انتفاضـــة قومية معاديـــة للامبريالية والصهيونية في جوهرهـــا .. وهذا التقويـــم انزل عليهم غضب القيادة الصهيونية وحقدهـا فاتهمتهم « بالعمالـــة » للامميـــة الثالثة وموسكـــو ..

ولا ينفي تقويم هذه الحـــوادث بوصفها انتفاضـــة قومية رؤية وجهها السلبي الناجم عن الانحـــراف في التوجـــه النضالي بسبب قيـــادة الحركة القوميـــة العربية انذاك ..

ولكـــن هذا الوجه السلبي الـــذي شجعـــه الامبرياليون البريطانيون ساعـــده القـــادة الصهيونيون في توجههم الانعزالي القومي وسياستهم المعاديـــة للجماهير العربيـــة كما تجلت في احتـــلال العمـــل والارض ..

ولا يستطيـــع الباحث الموضوعي اخفاء مساهمـــة القيادة الصهيونية في حـــوادث ١٩٢٩ .. واللجنـــة التنفيذية العربيـــة اعتمـــدت على الوقائـــع حين أعلنـــت في بيانها ردا على المندوب السامي أن أكثر اليهود كانوا مسلحـــين وأن الحكومة سلختهـــم .. وقد قتلـــوا مع الجنود النظاميين النساء والاطفـــال والرجال العرب وكانـــوا البادئين في بعض الحـــالات .. (كتاب عيسى السفرى ص ١٣٠) ..

ولا بـــد من القول أن القيادة الصهيونية اعتبرت الاصطدام بين العرب واليهود محتومـــا وكانت تعد لـــه على كافة المستويات

وفى جميـــع الميادين ··

وقـــد أورد ميخائيل بار زوهر في كتابه « النبـي المسلح » تاريخ حيـــاة بن غوريون قول بن غوريون بعد مقتـــل أحدالحراس اليهود في عـــام ١٩٠٩ :

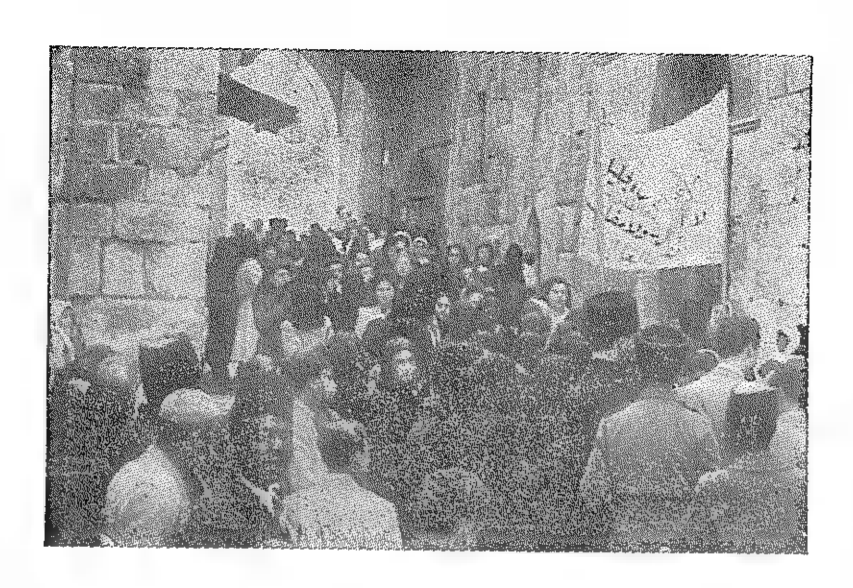
« ذلك اليوم (يوم مقتـــل الحـــارس) فتحت عيني وأدركت أن عاجـــلا وان آجـــلا ستجري تجربة قـــوة بيننا وبين العرب ·· ومنـــذ ذلك اليوم في شجرة (حيث قتـــل الحارس) شعرت أن الصـــراع محتم » ·

وأضاف الكاتب أن الصـــراع اليهودى العربى لم يبـــدأ في شجرة ولكـــن في ذلك اليوم من أيام نيســـان عـــام ١٩٠٩ أدرك أولئك الذين أصبحـــوا زعماء اليهود فيما بعد انه ان عاجـــلا وان آجـــلا سيصطـــدم الجنسان وستســـود القـــوة ·· وحتى قبل حادثة الشجرة كان شعـــار منظمة (الحـــارس) التـــي أقامها بن زفي (رئيس الجمهورية الثانى) وأصحابـــه « لقـــد سقطت (مملكة) يهودا بالنـــار والدمـــاء وستنهض من جديـــد بالنـــار والدمـــاء » · (ص ٢٤) ··

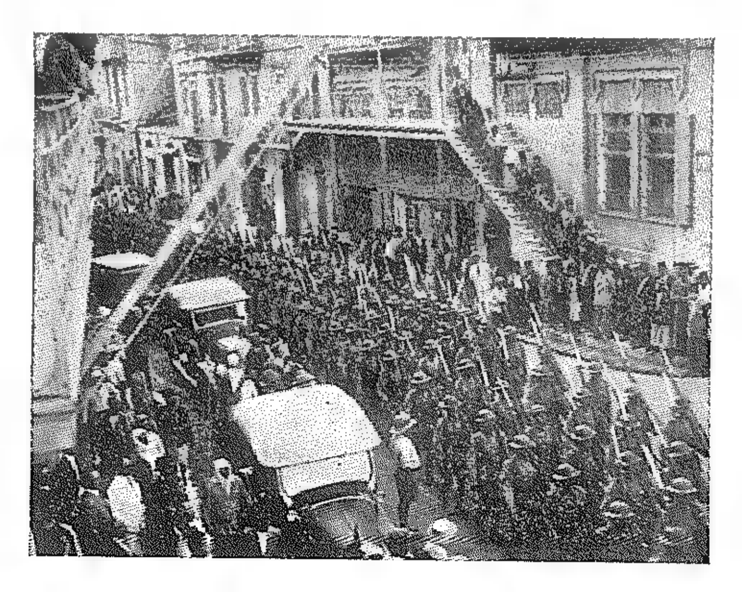
لقـــد اتهم عدد من الكتاب الصهيونيين القيادة العربيـــة بأنها أقحمت الدين في عام ١٩٢٩ بالصـــراع السياسي ·· وبغض النظر عن صحـــة هذه الحقيقة التي كما قلنـــا اتخذت شكـــلا تنظيميا بوصـــول المفتي الحاج أمين الحسينى الى القيـــادة ·· فالحقيقـــة التي لا بد من تأكيدهـــا هي أن الصهيونية اعتمـــدت في بنائها عناصر الدين اليهودي وبذلـــك سهلت أن تتحـــول ، مشكلة دينية ، مثل صلاة اليهود فى باحة البـــراق (أو حائـــط المبكى) ، الى قضية سياسية تحرك جماهير تل ابيب والقدس ··

ومـــع هذا فمهما يكن من أهميـــة لهذا العامـــل فهو عامل ثانوي لم يبـــدد العامـــل القومي ٠٠

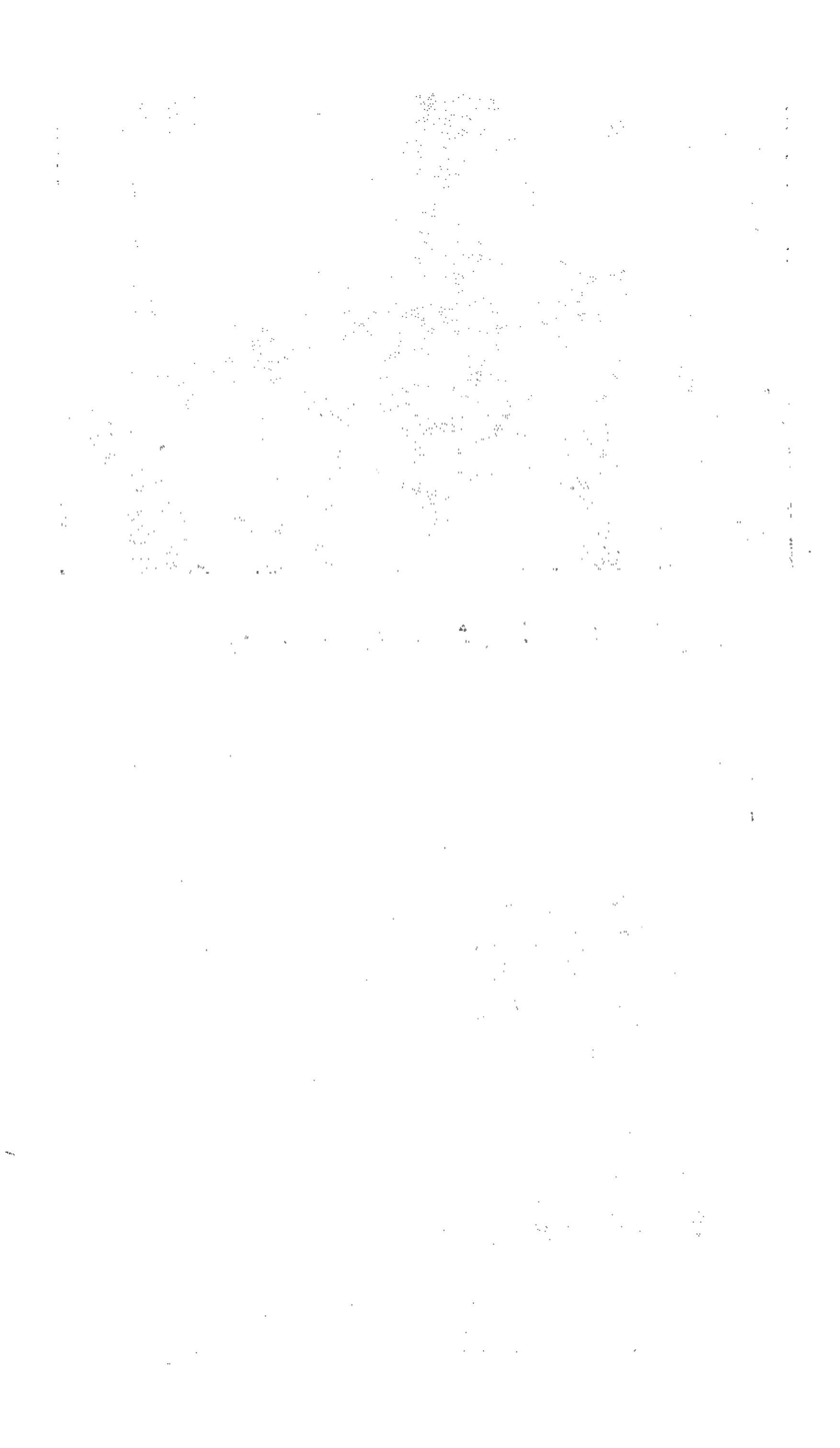
وهـــذا ما اعترفت به لجنة التحقيـــق التي أرسلتهـــا بريطانيا الى البلاد لتحقـــق في أسباب الحـــوادث برئاسة سير ولتر شو ٠٠ فقد أعلنت أن الصـــراع ناجم عن التناقض بـــين الوطن القومى اليهودي ومطالب الحركـــة العربيـــة القوميـــة بالاستقـــلال ٠٠ فتحقيـــق المطالب القوميـــة العربية يلغي الوطن القومي اليهودي ٠٠ وعزت اللجنة أسباب التوتر في علاقات الشعبين والحـــوادث الداميـــة الناشئة عنه الى مخـــاوف العرب مـــن المهاجرين واعتقادهم انهم لن يكتفوا بمشاركتهـــم فى البـــلاد ٠٠ وأضافت : « واشتـــدت هذه المخاوف بالتصريحات الصهيونيـــة السياسية الاكثر غلـــواء مما جعل العـــرب يرون في المهاجـــر اليهودى ليس خطـــرا على مصدر معيشتهم بـــل سيدا قد يسيطر عليهم فى المستقبـــل » ٠٠ (تقرير اللجنـــة الملكية الفلسطينيـــة لعام ١٩٣٧ ص ٦٨ ــ ٦٩) ٠



نزلت المرأة العربية من خدرها الى الشارع لتسهم في الكفاح الوطني



الجيش البريطاني يستعرض « عضلاته » في شواع القدس
في محاولة ارهاب سكانها عن تأييـد الثورة سنة ١٩٣٦



الفصل الحادي عشر

الكتاب الابيض
والحركـــة القومية العربيـــة

وعبرت لجنة شو ما قصدتـــه بقولها « مخـــاوف العرب على مصـــدر معيشتهم » ، فكتبت في تقريرها ..

« ان بيـــع اراضي سرسق (١) وشراء اليهود الاراضي فـــي مناطـــق كانت تربتها على غايـــة من الانتاجيـــة اعتبر تأكيـــدا على ان المهاجرين لن يرتضوا باحتـــلال المناطق المتخلفـــة ، وأن الضغـــط الاقتصادى على السكان العـــرب سيزداد » .. (المصدر ذاتـــه ص ٦٩)

وذكـــرت اللجنة كذلك أن بيوعا كبيرة وقعت بين ١٩٢١ و ١٩٢٩ كان من جرائها ان اخـــرج عـــدد كبير من العـــرب مـــن أراضيهم دون أن تعد لهم اراضى أخـــرى يزرعونها .. وأضافت : ان الحالـــة الان معقـــدة ، فلا توجد أراض أخـــرى يمكـــن أن ينتقل اليها الاشخاص الذين يخرجـــون من الاراضي التي يزرعونها ولذلك تنشأ في البـــلاد الان طبقـــة من الاهالي بلا الارض ومستاءة

---

١ ـ العائله الاقطاعيه اللبنانية الغائبه التي باعت مرج بن عامر للكيـــرن كاييمت (مؤسسة شراء الاراضي الصهيونيه)

... وهــذه الطبقــة خطر على البــلاد (!) وستبقى قضيــة الاراضى مصدرا دائمــا للاستياء الحالي .. (فلسطين العربيــة بين الانتداب والصهيونية عيسى السفري ص ١٤٤) .

وأوصت لجنــة شو بما يأتي :

* أن توضــيح حكومة بريطانيا سياستهــا في فلسطــين بأقــل ما يمكــن من التأجيل وتحــدد معنى الفقرات التــي وردت في نصــوص الانتــداب بشأن حمايــة « الطوائف غيــر اليهوديــة » .

* أن تعيد النظــر فى أمر تنظيم الهجرة بحيث لا يتكــرر تدفــق الهجرة الزائــدة على البلاد كما حــدث في عامي ١٩٢٥ و ١٩٢٦ وأن تتشاور فى هذا الشأن مع ممثلي « غير اليهود » .

* التحقيــق العلمى الفنى تمهيــدا لادخــال أساليــب زراعية حديثة وانتهــاج سياسة زراعيــة وفقا لذلك تؤدى الى زيادة الاراضى المنزرعة .. ،

* تأكيــد بيان ١٩٢٢ من أن مكانــة المنظمة الصهيونيــة الخاصــةلا تمنحها حق المشاركــة أبدا في حكومــة فلسطــين (تقرير لجنة فلسطين الملكيــة لعام ١٩٣٧ ص ٧١)

ولكــن اذا كان هذا التقريــر قد اعترف بمخاوف الجماهير العربيــة الحقيقيــة وكشف عن أضرار الاستيطان الصهيونــي بانعزاليتــه القومية ، فقد عكس طبيعة السياسة الامبرياليــة القائمة على أساس فرق تسد ..

حتــى حايم وايزمن لاحظ ذلك فكتب أن تقرير لجنة شــو لم يقــل شيئا بشأن بيانات الحكومة البريطانية في فلسطين التى وصفت الاضطرابــات وكأنها اصطدامــات بين العرب واليهود ..

فهذه البيانات أظهرت أن شعبين يتحاربان في فلسطين وان الادارة البريطانية تقف حارسا محايـــدا على النظـــام والقانون · (التجربة والخطأ ص ٣٣٢) ·

طبعا كان غضـــب وايزمن على هذه الادارة البريطانية فـــي فلسطين ناجما عن الرغبـــة في أن تكـــف هذه الادارة عـــن التظاهـــر بالحياد وأن تنفـــذ وعد بلفور كما تجسم في نصوص الانتـــداب ··

وجدير بالملاحظـــة هنا أن حايم وايزمن الـــذى ربط مصير الوطن القومي اليهودى بمصير الامبريالية البريطانيـــة كان ينتقـــد في هـــذه الفترة الادارة البريطانية في فلسطين وكأنها هيئـــة قائمة بذاتها في عزلة عن مخططات الامبريالية البريطانيـــة الموضوعة في لندن ، وذلك ليقنن الغضب على الارتبـــاط مع بريطانيا بيـــن بعض العناصر الصهيونية التي انطلاقـــا من ممكنات الارتبـــاط بقوى رجعيـــة دولية أخرى تأففت من هذه السياســـة لوتيرتها البطيئة ولمنعها الصهيونية عن « اجتياح فلسطين » ·

ثم ان هذا التقريـــر كشف أيضـــا عن أسلوب الامبريالية البريطانية التقليدى : أسلوب التهدئـــة باللجان ··

وهكـــذا ما أن انتهـــت لجنة شو من عملها حتى ألفـــت الحكومة البريطانية في لندن لجنة جون هوب سمبسون تنفيـــذا لتوصيـــة لجنة شو بشأن التحقيـــق العلمي الفني تمهيـــدا لادخال أساليب زراعية حديثة الى الريف ··

وأصـــدر جون هوب سمبسون تقريـــره في تشرين الاول ١٩٣٠ ·· فجاء تأكيـــدا على وجود أزمة زراعيـــة في البلاد ·· فقد أعلـــن أولا ان الاراضي الزراعية تتألف من ٦ر٥٤٤ر٠٠٠

دونم لا ١٦٫٠٠٠٫٠٠٠ كما كان يزعم الصهيونيون أو ١٠٫٠٩٢٫٠٠٠ دونم كما كان يقدر مفوض الاراضي البريطاني ..

واستنتج ثانيا أن الاراضي الزراعية ، حتى لو وزعت بين الاهلين العرب توزيعا تاما ، فلا يمكن أن تؤمن للعائلات الريفية حياة مقبولة .

ولذلك فما لم يجر تطوير الاراضي اليهودية ، ويتم تنظيم الرى ، ويسخدم العرب اساليب زراعية افضل فلن يكون هناك مكان لمستوطن اخر ، هذا اذا كانت هناك رغبة في الاحتفاظ بمستوى معيشة الفلاحين العرب على المستوى القائم .. ولا مكان للاستيطان على الاراضى الاميرية ما لم يجر تطويرها..

وهكذا ربط سمبسون الهجرة والاستيطان الصهيوني بتطوير الاراضى واعتقد ان هذا التطوير سيمكن البلاد من استيعاب ٢٠ الف عائلة .. ـ المصدر ذاته ص ٧١ ـ ٧٢ ـ .

ولاحظ سمبسون امرا طالما ابرزته طليعة الحركة الوطنية في فلسطين انذاك ، وهو ان استملاك الهيئات الصهيونية الاراضي العربية لا يعني ـ خسارة في الملكية فحسب ـ بل خسارة في ميدان العمل أيضا ـ .

فمنظمات استملاك الاراضى الصهيونية نصت فى دساتيرها ما جاء فى دستورالوكالة اليهودية فىالمادة الثالثة : تستملك الاراضي كملك لليهود وتسجل باسم صندوق رأس المال القومي اليهودي وتبقى مسجلة باسمه الى الابد كما تظل هذه الاملاك ملكا للامة اليهودية غير قابل للانتقال . وتنشط الوكالة الاستعمار الزراعى عن طريق العامل اليهودى ، والمبدأ العام الذى يتبع فى جميع الاشغال والمشاريع التي تقوم بها الوكالة وتنشطها هو

استخدام اليهود ـ .

والدعوة الى قصر العمل على العمال اليهود نصت عليه عقود ايجار ـ الكيرن كاييمت ـ و الكيرن هايسود ـ منظمتا شراء الاراضى العربية وتطويرها ـ بالاستيطان الصهيونى ـ وهكذا فى حالة الكيرن كايمت نص العقد على ان المستأجر يتعهد باجراء جميع اشغال الفلاحة باستخدام عمال يهود .. وفى حالةالكيرن هايسود كان علىالمستأجر ان يتعهد بان يستأجر عمالا من اليهود فقط اذا اضطر لذلك ..

طبعا لم ير المبعوث البريطانى سمبسون حقيقة الازمة الزراعية بتمامها بل رأى جانبا منها فالازمة الزراعيةفى فلسطين نجمت عن الملكية الكبيرة من ناحية وتخلف وسائل الانتاج من ناحية ثانية وعلاقات أسياد الارض والمستأجرين من ناحية ثالثة ..

أما الجانب الذى كشفه فلم يكن سوى عامل تعميق الازمة الزراعية .. فبيوع الاراضي شرد مزيدا من الفلاحين العرب عن الارض وخلق ضغوطا جديدة فى الريف ..

وهنا تبدو سخافة مزاعم الصهيونية حول دورها في « ضرب الاقطاعية » !! و « القيام باصلاح زراعي » ..

فالواقع أن الاقطاعية كانت حليفة الصهيونية لانها توافقت مصالحها مع مصالح الصهيونيين .. فالاقطاعيون أردوا بيع أراضيهم والتخلص من المزارعين وحقوقهم المعروفة والصهيونيون اشتروا هذه الاراضي وشردوا الفلاحين .. والاصلاح الزراعي الذى يأخذ شكل مصادرة أراضي الاقطاعيين وتوزيعها على الفلاحين أصبح فى ظروف ممارسة الصهيونية تعويضا على الاقطاعيين الذين نهبوا أراضي الفلاحين أصلا . وتجريد

الفلاحين من أراضيهم ··

وقد لاحظ سمبسون وجود البطالـة في الميـدان العربـي ووصفها بأنها خطيرة وكتب فى تقريـره أن من الخطأ أن يأتـي يهودى من بولونيا أو ليتوانيا أو اليمن ليملأ مكانا شاغـرا فـي فلسطين فى حين أن هنـاك عامـلا محليا يستطيـع أن يملأه ·· (المصـدر ذاته ٧٢) ·

ولكنـه فى الوقت ذاتـه تفهم الموقف الصهيوني حـين استطرد أن رأس المال اليهودى لن يأتى الى فلسطين من أجـل تشغيل العمال العـرب ولكنـه يأتي بالتحديـد لتشغيـل العمال اليهود ··

وباختصار أكـد سمبسون مبدئي الصهيونية أو القوميـة المتعصبـة الانعزاليـة : احتـلال الارض ·· واحتلال العمـل ·· هذين المبدئين اللذين حفرا خنـادق التباعـد والفرقة بـين العرب واليهود منـذ البدايـة ·

وقـد أدرك خطر السياسـة الصهيونية الشيوعيـون اليهود ·· وحتى فى عام ١٩١٩ قال أحدهم مخاطبا العمال :

« ابحثـوا عن طريق جديدة مأمونـة ، جـدوا طريـق السلام مع جماهيـر العاملين من الشعـب المقيم هنا ·· تذكروا انه مع كل مواطـن أو صديـق صهيوني يأتي الـى هنا لكي يخلص المزيـد من الارض ويستغـل سكانها ، انما يضيـف مزيدا من المواد المتفجرة تحت اسس بناتنا · »

الكتـاب الابيض لعام ١٩٣٠

وفى الفترة الواقعـة بين تقرير لجنـة شو وتقرير جون

هوب سمبسون سافر وفـد عربي فلسطيني رابع الى لنـدن ليباحث الحكومة البريطانية بشأن مطالـب الشعب العربي التي بدأت تتبلـور بشعارات ثلاثـة : منـع البيوع ٠٠ ووقـف الهجرة ومنـح الدستور ٠٠

ولكـن هذا الوفد الذى ضم العناصر التقليديـة في الحركة القوميـة العربيـة في فلسطين وجمع بين الجناحين (الحسينى والنشاشيبي كما درجت الناس عـلى أن تصفهمـا) ، أخفـق فى مهمتـه ٠٠ وفى ١٣ نيسان ١٩٣٠ أصـدرت الحكومـة البريطانية بيانا أعلنت فيـه انها أخـذت علما بمطالب الوفـد و « ان التغييرات الدستوريـة الشاملـة التي يطلبها لا يمكـن قبولها كلها لانها تعرقل عمل الحكومة في القيام بالتزاماتها بمقتضى الانتداب » وأضاف البيان أن الحكومة البريطانية أفهمـت الوفـد بأن لا سبيـل للنظر في أي اقتراح لا ينطبـق على مقتضيات الانتداب ٠ (فلسطين العربية بين الانتداب والصهيونية ص ١٤٩) ٠

وفي أعقـاب هذا البيان ٠٠ أصـدرت الحكومة البريطانيـة بيانا اخر في ٢٠ أيار ١٩٣٠ عادت فيـه على ما جـاء في بيانها السابـق بشأن الالتزامات والعهود المترتبـة عليها بموجب صك الانتداب ٠٠ وذكـرت مهمة سمبسون ٠٠ وتعهـدت باتخـاذ اجراءات سريعة لحمايـة مصالح الطبقة الزراعية وأكـدت أن لا مسوغ لمخاوف أولئك الذين يقلقـون على كيان الشعـب العربي فى فلسطين ٠٠ وستنزل الحكومـة (وهذه كانت لازمـة عامـة في تصريحات ممثلى الامبرياليـة البريطانية) أشـد العقـاب بالذين يخلـون بالنظام !!!

وعـلى هذا الضوء يمكـن رؤية السياسة البريطانيـة

فى أشكالها التقليديـــة : تهدئة باللجـــان ، تأكيد على حمايـــة مصالـــح الجميع ، التمســـك بالتعهدات حتى لو كانت متضاربة، تنميـــة التناحـــر المحلي وفقا لسياسة فرق تسد ..

وتجسمـــت هذه السياســـة في كتـــاب أبيض جديـــد صدر في ٢٤ تشرين الاول عام ١٩٣٠ قيل أن واضعيـه استرشدوا بتقرير لجنة شو واستنتاجات جون هوب سمبسون ..

وفي هذا الكتاب أكـــدت الحكومة البريطانية عـــلى بعض الملامـــح السياسية التى بدأت تستخدمها لتوطيـــد مواقعها .. فهي لم تعـــد تكتفي بالقول انها حكم يفصـــل بين الشعبين بـــل أصبحت تضـــع على الشعبين ضرورة الوصـــول الى تفاهم بينهما في وقت كانت تخلـــق الظروف لتباعدهما وتناحرهمـــا .

وهكـــذا جاء فى الكتاب الابيض لعام ١٩٣٠ : أن توطيـــد السلام والرفاهيـــة فى البلاد فى المستقبـــل يتوقف على تحسين العلاقات بين العرب واليهود وان الحكومـــة البريطانية تشعر أن فى الامكـــان الوصـــول الى ذلك ان تعاون كلا الفريقين معهـــا ومع ادارتها في فلسطين .

لقد كان الكتاب الابيض رفضا للمطالب العربية الاستقلاليـــة .. وجاء فيـــه أن المطالب العربيـــة بشأن ايجاد شكل دستوري نيابى تتنافى مـــع التزامات الحكومـــة البريطانيـــة .. ولكنـــه كان أيضا محاولـــة لاقناع الجماهير العربيـــر برغبـــة الحكومة البريطانية في « تسويـــة » القضية الدستوريـــة ... ولهـــذا أضاف الكتاب الابيض الى هذا الرفض وعـــدا جاء فيه : ان الوقت قد حـــان للسير في مسألـــة منح فلسطـــين درجة من الحكـــم الذاتي لمصلحـــة جميع السكان الى أمام بـــدون تأخير ..

وكثفت الحكومة البريطانية محاولتها كسب عطف الجماهير العربية فأعلنت في الكتاب الابيض : انه لا يوجد ، نظرا لطرق الزراعة القائمة ، أية أراضي ميسورة لاستيطان المزارعين من المهاجرين (اليهود) الجدد ٠٠ وأن البيانات تحمل على الاعتقاد بأن درجة البطالة بين الاهلين العرب وصلت حدا خطيرا ولذلك يجب تخفيض الهجرة أو وقفها ما دامت هذه الهجرة تسبب حرمان السكان العرب من الحصول على الاشغال الضرورية لمعيشتهم ٠٠ (المصدر ذاته ١٦٠ ـ ١٦٤) ٠

كان يكفي أن يبدو الكتاب الابيض أقرب الى المواقف العربية الرسمية حتى تهب المنظمة الصهيونية والوكالة اليهودية الى مقاومته لانه كما لخص ذلك حايم وايزمن « يهدف الى جعل عملنا (عمل الصهيونيين أ٠ت) مستحيلا » ٠٠

وجدير بالذكر أن الحكومة البريطانية التي أصدرت هذا الكتاب الابيض كانت حكومة حزب العمال البريطانى الذى كان يؤيد دون تحفظ المشروع الصهيونى ويضم بين جوانبه منظمة عمالية صهيونية ٠٠ وان كان هذا « التناقض » يدل على شيء من الاشياء فعلى انتماء قادة حزب العمال البريطانى الى محافل الامبريالية البريطانية التي رأت فى ذلك الوقت أن عليها ان تناور وتبدي شيئا من التحفظ المؤقت على اعتبار ان دفع المشروع الصهيوني في فلسطين الى أمام قد يولد انفجارا بين الجماهير العربية ٠٠

وتأكدت هذه الحقيقة عند صدور الكتاب الابيض اللاحق (لعام ١٩٣٩) للمقاصد ذاتها في ظروف دولية أخرى ، عن حكومة حزب المحافظين ، حزب الاحتكارات الكبرى ٠٠

وأما البرهان على ماهيـة السياسة البريطانية القائمة على سياسة فرق تسد •• ووضع الوطن القومي اليهودي ، أمام الحركة القوميـة العربيـة التحرريـة وتأييد الوطن القومي اليهودي بحيث يصبح موازيا في توازن القـوى في فلسطـين لحركـة الشعب العربى التحرريـة فى فلسطين •• ان البرهان على كـل هذا فجاء حين « فسرت » الحكومـة البريطانية الكتـاب الابيض فى رسالة بعثت بها الى حايم وايزمن بتاريخ ١٣ شبـاط ١٩٣١ ووصفها العرب « بالرسالـة السوداء » ••

لقد صـدرت هذه الرسالة تجاوبـا مع عاصفـة من نقد الكتاب الابيض أطلقتهـا المحافل الامبرياليـة البريطانية التـي كانت ترى فى توطيـد الوطن القومي اليهودى توطيـدا لمواقفها في العالم العربي وكانت تـرى في الكتاب الابيض مناورة انتهى مفعولها ودورها •• وروجت مواقفها في الصحافة البريطانية ونجحت في خلـق جو موافق لصدور تلك الرسالـة ••

وفي هذه المماحكـة الداخليـة لعب حايم وايزمن دوره •• فاستقال من رياسـة الوكالة اليهودية ليستنفر قـوى الصهيونية مع انـه لم يتوقف عن العمـل لحظة واحـدة وكان يتنقـل فى محافـل لندن السياسية متساوقا مـع كبار الامبرياليـين البريطانيين الذين مارسـوا ضغوطهـم عن طريـق نوابهم فـي البرلمان البريطاني •

ان الكتاب البريطانيـين ينفـون أن تكـون « الرسالـة السوداء » قد ألغـت الكتاب الابيض ويصـرون ، في أكثـر الحالات على انها غيرت لهجة الكتاب الابيض لا غير (تقرير بشـأن فلسطين أعدتـه الحكومة البريطانية ١٩٤٥ للجنة التحقيـق

الانجلـــو ـ أمريكية ص ٢٩) ٠٠

ولكـــن الواقـــع يختلف تماما عن هذا الزعـم ٠٠ فالرسالة فعـــلا ألغت مفعول الكتاب الابيض وخاصـــة في أهـــم قضية فيه قضيـــة تطويـــر الحكـم الدستـــوري وتقليص الحكـــم الامبريالي المباشر ٠٠

ثم ان « الرسالـــة السوداء » أعلنـــت عن وجود أراضـي للاستيطان الصهيوني ٠٠ ووافقت على استمرار سيـــل هجـــرة العمال اليهود للعمـــل في منشآت رأس المال اليهـودي (المصدر ذاتـــه ص ٢٩) ٠

واستنفـــرت هذه التطـــورات تشديـــد عداء الشعـــب العربي الفلسطينى لمبادىء الانتـــداب والحكم البريطاني الـــذى وقف ســـدا عنيفا أمام طمـــوح الاهالي نحو الاستقـــلال ٠٠

التحول فى الحركة القومية العربيـــة

ولـــم تستنفـــر هذه التطورات مجرد عـــداء الشعب العربى الفلسطينى بـــل استنفـــرت تمايزا واضحـــا في القوى السياسية العاملـــة على المسرح السياسى العربى ٠٠

وكان من الممكـــن رؤية تيارين بعد ١٩٣١ ٠٠ تيار يغلـب الطابـــع الاسلامي على الحركـــة القوميـــة العربية ويضفي على الصراع لونا دينيا بحيث يصبح الصراع القومى صراعا دينيا ٠٠

وتيـــار يتخلص من النظرة الدينيـــة أولا ٠٠ ويتجـــاوز النظرة الجانبيـــة التي رأت الصراع صراعـــا بين اليهود والعرب ثانيا ٠٠ وتتضح رؤياه ثالثا فيـــرى المعركـــة الجوهريـــة بين الحركة القوميـــة العربيـــة والامبريالية البريطانية التي تسخـر

الصهيونية لمقاصدهـــا ..

واذا كان المؤتمر الاسلامى العام الذى عقـــد فى القـــدس في ٧ كانون الاول ١٩٣١ قد مثـــل التيار الاول .. فمؤتمـــر الشباب العربى الفلسطيني الاول الذي عقد فى ٤ كانـــون الثاني ١٩٣٢ مثـــل التيار الثاني ..

وظهـــر الفرق فى التيارين في بناء كـــل من المؤتمرين .. فالمؤتمر الاسلامي العام جمـــع ممثلين من أكثـــر من ٢٠ قطـــرا كانوا فى كثير من الحـــالات رجال دين أو دنيا لا ينتسبـــون الى حركات عامـــة .. أو يمثلون حركات مغرقـــة في الرجعية مثل أولئك الذين زعموا انهم يمثلون روسيا الاسيوية !! في حين تألف مؤتمر الشباب العربي من أبناء فلسطيـــن وصـــدر عن مفاهيـــم قوميـــة عربيـــة .

كذلـــك ظهر طابـــع المؤتمر من قراراته التي تركـــزت على « تنميـــة التعاون بين المسلمين » !! و « حمايـــة المصالـــح الاسلامية وصيانة المقدسات » ! و « انشاء جامعات تعمـــل عـــلى توحيد الثقافة الاسلاميـــة » وبذلـــك تجاهـــل اليقظة القوميـــة العربية في فلسطين او حـــاول اخضاعهـــا لفكـــرة الجامعـــة الاسلامية الرجعيـــة ..

وكان من المفارقات فعـــلا أن يعقد المؤتمـــر في وقت نمـــو الحركة القوميـــة العربيـــة في فلسطين والعالم العربي فـــلا يتعرض بالتحديـــد لقضايا النضـــال الاستقلالي ويكتفى باعلان المؤتمر استنكاره لاي نوع من أنـــواع الاستعمار بما فيه الاستعمار الروسي !!! في بلاد تركستان ..

لقـــد اهتم المؤتمـــر « بمقاومـــة الالحاد » ودعا الى صـــد

الغـــارة على الدين ·· ولم يرفع نـــداء الجماهير العربية فـــي فلسطين من أجل الاستقلال ··

ولذلك لم يكن من قبيـــل المصادفـــة أن تذهب قراراتـــه العمليـــة من مثـــل : اقامـــة الجامعة الاسلامية فى القـــدس واقامـــة شركة لانقاذ الاراضي العربيـــة فى فلسطين ·· وتأسيس شركة زراعية كبـــرى يشترك فيها العالـــم الاسلامي أدراج الرياح ولا يبقى أثر للمؤتمر ذاتـــه (١) ··

ولعـــل العناصر العربية الواعيـــة نسبيا أدركت ضيـــق أفق هذا المؤتمر أو لعلها اندفعت بدافـــع اليقظة القوميـــة حـــين تنادت بعد اشتراكها في المؤتمر الاسلامي لتعقـــد مؤتمرا لها فـــي القدس قررت فيه الدعـــوة الى مؤتمر عربى حقيقي وقررت سيادة العامـــل القومي العربي في قرار اتخذته واعلنت فيه « ان البـــلاد العربية وحـــدة تامـــة الاجزاء وكل ما طرأ عليها من أنواع التجزئة فالامة العربيـــة لا تقـــره ولا تعترف به ويجـــب توجيه الجهود في كل قطر من الاقطار العربيـــة الى وجهة واحدة هي استقلالهـــا التام ومقاومـــة الاستعمار » ·

ولم يكـــن مؤتمر الشباب العربي الفلسطينى هو مظهـــر التحـــول الوحيد في وجهة الحركة القوميـــة العربيـــة ·· فالمناخ السياسى فى فلسطين بدأ يتغيـــر في أعقاب ١٩٣١ نتيجة عوامـــل موضوعيـــة وذاتية ··

أما العوامـــل الموضوعية لذلك فكانت في ثلاثة ميادين ··

* فى نمـــو البرجوازية العربية الفلسطينية البطىء جـــدا واكتشافها ان الطريـــق مســـدود أمامها بفضل الامبرياليـــة

١ـ استعرض عيسى السفري في كتابه هذا المؤتمر ص ١٧٨

والصهيونية الاقدر على الحركة ٠٠ وقد حاولت البرجوازية العربية التحرك فأقامت البنك العربي فى عام ١٩٣٠ وبدأت تعد لاقامة بنك زراعى صناعى ٠٠

* فى استمرار عملية اجلاء الفلاحين العرب عن الاراضي التي باعها الاقطاعيون للهيئات الصهيونية ٠٠ ففي هذه الفترة تم اجلاء عرب وادي الحوارث وقدرت مساحة الاراضي التى كانوا يعملون فيها ب ٤٠ الف دونم مما عكس الازمة الزراعية وآكد مخاوف الفلاحين من الاستيطان الصهيوني ٠٠ وظهرت خطورة ذلك من تقرير سمبسون الذى جاء فيه أيضا ان عدد الفلاحين الذين بلا أرض يبلغ ٨٦ر٩٨٠ عائلة ريفية تمثل ٢٩ر٤٪ من العائلات العربية التى تعتمد على الزراعة ٠٠ (حول الحركة العربية الحديثة الجزء الثالث محمد عزة دروزة ص ٩٤ والملحق ص ٢٩٢)

* فى نمو الطبقة العاملة العربية تنظيميا ٠٠ ففي عام ١٩٣٠ عقد مؤتمر العمال العرب الاول وقد بادرت اليه جمعية العمال العربية الفلسطينية التى قامت في حيفا عام ١٩٢٥ ٠٠ لقد تماثل هذا المؤتمر مع حركة التحرر القومي العربية وساعدها على تأكيد الطابع المعادي للامبريالية ٠٠

ومن البديهي أن هذه العوامل الموضوعية حركت قوى وطنية أولا ، وساعدتها على الرؤيا الصحيحة ثانيا ٠٠ فبدأت تتنظم ثالثا ٠٠ وبذلك غيرت وجهة الحركة القومية العربية وأضعفت الطابع الديني الذى حاولت بعض القوى اضفاءه على مجموعة الحركة القومية العربية ٠٠

وهكذا كان في وسع أمين سعيد صاحب « الثورة العربية

الكبـــرى » أن يكتب فى مطلـــع وصفه هبة ١٩٣٣ ما يأتي :

« ورأى مفكرو العرب أن يكون النضال في المرحلة الجديدة موجها ضد الانجليز باعتبارهـــم المسؤولين عن السياســـة التي ترمي الى محوهم وابادتهـــم وباعتبارهم حماتها ومنفذيها » ..

الفصل الثاني عشر

هبة سنة ١٩٣٣

لقد لاحظنا أن نمـو البرجوازية العربية الفلسطينية الـى حد ما ، واستمـرار عمليـة اجلاء الفلاحين العرب عن الاراضـي التى باعها الاقطاعيـون للهيئات الصهيونية ، ونمو الطبقة العاملة العربية تنظيميا ـ كانت من العوامـل التي غيرت المناخ السياسي وساعدت على تحول وجهـة الحركة القومية العربيـة الـى طريـق مكافحـة الامبريالية البريطانية بدلا من الانحراف عن هذا النضال الى الاحتراب العنصري ..

وساعـد تراكـم اجراءات الادارة البريطانيـة تأييـدا لمشروع الوطن القومي اليهـودي ونموه كميا عـلى ايقاظ اعـداد كبيرة من القوميين على حقيقـة السياسة البريطانية في فلسطين.. فهـذه الادارة هي التى كانت تحـول دون قيام حكومـة فلسطينية مستقلـة .. وهي التى كانت تفتح أبـواب البـلاد أمام الهجـرة اليهودية المتدفقـة .. وجنودها وأفراد شرطتهـا هم الذين كانوا يجلـون الفلاحين عـن أراضيهـم ويهاجمـون المتظاهرين المناديـن بالاستقـلال .

وأسهـم التمايز فى الحركـة القومية في هذا التطور .

وتعمـق هذا التمايز فى هذه الفترة بالـذات حين مالـت

العناصر الاقطاعية الى التعاون تعاونا أوثق مع الامبريالية البريطانية نتيجة طبيعتها الطبقية وازدياد الصراعات الاجتماعية في البلاد ٠٠ مما دفعها الى التفتيش عن طريق لصيانة مواقعها فوجدته بالامبريالية

وقد اتسعت هذه الصراعات وامتدت الى المدن والريف ٠ وفي حين اتخذت في الريف شكل نضال فلاحي ضد الاجلاء ٠٠ اتخذت في المدن شكل اضرابات نقابية ٠

ففي هذه الفترة ـ في ١٩٣٣ ـ أجلت السلطات فلاحي عرب الحوارث بالقوة عن الواحد والاربعين ألف دونم من مرج بن عامر ، التي باعها الاقطاعيون من آل التيان اللبنانيين في عام ١٩٢٩ للمنظمات الصهيونية . وبذلك شردت ١٥٠٠ مزارع بعد أن أدت المعركة التي دارت بين الشرطة البريطانية والفلاحين الى سقوط عدد من القتلى ٠٠ (القضية الفلسطينية ، يوسف هيكل ، ص ١٤٦)

وهكذا اشتد النزاع على الاراضي نتيجة بيع الاقطاعيين العرب أراضيهم ، وظهرت قضية المزارعين المشردين بالحاح جعل وزير الدولة البريطاني يعلن في مجلس العموم ، في ١٤ تموز ١٩٣٣ ، عزم حكومته على تمويل توطين المزارعين المشردين بقرض ينفق منه على تطوير الاراضي أيضا ٠ (تقرير الادارة البريطانية ص ٣١)

واستمرت حوادث العنف في الريف وكان من أبرزها حادثة اجلاء عرب الزبيدات عن أراضيهم في الحارثية (بالقرب من حيفا) بعد أن باعها أصحابها الى المنظمات الصهيونية ٠٠ وفي هذه الحادثة استخدم البوليس العنف ، وقتل مزارع

أثناء اطلاق البوليس النار على المزارعين ·· (فلسطين العربية بين الانتداب والصهيونية ـ عيسى السفري ـ ص ٢٣٨) ·

وأما في المدن فقد وقع ٤٦ اضرابا اشترك فيها ٤٠٠٠ عامل عربى بين سنوات ١٩٣٠ و ١٩٣٥ ·

قد لا تبدو هذه الموجة العمالية النضالية كبيرة الاهمية بالقياس الى اليوم ، ولكنه في ظروف فلسطين انذاك كانت حركة الاضرابات هذه أمرا كبيرا ··

واتساع حركة الاضراب في القطاع العربي نسفت مزاعم الصهيونية حول خنوع العمال العرب وعدم قدرتهم النضالية ·· بالمقارنة مع العمال اليهود ·

فقد بلغ عدد الاضرابات في القطاع اليهودي بين سنوات ١٩٢٣ و ١٩٣٥ ٥٥ اضرابا اشترك فيها ١٣٢٣ عاملا · (حركة العمال فى اسرائيل ـ ولتر بريوس ـ ص ١١٨)

وفى الوقت ذاته شهدت هذه الفترة تعاونا عربيا ـ يوديا في ميدان النضال الاجتماعي ·· ففي عام ١٩٣١ أضرب ٣٠٠٠ سائق عربي ويهودى لمدة أسبوع احتجاجا على رفض الحكومة تخفيض ضريبة الوقود والرسوم · (المصدر ذاته) ·

وفى هذه الظروف انعكس التمايز في الحركة القومية فى تعاون الاقطاعيين العرب مع السلطة ·· وفى التنظيم الحزبى ·

ولاحظ محمد عزت دروزه في كتابه حول الحركة العربية الحديثة هذا الامر بطريقته الذاتية فكتب عند تحديده سياسة المندوب السامي البريطانى ارثر واكهوب (بدأ عهده فى تشرين الاول عام ١٩٣١) :

« وقد توسع (واكهوب ـ أ٠ت) في خطة تعيين أبناء الاسر

المعروفة من مجلسيه ومعارضة ٠٠ وكان محسوسا أن هذه التعيينات جاءت نتيجة لالتماس زعماء هذه الاسر ٠٠٠ على اعتبار ان الموظفين بمثابة رهائن تجعل الاباء والاسر مضطرين الى الرضا والحمد » ٠٠٠ (الجزء الثالث ص ٨٧) ٠

وأضاف في شرح ظهور الاحزاب (بعد أن ذكر سقوط مزارعي وادي الحوارث برصاص الجند الانكليز) : « فصار من الواجب اللازم توجيه الكفاح نحوهم (الانكليز) ، انهم بيدهم وحدهم التعديل والنقض والابرام وقد كانوا أصل البلاء وظلوا كذلك » ٠٠ (ص ٩٧) ٠

والواقع ان الحركة القومية العربية لم تعد تستطيع الاكتفاء بتنظيمها الفضفاض حول اللجنة التنفيذية (خصوصا بعد وفاة رئيسها موسى كاظم الحسيني) وذلك بسبب الصراعات الاجتماعية وانعكاسها على القوى القيادية في الحركة القومية أولا ٠٠ وبسبب احتدام الازمة السياسية في البلاد نتيجة ضغوط الهجرة اليهودية المتزايدة في أعقاب انتصار النازية في ألمانيا ثانيا ٠ وتدل الاحصاءات على أن عدد المهاجرين بين ١٩٣٠ و ١٩٣٥ بلغ حوالي ١٨٠ الف مهاجر ٠ (١) ٠

وهكذا تألف أول ما تألف حزب الاستقلال في شهر آب ١٩٣٢ من العناصر التى انتمت الى الحركة القومية العربية العامة ــ جمعية العربية الفتاة ــ واعتقدت ان الحركة القومية

---

١ ــ تجدر الملاحظه ان احصاءات الحكومه تذكر الاحصاءات على الوجه التالي : ١٩٣٠ــ١٩١٤ ، ١٩٣١ــ٤٠٧٥ ، ١٩٣٢ــ٩٥٥٣ ، ١٩٣٣ــ٣٠٫٣٢٧ ، ١٩٣٤ــ٤٢٫٣٥٩ و ١٩٣٥ــ١١٫٨٥٤ في حين الاحصاءات الصهيونية هي كالاتي حسب السنين اعلاه : ٤٫٩٤٤ ، ٤٫٠٧٥ ، ١٥٫٥٥٣ ، ٣٨٫٦٥٦ ، ٤٩٫٣٣٥٩ و ٦٥٫٦٣٧ ٠
وأغلب الظن ان الاحصاءات الاخيرة تشمل المهاجرين غير الشرعيين ٠

ضعفت ووهنت ، « فبعد أن كانت » القضية ـ كما جاء في بيان تلك العناصر الصادر في تموز ١٩٣٢ ـ « قضية استقلال تحمل خواص القضية العربية الكبرى وتكافح الاستعمار وجها لوجه أصبحت قضية محلية تتأثر بالنزاعات الشخصية والاهواء العائلية » ٠

وهاجم البيان موقف بعض القياديين في الحركة القومية الذين اتخذوا موقف العجز والمسكنة وحصروا نشاطهم « بمقاومة القضية المصطنعة التي نكبنا بها (الاستعمار) ليلهينا عن أغراضنا المقدسة العليا » ٠٠ وأعلن ان المبادرين الى اقامة الحزب اعتقدوا انه آن الاوان للقيام « بحركة وطنية خالصة على يد حزب سياسى استقلالي يكافح الاستعمار وما جره من نكبات » ٠٠ ويبتعد عن السياسات المحلية والشخصية والعائلية ٠٠

ومع انه من الصعب توزيع القوى الاجتماعية الموجودة في فلسطين آنذاك على الاحزاب العربية التي قامت في سنوات الثلاثين ، الا انه من الممكن القول أن حزب الاستقلال الذي تألف من مثقفين وأبناء اقطاعيين متنورين ، وبرجوازيين ، كان أقرب الاحزاب الى الاعراب عن مطامح الحركة القومية العربية التى تقودها البرجوازية وتعكس الى حد ما أماني فئات واسعة من الجماهير ٠٠

وفي اجتماعاته الشعبية وبياناته كان حزب الاستقلال يندد بالنير البريطاني ويتوقف عند نتائج الحكم البريطاني ويعالج القضايا المختلفة التى تواجه الشعب ٠

وفي بيانه في ذكرى وعد بلفور (٢ـ١١ـ١٩٣٣) عالج ،

بعد مقدمـــة استعرض فيها الحركة العربيـــة والثـورة واحتلال بريطانيا فلسطين لمدة ١٤ سنة ، الموازنة التي لا تتحملهـا البـــلاد « فالموظفون الانجليز والغرباء اليهود يبتلعـــون الجزء الاكبر منها وثلثها ينفـــق على الحـــراب التي تحمـــي المشروع الصهيوني » ، وشجـــب الحكومة التي لا تحمي المزارعين العرب رغـــم تواصي لجان التحقيـــق ولا تضع تشريعا يمنـــع انتقال أراضيهم الـــى الصهيونيين ٠٠ ولاحظ أن البطالـــة ضاربـــة أطنابها في البـلاد التي ترهـــق بالضرائب ــ وهي ضعـــف مثيلاتها في البـــلاد العربية المجاورة ٠ وذكـــر ان الضرائب على المواد الغذائيـــة أدت الى ارتفـــاع الاسعار وان أزمـــة التعليم شديـــدة تظهر في أن أكثر من ٧٠ بالمئة من الاولاد خارج المدارس وأن قانون المطبوعـات يكم الافـــواه ٠٠

وفي النهايـــة أبرز البيان أن بعض الناس يتطوعـــون في خدمـــة الاستعمار ودعا الشعب الى تشديـــد معركتـــه ضـــد الاستعمار وأساليبه والصهيونية وغزوتها وضـــد الخونة ٠٠

ورفـــع الحزب المطالب الثلاثة التي تحولت الى شعـــارات شعبيـــة : وقف بيـــع الاراضي ، وقف الهجرة وتسليـــم أبناء البلاد الحكـــم ، وتحقيق استقـــلال فلسطين « متحدة مع البلاد العربيـــة الاخـــرى » ٠٠

وظهـــر أن حزب الاستقـــلال ، الذى نشط حوالي السنة ونصف السنة فعقـــد الاجتماعات الشعبية وأصـــدر البيانات ، نجح فكريا بدون أن يحقق انجازات تنظيمية ٠٠

أما نجاحه الفكـــري فكان في تبني سائر الاحـــزاب التـــي أعقبتـــه خطه السياسي ــ علنا على الاقـــل ــ ٠٠

أما فشلـــه التنظيمي فقد اتضـــح حين اضطر الى تصفيـة نشاطـــه بعد سنة ونصف السنة تقريبا (من تموز ١٩٣٢ الـــى كانون الاول ١٩٣٣) بسبب مقاومـــــة الانتداب له وقلـــة المـال وصفات العضويـــة الشديدة (حول الحركـــة العربية الحديثـــة الجزء الثالث محمد عزة دروزة ص ١٠٣ ـ ١٠٤) ..

وقـــد بقي الحزب في الميـــدان شكليـا وكان يتمثل دائما في الهيئات القومية المحلية والقطريـــة ..

ولكن تقلص نشاط حـــزب الاستقلال لم يقلص نشـــاط الحركة القوميـــة الشعبيـــة فالعوامل السياسية والاقتصاديـــة التي أشار اليها حزب الاستقلال في بياناته كانت تستنفر نشاطا ثوريـــا ..

وفعلا انفجـــر هذا النشاط بهبـــة عام ١٩٣٣ المعاديـــة للامبريالية البريطانية ..

وتقرر المصادر البريطانية أن بدايـــة الوثبـــة كانت فـي اذار ١٩٣٣ حين أصـــدرت اللجنة التنفيذية بيانا حذرت فيـــه من خطـــر الهجرة الصهيونية المتدفقـــة وانتقال الاراضي الـــى المؤسسات الصهيونية ..

ثم جاء مؤتمر ٢٦ اذار ١٩٣٣ الذى اشترك فيه ممثلون عـن مختلف فئات الشعب من المـــدن والقـــرى وقرر عـــدم التعاون مع السلطات البريطانية ومقاطعـــة الهيئات الحكومية المشتركـــة والبضائـــع البريطانية والصهيونية .. ومما استنفـــر الـــرأي العام العربي في فلسطين ودفـــع الجماهير الى تشديـــد الكفـاح مجريات المؤتمر الصهيوني العالمي الـــذي عقد في براغ فـــي آب ١٩٣٣ ، ودعا الى بنـــاء الوطن القومي اليهـــودي في فلسطـين

بأسرع ما يمكن ..

وهكذا كانت تتراكم عوامل الهبة التي انفجرت بعنف بعد شهرين ..

ومرة أخرى قادت اللجنة التنفيذية المعركة ووجهتها ببيان أصدرته بعد اجتماعها في تشرين الاول سنة ١٩٣٣ وأعلنت فيه دعوتها الجماهير الى :

« اعلان سخط الامة العربية في فلسطين التي بليب بالاستعمار البريطاني على عبث الحكومة البريطانية بحقوق أصحاب البلاد وتحديها عواطفهم الوطنية .. واستهتارها بكيانهم الوطني ومصالحهم الاقتصادية والاجتماعية بفتحها أبواب البلاد للهجرة الصهيونية وتسهيلها انتقال أراضي العرب الى أيدي اليهود واستبدادها بالحكم المباشر » ..

ودعت اللجنة التنفيذية الشعب الى اعلان سخطه بالمظاهرات .

واجتاحت البلاد موجة من المظاهرات الشعبية التي امتازت بالثورية وتحدي قوى القمع الاستعمارية .. فقد جرت هذه المظاهرات على الرغم من الحظر الحكومي واصطدمت في كل مرة بقوات الامن الانتدابية ودفعت ثمن ذلك ضحايا عزيزة ..

وكانت المظاهرات التي جرت في ١٣ تشرين الاول في القدس ويافا .. والمظاهرات التى جرت بعد ذلك في حيفا ونابلس وسائر المدن تعبيرا مجسدا عن نضالية الجماهير ووعيها .. وذكر الكتاب الذين أرخوا هذه الهبة أن النساء اشتركت في النضال على نطاق واسع وان وفودا من سوريا

وشرق الاردن اشتركت في مظاهــرة يافا بتاريخ ١٣ تشريــن الاول ١٩٣٣

وفي هــذه المظاهــرة استخدم البوليس النار ممــا أدى الى سقوط عدد من القتــلى في ساحة البوابة التي أطلقت عليهــا الجماهيــر فيما بعد اسم « ساحة الشهــداء » ·· (فلسطين العربية بين الانتداب والصهيونية عيسى السفري ص ٢١١)

وحسب تقريــر الحكومة البريطانية امتــدت هذه الهبــه ستة أسابيع ووصلت موجتها الى المدن الرئيسية كلهــا ··

وخــلال المصادمــات مع قوات الامن البريطانية سقط ٢٤ شهيــدا وجرح ٢٠٤ مواطنين عــرب ·· وكالعادة أقامت الحكومة لجنة تحقيــق لدراسة أسباب « الاضطرابات » ·· ، برئاســة وليم ميورسون فقدم تقريره في شباط ١٩٣٤ ·

وأبــرز ميورسون في تقريــره ان الفرق الكبير بين هذه الهبة « واضطرابات » ١٩٢٠ و ١٩٢٩ ان العرب لاول مرة يهاجمون الحكومــة ويتهمونها بالتحيــز للصهيونيين ·

واذا كان اشتراك النساء في الهبة الثوريــة قد دل عــلى عمق التحسس الشعبي بقضيــة الحريــة وتحريكها مختلــف فئات الجماهير فقد دل اشتــراك وفود من القطرين العربيــين المجاوريــن على فعاليــة فكرة الوحــدة العربية والتضامــن العربي على الرغــم من التمزيــق الاقليمي الذي فرضته الامبريالية على العالــم العربي ·

وانعكست هــذه الفعاليــة حين تأسست سائر الاحــزاب بعد هذه الهبة فالحزب العربي الفلسطيني الــذي تأسس في ٢٤ نيسان ١٩٣٥ وضــع بندا سجل فيه الدعــوة ، بعد استقــلال

فلسطين ، الى « ارتباط فلسطين بالاقطار العربيـــة في وحـــدة قومية سياسية مستقلة استقلالا تاماً » ..

وحزب الاصلاح الذى تأسس في ١٨ حزيران ١٩٣٥ جعـــل من غاياتـــه « استقـــلال فلسطين ضمن الوحـــدة العربية واعتبار قضية فلسطين جزء من القضية العربية الكبرى » .

وحزب الكتلـــة الوطنيـــة سجل في برنامجه « السعي الى استقـــلال فلسطين التـــام والمحافظـــة على عروبتهـــا ضمـــن الوحدة العربية » .

ووجـــود ما يشبه الاجمـــاع على قضية الوحـــدة العربية يوحي بأن القيادة القوميـــة على الرغم من اعترافها عمليا بضـــرورة العمـــل على الصعيد الاقليمي في فلسطين ، بدليل دعوتها الـــى استقـــلال فلسطين ، كانت لا تزال تنطلـــق من الوعي بوحـــدة سوريا الطبيعية وترى فلسطين جزءا من سوريا : سوريا الجنوبية كما كان يطلـــق عليها قبل الاحتلال البريطانى .

وعمقـــت هبة ١٩٣٣ التمايـــز في الحركـــة القوميـــة العربية وتبلور تنظيميا أكثـــر من أي وقت مضى

فبعـــد هذه الهبة تأسس حزب الدفـــاع الوطني برئاسة راغب النشاشيبي ، زعيم احـــدى العائلتين الاقطاعيتين الكبيرتـــين في البلاد (الثانية هي عائلة الحسيني) وانتهج سياسة المهادنـــة مـــع الامبريالية البريطانية ..

ولا يغير من هذا انـــه وضع في بدايـــة غاياته « السعي لاستقـــلال فلسطين استقلالا يكفـــل السيادة العربية » و « عدم الاعتراف بأيـــة تعهدات دوليـــة تؤدي الى أية سيطـــرة أجنبية أو نفوذ سياسي أو وضـــع سياسي او اداري يمس ذلك الاستقلال » ..

ولم تختلف قيادة الحزب العربي الفلسطيني برئاسة جمال الحسيني من حيث انتسابها الطبقي عن حزب الدفاع الوطني .. فعائلة الحسيني عائلة اقطاعية عريقة لم يستنكف بعض افرادها عن التعاون مع الانتداب البريطاني ... انما الفرق بين الحزبين يكمن في أن جماهير الفلاحين سارت وراء قيادة الحزب العربي فكان هذا الحزب يمثل ارادتهم الوطنية الى حد ما .. ويعود هذا الى أن هذا الحزب قادته عائلة الحسيني ومفتي القدس (فلسطين) الحاج أمين الحسيني الذي استخدم ، بوصفه رئيس المجلس الاسلامي الاعلى ، جهاز المجلس لنشر نفوذه بين الفلاحين تحت شعارات تمزج بين الدين والقومية ..

وقد رأينا كيف بادر المفتي في عام ١٩٣١ الى عقد المؤتمر الاسلامي « العالمي » .. ونستطيع أن نذكر هنا انه عقد في ٢٥ كانون الثانى ١٩٣٥ فى القدس مؤتمرا اسلاميا محليا حضره « أربعماية من القضاة ورجال الافتاء وأئمة المساجد والوعاظ والمدرسين والخطباء من سائر أنحاء فلسطين » .

وقرر المؤتمر اصدار فتاوى دينية بتحريم بيع أي شبر من آراضي فلسطين لليهود واعتبار الباعة مارقين من الدين .. كما قرر المطالبة بوقف الهجرة ومنع بيوع الاراضي ... وتمكين الراغبين في وقف أراضيهم الاميرية ، وقفا ذريا أو خيريا ، من ذلك .. ثم طالب بتسهيل هجرة العرب الراغبين في دخول فلسطين .. وناشد المؤتمر ملوك المسلمين والعرب مساعدة أهل فلسطين !!

كذلك قرر المؤتمر مساعدة المشاريع الاقتصادية

وتأسيس الشركات الوطنيـــة •• وحض الاهالي على شراء المنتجات الوطنيـــة ٠

وانعكست الصلـــة بين هذا المؤتمر والفلاحين بدعوة المؤتمر الحكومـــة لسن قانون يشبه قانون الخمسة أفدنـــة في مصـــر (مع أنه كان مجـــرد قانون أ٠ت) لحماية صغار المزارعين مـــن جشـــع كبار الملاكين والاغنياء •• (عيسى السفري ٢٢٨ـ٢٢٩) ٠

وانتهـــى المؤتمر تنظيميا بقرار يدعـــد الى تأليف جمعيـــة باسم « جمعية الامـــر بالمعروف والنهي عن المنكـــر » وهي جمعية أرادت أن تأخـــذ مكان اللجنة التنفيذيـــة وتسيطـــر على الحركة القوميـــة ••

ومرجـــع هذه الفكرة الى جمعيـــة كهذه نشأت في المملكة السعودية في عهـــد الدعوة الوهابية واشتهـرت بالصرامـــة الدينية والرجعيـــة الفكريـــة ••

ومـــع أن هذه الجمعية نشطـــت وأقامت ١٥ فرعا فـــي مختلف أنحـــاء البلاد ، الا انها لم تنجـــح فى احتـــلال مكـان التنظيمات السياسية •• فقد أحبطهـــا بناؤها الديني في قطـــر كان يؤكـــد كفاحه الطابـــع القومي العربي ويجمـــع تحت لواء الحركة القومية أبناء الشعب العربى من مسلمين ومسيحيين ٠

وكانت هذه الدعـــوة الى الملوك المسلمين والعـــرب أحـــد مظاهر الانحرافات الرجعيـــة التى تميزت بها قيادة الحركـــة القومية العربية التقليديـــة في فلسطين •• فهـــؤلاء كانوا فـــي ذلك الوقت يوالـــون الامبريالية ويتعاونـــون معها ولا يخرجـون كثيـــرا عن ارادتهـــا ••

وجســـم تصريح الشيخ حافظ وهبة سفيـــر السعوديـــة

في لندن لرويتر في ٢ أيلـــول ١٩٢٩ هذه الحقيقـــة اذ قال :

« ان ابن سعود وشعبـــه يعترفان بأن فلسطين أرض مقدسة عند ثلاث ديانات كبيرة ٠٠ ويرغـــب الملك من صميـــم فؤاده أن يعيش المسلمون واليهود والمسيحيون فيها بالاتفـــاق والوئام ٠٠ ان ابن سعود صديـــق لبريطانيا العظمى ومن المؤكـــد انه لا يحاول أن يوجد لها مشكـــلات جديـــدة في فلسطين أو غيرهـــا او أن يوســـع شقة المشكـــلات الحالية ٠٠ ويعتقد الملك أن بريطانيـــا تقبض بيدها على قسطاس العـــدل بين اليهود والعـــرب » ٠٠ (أمين سعيد ـ الثورة العربية الكبرى الجزء الثالث ص ١٠٧) ٠

وظهـــر في هذه الفترة كذلك حزبان (أشرنا اليهما فـــي اطار الحديث عن فعاليـــة التضامـــن العربي) : حزب الاصـــلاح الذى تأسس في ١٨ حزيران ١٩٣٥ بقيـــادة الدكتور حســـين فخري الخالـــدي الذى تولى رئاسة بلدية القـــدس ٠٠٠ وحـــزب الكتلـــة الوطنيـــة بقيادة عبد اللطيف صلاح وقـــد اتخـــذ نابلس مركزا له وتأسس في ٤ تشرين الاول سنـــة ١٩٣٥ ٠٠

ولم يختلـــف برنامجا هذين الحزبين عن برامج سائـــر الاحزاب ٠٠ أما من حيث البناء الطبقي والتأييـــد الاجتماعي ففي الحالتين اتجـــه هذان الحزبان نحـــو المثقفين أبناء الفئات الوسطى ٠٠ على الرغـــم من أن عائلة الخالـــدي كانت تعتبر من العائلات الاقطاعية ذات النفوذ التقليـــدي ٠٠

وتجـــدر الملاحظـــة أن تأليف الاحزاب العربيـــة التقليدية ـ عدا حزب الاستقـــلال ـ أعقب الانتخابات البلديـــة التي جرت في منتصف عام ١٩٣٤ وكانت باعثـــا لمهاتـــرات ومماحكـــات عرفتها قيادات الحركات القوميـــة التقليديـــة (التي كانت فـــي

بلاد أخـــرى أيضا بقيـادة أبناء الفئات العليـــا من متنـــوري الاقطاعيـــة وأسياد الارض والتجار وأبناء الفئات الوسطى) ٠

بـــل ان حزب الاصـــلاح اعتمد جوهريا على البلديــــات بعد أن نجح الدكتور حسين فخري الخالـــدي في الفـــوز برئاسة بلدية القـــدس في منافســـة مريـــرة مع الرئيس الاسبـــق راغب النشاشيبي ٠

وحيـــال كل هذه الاحزاب الطبقية القوميـــة كان هنـاك الحزب الشيوعى الفلسطيني الذى وحـــد بين صفوفه الشيوعيـين اليهود والعـــرب وحارب الامبريالية البريطانية والصهيونية بـــلا هـــوادة ٠٠ ولم يكن غريبا أن تكون قـــوة الحزب في القطـــاع اليهودي ٠٠ فالوعي الطبقي كـــان اشد بين العمال اليهـــود ٠٠ ثم ان عـــددا من اليساريين اليهود الذين جاءوا الى البـــلاد فـــي ظروف مختلفة ولدوافـــع متباينـــة اكتشفوا بسرعـــة حقيقـــة الصهيونية ووجدوا طريقهم الى صفوف الحزب الشيوعي الفلسطيني الذى دعا ، انطلاقـــا من مبادئه الثوريـــة الاممية ، الى النضال ضد الامبريالية والصهيونية وأيـــد النضال القومي العربي بقـدر انصبابه ضـــد الامبريالية البريطانية ودعا الجماهير اليهوديـــة الى تأييـــد هذا الكفاح باعتباره يعرب عن مصالحها الحقيقيـــة ٠٠ وسرعان ما احتدمـت الازمـــة بتشديـد الكفـاح القومي وشهد الحزب ظرفا أصعـب جـــدا ٠٠

ولقد قرر الحزب منـــذ مؤتمـــره الخامس الذى عقد فـــي تموز ١٩٢٣ انه يـــرى فى الحركة القوميـــة العربيـــة أحـــد العوامل الاساسية التى تقاوم الاستعمار البريطاني ولـــذا فهـــو يرى ان من الواجب القيـام بكل شيء من اجـــل مساندة هـــذه

الحركة بمـــدى مقاومتها للاستعمار »

كذلك قـــرر ان « الصهيونية تتجســـد فيها تطلعـــات البرجوازية اليهودية . وان من الناحيـــة السياسيـــة وقفـــت الصهيونية في جبهة واحـــدة مـــع الاستعمار البريطاني حيـــث ربطت مصيرها مع المحتلين الامبرياليين » (٥٠ سنة .. ص٣٩)

ومما جعـــل وضع الحزب الشيوعي أصعب تعاون القيـــادة الصهيونية مع السلطات البريطانية على مكافحـــة الحـــزب مـــن ناحية .. ومطاردة أعضاءه اليهود من ناحيـــة ثانية ـ وبشكل خاص كانت قيادة الهستدروت الصهيونية تلاحـــق أولئك الاعضـــاء الذين تصدوا لسياستها القومية الانعزاليـــة .. ومن ألـــوان الملاحقة محاكمـــة الشيوعيين اليهود الذين عارضـــوا في احتلال العمـــل وطـــرد العمال العرب من المشاغل اليهودية .. واحدى المحاكمات التى جرت في هذه الفترة محاكمـــة نيس تسيونـــا خلال اذار ـ نيسان ١٩٣٢ . انـــذاك كان « النائب العـــام » في المحاكمة بن غوريون .. ووقف الرفيـــق الشيوعي الذى دافـــع عن المتهمين موقفا أمميا ووصف طـــرد العمال لانهم عرب : « معركة سافلة وعمل اجرامي .. وهو نوع من الفاشيـــة » (٥٠ سنـــة للحزب الشيوعي فى البـــلاد ص ٤١)

وقـــد تعـــرض الحـــزب لهجـــوم أجهـــزة القمـــع الانتدابية ولم يتمتع بشيء من العلنية .. وكل ما نجح فيه في هذه الفترةاصدار صحيفة «اور» العبرية و «النور» العربية لفترة قصيرة..

الوطـــن القومي اليهـــودي

قلنا أن هـــذه الفترة شهـــدت نمـــو الوطن القومـــي اليهودي بازدياد وتيرة دخول المهاجريـــن اليهود فلسطين بضغط

صعود هتلر الى الحكم فى ألمانيا وانتهاجه سياسته النازية العنصرية الشريرة • فى ذلك الوقت ازداد ضغط الحركة الصهيونية على الادارة البريطانية لالغاء كافة القيود على الهجرة • ولخص المؤتمر الصهيونى الذى عقد فى لوزان في نهاية تموز وأوائل آب ١٩٣٥ موقف المنظمة الصهيونية اذ جاء فى قراره : « ان المؤتمر الصهيونى وهو يثمن جيدا الدور الذى تقوم به الدولة المنتدبة (بريطانيا) ويؤكد مجددا استعداد المنظمة الصهيونية للتعاون معها يناشد الحكومة القيام بمسؤولياتها بتنفيذ سياسة فعالة ومنتظمة لتنمية الوطن القومي اليهودي على نطاق ووتيرة يفرضهما وضع اليهود فى العالم ، الامر الممكن بمساعدة الحكومة الفعالة » (تقرير لجنة التحقيق الملكية لعام ١٩٣٧ ص ٨٩) •

وفعلا دخل البلاد بين ١٩٣٢ و ١٩٣٥ حوالي ١٥٠ الف مهاجر يهودي مما جعل عدد اليهود فى البلاد يتضاعف حوالي أربع مرات مما كان عليه فى نهاية الحرب العالمية الاولى ويصل فى عام ١٩٣٥ الى حوالي ٣٥٠ الفا • وفي عام ١٩٣٦ أصبح ٤٧٠ ألفا اسميا ، أو ٤٠٠ ألف اذا أخذنا بعين الاعتبار الهجرة غير المشروعة (التقرير ذاته ص ١١٣)

وبارتفاع عدد اليهود فى البلاد ارتفع عدد الدونمات التى أصبحت في حوزتهم وحوزة المنظمات الصهيونية من ٥٤٤ ألف دونم في عام ١٩٢٥ الى ١٫٣٣٢ ألف دونم في عام ١٩٣٦ ••• وأصبح عدد المستوطنات الزراعية ٢٠٣ يعمل ويعيش فيها ٩٧٫٠٠٠ انسان • (المصدر ذاته ص ١١٤)

وذكر ولتر بريوس في كتابه « حركة العمال في

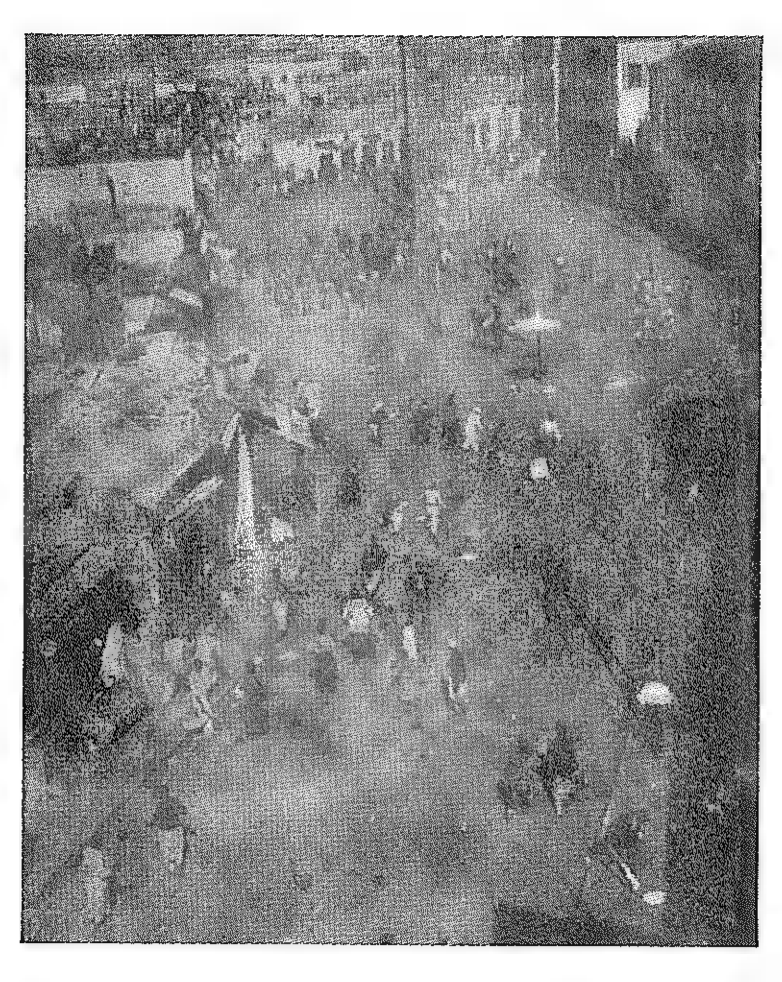
اسرائيل » ان عدد سكان الريف اليهود ارتفع بين ١٩٣٢ و ١٩٣٥ من ٥٠ ألفا الى ٩٠ ألفا وأن مساحات بيارات البرتقال ازدادت من ١٠٠ ألف دونم الى ١٥٠ الف دونم بين ١٩٣١ و ١٩٣٥ . واتسعت المدنوالمستوطنات اليهودية نتيجة حركة البناء الواسعة النطاق التي رافقت الهجرة الجماهيرية التي تدفقت باشتداد بربرية العنصرية النازية .

انذاك أسست الوكالة اليهودية مكاتب في برلين لتسهيل هجرة اليهود وتعاونت تعاونا وثيقا مع النازية لهذا الغرض .

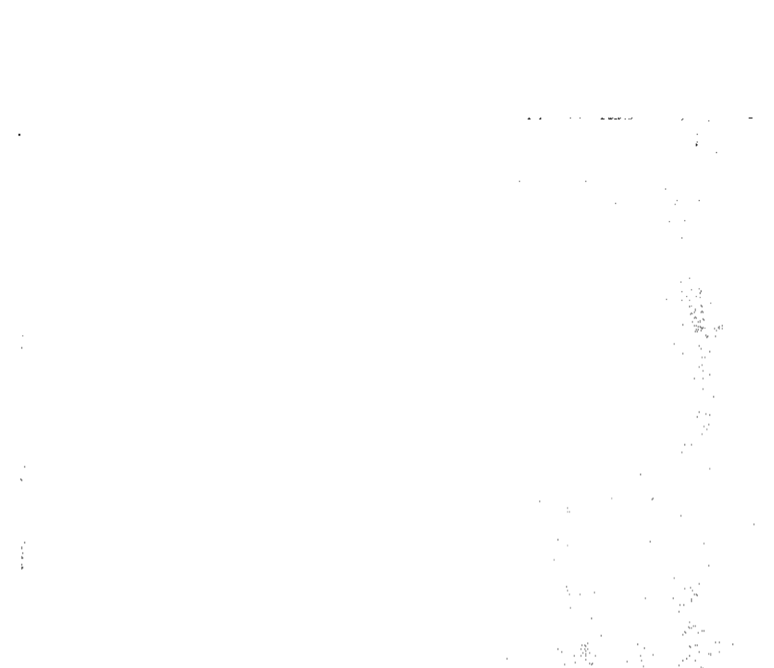
وتضاعفت الاموال المستثمرة في النشاط الاقتصادي المرافق لعملية بناء الوطن القومي اليهودي .. وبين ١٩١٨ و ١٩٣٦ استثمرت الصناديق القومية فى فلسطين ١٤ مليون جنيه (حوالي ٤٠ مليون دولار حسب التسعيرة فى ذلك الوقت) فى حين استثمرت الشركات الخاصة والاجنبية والمحلية ٦٣ مليون جنيه (حوالي ١٨٠ مليون دولار) دخل نصفها النشاط الصناعي والزراعي خلال السنوات الاربع الاخيرة .

وحسب تقرير لجنة التحقيق الملكية تأسست بين ١٩٢٠ و ١٩٣٥ ـ ٤ر١٥٧ منشأة منها ٢٤٦ر١ منشأة صناعية و ٩١١ر٢ منشأة صناعية يدوية .. وكذلك ارتفع عدد العمال اليهود ليصبح ٣٢ ألف عامل يعيلون ٨٠ ألف انسان .
(المصدر ذاته ص ٢١٠)

وفى هذه الفترة كانت القوات اليهودية المسلحة ، في المنظمة التي عرفت « بالهاجناه » ، قد وصلت حسب المعلومات التى أوردتها لجنة التحقيق الملكية ١٠ الاف محارب صف أول مع احتياطي (خط ثاني) يتألف من ٤٠ ألف محارب .



الشعب الاعزل الا من الايمان بالحرية والاستقلال في مظاهرة يافا ١٩٣٣
ويظهر في الصورة فلول رجال الشرطة وهي تنهزم من امامه



(المصدر ذاتـــه ص ٢٠٠) ٠

وكان من الطبيعي في مثـــل هذا الوضـــع أن ينعكس البناء الطبقي فى التنظيم الحزبى أولا فى النشاط السياسى ٠

وقد ظهر الصـــراع الطبقي فى عدد الاضرابات التى بلغـت بين ١٩٣٢ و ١٩٣٥ ــ ٥٥ اضرابا اشترك فيها ١٫٣٢٧ ٠٠ وفـي محاولات الاصلاحيين (حزب البرجوازيـــة اليميني بقيادة فلاديمير جابوتنسكي) تحطيـــم بعض هذه الاضرابات كما حصـــل فـي اضراب عمال البناء فى بتاح تكفا وشركـــة فرومين للبسكويـــت فى القـــدس فى فترة ١٩٣٢ ــ ١٩٣٣ (حركـــة العمال فـــي اسرائيل ، ولتر بريوس ، ص ١١٨) ٠

ولم يقتصـــر الصـــراع الطبقى على الميـــدان النقابي بـــل تعدالى الى الميـــدان السياسي ٠٠

لقد كانت أكثريـــة العمال العددية في المجتمـــع اليهودي فى فلسطين تنعكس فى تنظيمـــات السكان اليهود المحلية وفـي المؤتمرات الصهيونية ٠٠ وفي ١٩٣٣ و ١٩٣٥ استطاعت هيئـــات العمال ان تفـــوز بـــ ٧٠ بالمئة من الاصـــوات فى انتخابـــات تلك التنظيمات (المصدر ذاتـــه ص ١٢١) ٠ ولذلك لم يكـــن غريبا أن تحاول قـــوى اليمين (الاصلاحييـــن) ضرب التنظيم العمالي بأي شكل من الاشكـــال ٠

وقد كـــان أحـــد الاشكال اغتيـــال حايم ارلـــوزروف ، أبـــرز قائد عمال فى ذلك الوقت ورئيس الدائـــرة السياسيـة فى الوكالة اليهودية ، في ١٦ــ٢ــ١٩٣٣

وعـــلى الرغـــم من أن الاصلاحيين نفوا أن يكون لهـــم علاقة بالحادث فالتهمة ثبتـــت على منتسبين اليهـــم ٠٠ وحكـــم

على اثنين منهم بالسجن ٠

ولا جدال فى أن اغتيال أرلوزروف كان اغتيالا سياسيا ٠٠ فقد كان فى ذلك الوقت ـ حسب ما كتبه ولتر بريوس ـ ينتهج سياسة توافق مع سلطات الانتداب الامر الذى كان يغضب الاصلاحيين ٠ (كتابه ، حركة العمال في اسرائيل ، ص ١٢١) ٠

ولا بد من الملاحظة هنا أن الصراع بين الاصلاحيين ومنظمات العمال ، وأهمها حزب مباي ، كان صراعا بين خطين سياسيين بالاضافة الى كونه صراعا طبقيا ٠٠

ففي حين سارت منظمات العمال المختلفة والصهيونيين العموميين (حزب البرجوازية الاصيل) فى طريق التعاون مع الامبريالية البريطانية واكتفت بالدعوة الى الهجرة والاستيطان وتثبيت الوطن القومي اليهودى . كان الاصلاحيون يتجهون نحو التعاون مع دول أخرى وينادون باقامة الدولة اليهودية حالا الامر الذى أعتبره الجناح الاخر غير واقعي في الظروف انذاك ٠

وهناك ما يوحي بأن الاصلاحيين كانوا على اتصال مع ايطاليا الفاشستية التي كانت تعطف عليهم وتعتقد أن نجاحهم قد يفتح ثغرة أمام تسربها في المنطقة ٠٠ وفي هذا الصدد كتب مخائيل بار زوهر في كتابه « النبي المسلح » حياة بن غوريون: « حتى تنجح الصهيونية » قال موسوليني (زعيم ايطاليا الفاشستية ، أ٠ت٠) للراب براتو في عام ١٩٣٥ : « لا بد لكم من دولةيهودية بعلم يهودي ولغة يهودية والشخص الذي يفهم ذلك فاشيكم جابوتنسكي » (ص ٤٩) ٠

وعلى الرغم منأن الصراع الحاد بين مباي ، بشكل

خاص ، والاصلاحيين ، فقد حاول بن غوريون في عام ١٩٣٤ « بوحي « مصلحة الصهيونية العليا » ، أن يتافم مع جابوتنسكي فاجتمع الاثنان في تشرين الاول في لندن واتفقا على توحيد حزبيهما ، مباي والحزب الاصلاحي ٠٠ ولكن أعضاء الحزبين رفضوا هذا الاتفاق (المصدر ذاته ص ٥١ـ٥٢) ٠

وعلى الاثر تعمق الصراع الى حد دفع جابوتنسكي والاصلاحيين الى الانسحاب من المؤتمر الصهيوني في عام ١٩٣٥ ٠

وفي هذا المؤتمر انتخب بن غوريون رئيسا للجنة التنفيذية الصهيونية وللوكالة اليهودية ودخلت الحركة الصهيونية في فلسطين طريقا أعنف ازاء الشعب العربي الفلسطيني ٠

فبن غوريون « لا يحب العرب ٠٠ وكان يشير اليهم بالاعداء حين كان يذكرهم في يومياته (المصدر ذاته ص ٥٣) ٠

ونقول « طريق أعنف » لان هذه الفترة كما لاحظنا تميزت باجلاء الفلاحين عن أراضيهم ٠٠ وتشديد سياسة العمل العبري أو طرد العمال العرب من المنشآت والمزارع اليهودية ٠

وقد تعرض الشيوعيون اليهود كما لاحظنا الى ملاحقة المنظمات الصهيونية في هذه الفترة لدفاعهم عن حقوق العمال والفلاحين العرب ٠

ويستطيع المراقب أن يرى عنف كراهية قادة الصهيونية للشيوعيين بما كتبه بعض «المؤرخين» الصهيونيين ٠٠ وهكذا زيف أحدهم ، ولتر بريوس ، مواقف الشيوعيين فزعم أنهم حرضوا الفلاحين العرب ضد العمال اليهود (كذا) باعتبارهم الاعداء لا « الافندي » الذي يجبي فوائد

ربوية عالية وأيدوا الاقطاعيين العرب !! (كتابه حركة العمال فى اسرائيل ص ١٢٢) ٠

وفى هذه الاوضاع أصبحت قضية العمل العبري أو احتلال العمل احدى القضايا التي يثيرها العمال العرب ويحتجون عليها في مذكراتهم كما احتجت عليها جمعية العمال العرب في يافا (عيسى السفري ـ ص ٢٤٢) ٠

***

في كتاشه « النبي المسلح » حياة بن غوريون ، كتب مخائيل بار زوهر :

« من وجهة النظر البريطانية كان أقل من ٢٠٠ الف يهودى يساعدهم أبناء عنصرهم المنتشرون في العالم كله أحق بالاعتبار من ملايين العرب المنتشرين في الشرق الاوسط » ٠

وهذا صحيح ، فالامبريالية البريطانية حين منحت وعد بلفور أرادت أن تقيم وطنا قوميا يوطد مواقعها في الشرق العربي ويحمي قناة السويس شريان مواصلاتها الى امبراطوريتها في الهند ٠٠ واكتشفت أن تشديد الاحتراب اليهودي العربي أفضل سبيل يؤدي الى توطيد مواقعها ٠٠ ولذلك كان عليها أن تساعد على اقامة هذا الوطن القومي بحيث يكون التوازن ممكنا بين الطرفين ٠

وهذا الوضع أيقظ الحركة القومية العربية على خطورة السياسة الامبريالية البريطانية فكانت هبة ١٩٣٣ موجهة ضد الامبريالية البريطانية ٠

وجاءت التطورات التي أعقبت ١٩٣٣ تؤكد مسؤولية

الانتـــداب البريطاني عن حرمـــان الشعب العربي من حقوقـــه القوميـــة ...

ولذلك كان لا بـــد من الانتقال الى أساليب نضال أعنـــف.

وهكـــذا نشأت الظروف لثـــورة ١٩٣٦ .

الفصل الثالث عشر

ثورة ١٩٣٦

تراكمت الاحداث فى سنوات الثلاثين حتى خلقت وضعا خطيرا على الصعيد الدولي أصبح يؤثر على مجريات الامور في كل مكان في العالم ..

فصعود النازية الى الحكم في ألمانيا وما واكبه من لاسامية عنيفة وعسكرة عدوانية ، أعقبه عدوان ايطاليا الفاشية الغادر على أثيوبيا واحتلالها في عام ١٩٣٥ ، وكان مقدمة الحرب الاهلية التى أشعلها النازيون والفاشيون في اسبانيا الجمهورية في عام ١٩٣٦ وشجع على محاولة اليابان العسكرية التوسع على حساب الصين العاجزة بسبب قيادتها ونظامها الاقطاعي ..

وكل هذه كانت عوامل أسرعت باندلاع الحرب العالمية الثانية لغياب اتفاق أمن جماعي كان يسعى اليه الاتحاد السوفييتي ليصد انتشار النازية على المستوى الاوروبي وليحول دون نشوب الحرب فعلا .

ولكن من قبل أن تسرع في وتيرة الانزلاق نحو الهاوية استنفرت أخطار النازية من ناحية ، والعدوان الامبريالي الايطالي والياباني من ناحية ثانية ، القوى الشعبية فتنادت في

دول الرأسمالية المتطورة الى وقف اجتياح النازية لاجهزة الحكم ‥ كما تنادت في المستعمرات الى الكفاح من أجل التحرر القومي ‥

وهكذا مثلا توافق انتصار الجبهة الشعبية ، بقيادة الطبقة العاملة ، فى فرنسا مع النهوض الشعبي فى مستعمرات فرنسا امتدادا من المغرب الاقصى حتى سوريا ٠

والواقع أن موجة ثورية معادية للامبريالية اجتاحت العالم العربي بين ١٩٣٥ و ١٩٣٧ وتميزت بالعنف على الرغم من تباين الاقطار العربية واختلاف درجات تطورها ٠ وهذا الاختلاف فرض على الحركات القومية أهدافا تتلاءم مع أوضاعها العينية ‥ ولذلك لم يكن غريبا مثلا أن تطالب الحركة القومية فى سوريا بالاستقلال السياسي وبمعاهدة مع فرنسا على غرار المعاهدة العراقية ـ البريطانية في حين كانت الحركة القومية في العراق ترى فى تلك المعاهدة عبئا ثقيلا يقيد حريتها ‥

والمهم هنا ملاحظة التفاعل بين الاحداث عامة ‥ وبين أحداث العالم العربي خاصة ‥ فمما لا شك فيه أن الانتفاضات الثورية في هذا القطر العربي أو ذاك أثرت على مسيرة الحركات القومية في الاقطار العربية الاخرى ٠

ويعترف بهذا تقرير اللجنة الملكية لعام ١٩٣٧ حين يقرر : « وبالضبط كما كان ضغط اليهودية الاوروبية على فلسطين الان (١٩٣٦ أ٠ت) أشد ما يكون ، كان كذلك تأثير الاحداث فى الاقطار المجاورة ٠ ففي شتاء ١٩٣٥ـ١٩٣٦ شهدت المنطقة انبعاثا في النشاط القومي في مصر وسوريا وكان على درجة من الحيوية فى القطرين بحيث حقق أهدافه خلال

بضعـــة شهور وفاز القطـــران بالاستقـــلال القومي » (التقرير ص ٩٢) ٠

والمقصـــود هنا الانتفاضـــة التي اندلعت في مصـــر في شهر تشرين الثاني ١٩٣٥ على شكل مظاهـــرات عنيفـــة اجتاحت القاهرة وغيرها من المـــدن وأدت الى مصادمات مـــع قوات الامن وسقوط قتـــلى وجرحى ، واضراب عام في القاهـــرة جرى في ٢١ تشرين الثاني ١٩٣٥ ، وتحـــرك شعبي دينامي أجبر الاحـــزاب على تأليف جبهة وطنيـــة في ١٠ كانون الاول ١٩٣٥ طالبـــت باعادة دستور ١٩٢٣ والاعتـــراف عمليا باستقـــلال مصر ٠٠

وتحت ضغـــط النشاط الجماهيـــري والوحدة القوميـــة اضطـــرت بريطانيا الى مفاوضـــة زعماء الجبهة في اذار ١٩٣٦ ٠٠

وانتهـــت المفاوضات باتفاق جاء فى مـــواده الاولى اعـــلان بريطانيا انهاء احتلالهـــا العسكري رسميا ٠٠ والموافقـــة عـــلى انضمام مصر الى عضويـــة عصبة الامـــم ٠٠

وتعهـــدت مصر بوضـــع مقدراتها تحت تصرف بريطانيـــا أثناء الحـــرب كما وعـــدت بأ نلا تتخذ علاقاتها الاجنبية موقفـــا يتعارض مع الحلـــف مع بريطانيا ٠

ومـــع هذا لم تغير هـــذه الشروط من أهميـــة تلـــك المعاهدة ولذلك أعتبرت المحافـــل القوميـــة انذاك نصرا حققتـــه الحركة القوميـــة فى مصـــر ٠٠ (١)

أما الانتفاضـــه في سوريا فقد بـــدأت في مظاهـــرة جرت

---

١ ـ انتهت المفاوضات التى تراسها مصطفى النحاس فى ١١ ايـــار ١٩٣٦ وادت الى انتخابات جديدة فاز فيها حزب الوفد الذى كان يراسه مصطفى النحـــاس (الدولة العربية المتحدة الجزء الثالث (امين سعيد) ص ١٨٩ ـ ٢٦٤) ٠

في دمشق في ١٩ كانون الثاني ١٩٣٦ وتجددت في الايام التالية على وجه أعنف مما أدى الى وقوع اصطدامات دامية بين المتظاهرين والجيش الفرنسي ... ثم تبلورت في اضراب عام بدأ في دمشق في ٢٠ كانون الثاني ١٩٣٦ وأعلنته الحركة القومية « حتى تنال البلاد حقوقها التي تلخصت باعادة دستور الجمعية التأسيسية طليقا من كل قيد والغاء نظام الانتداب بعد ثبوت فشله بالتجارب المكررة واعلان استقلال سوريا » .

وقد امتد الاضراب الى سائر مدن سوريا التي شهدت ثورة قومية ، مختلفة العنف ، خاصة في حمص وحماة وحلب .

وانتهى هذا الاضراب بعد حوالي خمسين يوما في مطلع اذار ١٩٣٦ بعد أن تعهدت الحكومة الفرنسية باعادة الحياة النيابية الى سوريا وعقد اتفاق مع حكومة قومية ، ينص على الاعتراف باستقلال البلاد .

وفعلا جرت هذه المفاوضات الفرنسية ـ السورية ، بعد انتصار الجبهة الشعبية في انتخابات فرنسا في حزيران ١٩٣٦ ، وانتهت الى نجاح في ٩ أيلول ١٩٣٦ ..

وفي الاتفاق اعترفت فرنسا باستقلال سوريا ولكنها قيدت ذلك الاستقلال بمعاهدة « حلف وصداقة » يخولها عسكرة قواتها في الاراضي السورية .. وهنا أيضا اعتبرت الحركة القومية الاتفاق انتصارا ملموسا في ظروف المنطقة والعالم الموضوعية ..

وكان هذا النشاط القومي في القطرين العربيين المتجاورين عاملا في ثورة ١٩٣٦ في فلسطين ولكنه لم يكن حافزا

لها .. أما الحافـــز فكانت عواملـــه ـ كما أوردنا عند سرد ظروف « هبة ١٩٣٣ » ـ تكمن فى السياسة الامبرياليـة البريطانيـــة والممارسة الصهيونية المعادية للشعب العربي الفلسطينى ..

وعمقت التطورات أخطار تلك العوامـــل ..

وأدى عـــدوان ايطاليا على الحبشة الى تحويـــل التجـارة العالمية عن المنطقـــة الى حد ما ، الامـــر الذى شـــدد أزمـــة العمـــل فى فلسطين ..

ويذكـر ولتر بريوس في كتابه « حركـــة العمال فـــي اسرائيل » : « أن نتائج التوتـــر الدولي فى البحر الابيض المتوسط بدأت تظهـــر ، في آب ١٩٣٥ ، على شكل تقليص في الاعتمـــادات فى فلسطين مما أدى الى اضعـــاف وتيرة البناء وابطاء فى صناعـــة مواد البنـــاء امتـــد الى ميادين أخـرى . ولاول مرة منـــذ ١٩٣١ عادت البطالة الى الظهـــور » ..

وبديهي ان البطالـــة لم تقتصر على القطاع اليهودي بـــل انتشرت الى القطاع العربي عـــلى نطاق أوســـع اذ كان النشـــاط الاقتصادي في القطاع اليهودي ينمـــو بسبب الهجـــرة والتطوير الصناعى والزراعى ، في حين أسهمت السياســـة الامبرياليـــة والممارسة الصهيونية في التضييـــق على النشاط الاقتصـــادي العربى بحيث أدى الى تفاقم أزمة البطالـــة خصوصا في هـــذه الفترة بالذات حين اتسعت صفوف العمال العاطلين نتيجة تشريد الفلاحين العـــرب عن أراضيهـــم التى باعها الاقطاعيون ـ الغائبون فى أكثر الحـــالات ـ الى اليهود .

ولعل تعميـــق شعور الجماهير العربية باليأس من ممكنات تغيير الاوضاع بالنشـــاط السياسي ، والخـــوف من اتساع الوطن

القومي اليهودي على حساب كيانهم ، نجم عن عاملين ارتفاع الهجرة اليهودية الى رقم قياسي هو ٦١٫٨٥٤ في عام ١٩٣٥ وتجميد الادارة البريطانية مشروع المجلس التشريعي ..

مشروع المجلس التشريعي

ففي ٢٥ تشرين الثاني ١٩٣٥ قدم زعماء الحركة القومية التقليديون مذكرة الى المندوب السامي البريطاني طالبوا فيها من جديد :

* بانشاء حكومة نيابية في فلسطين
* وبوقف الهجرة اليهودية
* وبمنع بيوع الاراضي ..

وردت الحكومة البريطانية على هذه المذكرة فرددت موقفها القديم من الهجرة مؤكدة أن سياستها قائمة على قدرة الاستيعاب الاقتصادي في البلاد .. وأعلنت استعدادها لوضع تشريع لا يسمح بموجبه ، باستثناء قضاء بئر السبع ومناطق المدن وباستثناء الاراضي المغروسة بالاشجار الحمضية ، ببيع الفلاح أي قسم من أرضه الا اذا بقي له حد أدنى يسمح له باعالة عائلته من دخله ..

أما بشأن الحكومة النيابية فكان الجواب :

« ان الجواب على طلب انشاء حكومة ديمقراطية في فلسطين قد أبلغه المندوب السامي الزعماء العرب حين قدم لهم اقتراحات بشأن تشكيل مجلس تشريعي يضم أكثرية كبيرة من الاعضاء غير الموظفين عن طريق الانتخاب » .

وفعلا عرضت الحكومة البريطانية في ٢١ و ٢٢ كانون الاول ١٩٣٥ اقتراحاتها بشأن اقامة مجلس تشريعي على الزعماء

العرب واليهود · وحسب الاقتراح كان المجلس التشريعي سيتالف من ٢٨ عضوا على الوجه الاتي : ■ موظفين (بريطانيين طبعا) راتنان يمثلان التجار و ١١ مسلما (ثمانية ينتخبون وثلاثة يعينهم المندوب السامي) وسبعة يهود (ثلاثة ينتخبون وأربعة يعينهم المندوب السامي) وثلاثة مسيحيين (١ ينتخب واثنان يعينهم المندوب السامي) ويكون الرئيس محايدا لا علاقة له بفلسطين ··

ومع أن أكثرية المجلس التشريعي كانت ستكون منتخبة الا أن قدرة المجلس حددتها ثلاثة قيود ··

فلا يحق للمجلس أن يناقش شرعية الانتداب البريطانى ·· ومن حق المندوب السامي أن يشرع فى ظروف معينة بما في ذلك مايتعلق بالامور الجوهرية كالهجرة والاراضي ·· كما أن من حقه أن يقرر لائحة هجرة العمال اليهود ··

وكان طبيعيا أن تهاجم صحافة البلاد المشروع ·· ولكن انطلاق صحافة كل من الطرفين العربي واليهودي كان مختلفا ، قرره الموقف من القضايا المصيرية الموضوعة على بساط البحث ··

فقيادة الحركة القومية العربية انتقدت المشروع لانه يجرد المجلس التشريعى من الصلاحيات ويجعل من الحكم النيابى مهزلة ·· في حين هاجمت القيادة الصهيونية مجرد فكرة مجلس تشريعي ما دام اليهود أقلية فى البلاد ··

وكالعادة غلفت القيادة الصهيونية موقفها بذرائع الدفاع عن الديمقراطية !! وهذا في وقت كانت تعلن فيه حقيقة خوفهامن تطور الاجهزة المنتخبة ··

وهكـــذا كتب حايم وايزمن في « التجربـــة والخطـــأ » يفسر أسباب مقاومـــة القيادة الصهيونية المشروع : « ان الحديث عن منتخبين عرب يمثلون شعبهم يتناقض مـــع المبدأ الديمقراطي الذى يفرض أن يكـــون تعبيرا عنه . ان مجلسا تشريعيا فـــي فلسطين سيكـــون مجرد معطف معاصر لنظام الاقطاعية القديـــم أي استمـــرار سلطة الـــدم العائلية التى قبضت على البـــلاد منذ قرون ومرغت وجوه الفقراء في التراب ! » (ص ٣٨٠) .

وبعـــد ذلك أضاف : « لنا من الخبـــرة ما يكفي لان نعرف أن الموظفين البريطانيين في فلسطين لا يمكـــن الاعتماد عليهـــم فى الدفـــاع عن مبادىء الانتداب ، هـــذا أولا ، وثانيا نـــرى فى الافـــق أن الخطـــوة الثانية بعد اقامـــة المجلس ستكـــون اعطاء العرب (بوصفهم الاكثريـــة أ٠ت) مزيدا من السلطـــات عـــلى الامور الخارجـــة عن صلاحيات المجلس الامر الـــذي سيواجهنا بخطر تجميـــد الوطن القومي اليهودى » (المصدر ذاته) .

ان الاختفـــاء وراء الاقطاعيـــة والتظاهـــر بمعاداتها كان سلاحـــا من أمضى أسلحـــة القيـــادة الصهيونية في حملـــة التضليـــل بين الاشتراكية الديمقراطية اليمينية في أوروبا ..

فبتضخيم مكانة القيادة الاقطاعية العربية وبالتلويح بطبيعتها الطبقية الطاغيـــه زيفت الصهيونية الحقائـــق التى تبلـــورت جوهريا في أمرين : في تعاون القيادة الصهيونية مـــع الاقطاعيين العـــرب سياسيا واقتصاديا من وراء الستار .. وفي هجـــوم عنيف على الفئات الشعبيـــة العربية .. فضحايا الاجـــلاء عـــن الاراضي العربية لم يكونوا اقطاعيين بـــل فلاحين فقراء وضحايـــا سياسة احتـــلال العمل لم يكونـــوا اقطاعيين بلا عمـــالا معدمين

حاولـــوا كسب الاود عن طريق بيع قوتهم البدنية ..

ولهـــذا لم يكن أمرا غريبا في هذه الفترة بالـــذات ، التي امتازت ، نتيجـــة البطالة ، بنشاط الفرق الضاربـــة الصهيونية المتعاظـــم لطـــرد العمال العرب من المنشآت والمزارع اليهوديـــة ، أن ترسل جمعيـــة العمال العـــرب في يافا مذكرة الى المنـــدوب السامي تعالج فيها سياسة الادارة البريطانية فى اعطـــاء شهادات الهجره وتحـــدد عدد العمـــال اليهود العاطلين بتسعة الاف وعدد العمـــال العرب العاطلين ب ٢٣ ألفا ثم تنتقـــد احتكار العمـــال اليهود المشروعات الاقتصادية الكبرى (الكهرباء البحر الميت والحوله) وتخصيص العمـــال العرب بالاعمال الشاقـــة .. ثم تذكـــر طـــرد الحاميات اليهودية العمال العـــرب من أعمالهم واحـــلال اليهود مكانهم وتطالب في النهاية بوقف الهجـــرة ..

لذلك فالتلويـــح « بالديمقراطيـــة » كان بمثابة السخرية من الديمقراطية التى لا تتجســـم بالشكـــل بل في المضمـــون السياسي والاقتصادي ..

ان القيادة العربيـــة ، على الرغم من انتقادهـــا المشروع ، لم ترفضـــه في حين قاومته القيادة الصهيونية بالظفـــر والناب تؤيدهـــا المحافـــل المغرقة فى الرجعيـــة فى الطبقة الحاكمـــة البريطانية التى كانت تكره شعوب المستعمـــرات وتحقـــد عليها وترفض التنازل عن أي امتيازات لها ..

ويصـــح القول هنا أن المحافـــل البريطانيـــة الحاكمة التي أرادت أن تمنح فلسطين بعض الامتيازات الشكلية ، هي المحافـــل التي كانت تأخـــذ في عين الاعتبـــار ضرورة مواجهـــة المنافسه الامبريالية النشيطة التي مثلتها ايطاليا الفاشية وألمانيا النازيـــة

عن طريق التنازلات للحركات القومية العربية التي كانت تحاول ايطاليا وألمانيا جذبها الى جانبها بالتظاهر بتأييدها ..

كذلك لا بد من القول أن المحافل الامبريالية البريطانية التي اتخذت مبدأ « فرق تسد » أساسا لنهجها في فلسطين كانت ترى في بعض التنازلات للحركة القومية العربية من ناحية ومواصلة تأييد المشروع الصهيوني من ناحية ثانية ، افضل موازنة تمكنها من التظاهر كفيصل فيالنزاع العربياليهودى لا كالطرفالجوهري فيه علىاعتبار أن الصراع كانفعلا يدور بين الشعب الفلسطينى والامبريالية البريطانية من أجل تحرير فلسطين .. وفي هذا الصراع وقفت الصهيونية الى جانب الامبريالية البريطانية ، في حين وقفت القوى الديمقراطية اليهودية الى جانب معركة التحرر المعادية للامبريالية ..

والمقرر انذاك أن مشروع المجلس التشريعي البريطاني أثناء المناقشات التى جرت في ٢٨ شباط و ٢٥ اذار تعرض الى انتقاد لاذع من مختلف الاحزاب في مجلس العموم البريطاني اثناء المناقشات التي جرت في ٢٨ شباط و ٢٥ اذار ١٩٣٦ مما أوحى للجماهير العربية ـ كما قلنا ـ بعدم جدوى النضال السياسى ...

وقد حاولت بريطانيا أن تزيل أثر هذه المناقشة فدعت وفدا عربيا لمباحثتها فى المشروع فى بريطانيا ، ولكن انفجار الثورة الغى هذه المفاوضات ..

حركة القسام والاضراب العام

في ١١ تشرين الاول ١٩٣٥ اصطدمت قوة بريطانية بفرقة عربية مسلحة فى جبال جنين وخلال المعركة الحامية

قتل اربعة من الفرقة بينهم زعيمهم عز الدين القسام مما ادى الى تسمية أتباعه فيما بعد « القساميين »

لقد كشف هذا الاصطدام وجود تنظيم سري يؤمن بالثورة المسلحة ويعد لها ٠٠ وفي هذا الصدد هناك ما يوحي أن القوة البريطانية فاجأت الفرقة العربية بصحبة القسام وهي تتمرن من قبل أن يستكمل التنظيم استعداده ٠٠

ولكن الاهم أن هذا التنظيم السري جرى فى عزلة عن القيادة القومية التقليدية وكفر بأساليبها ، وكان يعتمد على الفئات الشعبية ويعمل بين العمال والفلاحين ٠٠

ثم ان دعوة الحركة امتازت بالوضوح اذ رأت العدو الجوهري في الانتداب البريطاني وبذلك خلت من الملامح الرجعية الي كانت تخلط بين الصهيونية واليهود ٠

ولم يقلل من أهمية هذه الحركة ، في فترتها الاولى ، الطابع الديني الذي تلونت به ٠٠

ودلت موجة المظاهرات التي جرت خلال تشييع جثمان القسام الى مقره الاخير والاستذكارات اللاحقة على توثب الجماهير الشعبية واستعدادها الثوري ٠٠

ولذلك كان من أسهل أن تشتعل المعركة حتى فى أعقاب حادثة قطع طرق عادية جرت في ١٥ نيسان ١٩٣٦ على طريق طولكرم ـ نابلس ـ وأودت بحياة يهوديين ٠٠ فالازمة وصلت الى درجة الانفجار ٠٠

في كتابه « القضية الفلسطينية » كتب يوسف هيكل (الذى شغل منصب رئيس بلدية يافا قبل حرب فلسطين) :

« ان هذه الحادثة اعتيادية ولا علاقة لها بالسياسة

ومثيلاتها عديـــدة في جميـــع البلدان ، وليس العـــرب براضين عن مثـــل هذه العصابات ، وأضرارها تلحـــق جميع سكـــان فلسطين دون تفريـــق بين عربي ويهودي • وحـــادث ١٥ ابريل (نيسان) لم يكـــن الاول من نوعـــه ، فلو وقفت حوادث ذلـــك اليوم عند هذاالحـــد لما انفجـــرت قنبلة الاضطرابـــات حينئـــذ ولما اجتاحت الثـــورة فلسطين ، غير أن اليهود مزجوا بين الاعتداءات الاعتياديـــة والسياسيـــة فانتقمـــوا بقتـــل رجل أو رجلين من العـــرب الابريـــاء » (ص ١٩٨) •

بهـــذا أعـــرب يوسف هيكل ، مثـــل غيره من الكتاب ، عن الرؤيا الحقيقيـــة لما كان يجرى فى البـــلاد •• فبعد حادث السطـــو العادي قتلت عناصر صهيونية عامليـــن في كوخ يقـــع على طريـــق بيتح تكفا ـ كفار سابا (١٦ـ٤ـ٣٦) انتقامـــا لمقتـــل اليهوديين •• وفي الوقت ذاتـــه هاجمت مثـــل هـــذه العناصر المواطنين العرب في المنطقـــة المتاخمة لتل أبيب •

وتوحي كافـــة الدلائل (وهذا يساعـــد عـــلى تحديـــد مسؤوليات الازمة) بأن القيادة الصهيونية كانت تخطط الصـــراع بين اليهود والعرب ، تساوقا مـــع الامبريالية البريطانية بـــدون أن يكون ذلك محـــددا حتى اخر التفاصيـــل •• وهكذا فما أن أذيع نبأ مقتـــل اليهوديين حتى اجتاحـــت المظاهـــرة تل أبيب والمنطقة المتاخمـــة لها ووقعت حوادث اعتـــداءات على المواطنيـــن العرب في يافا •• استنفـــرت بدورهـــا اعتـــداءات مماثلة على المواطنين اليهود ••

وما أن حـــل يوم الاحـــد في ١٩ـ٤ـ١٩٣٦ حتى كانـــت يافا مضربـــة احتجاجا على الاعتـــداءات الصهيونية على أبنائها ••

وكان الاضراب عفويا نجم عن التوتر فى المنطقة المشتركة بين يافا وتل أبيب ..

ولكن هذا الاضراب العفوي تحول الى اضراب واع شمل فى اليوم التالي عمال الميناء ..

وعندئذ تحركت فئات قومية وأذاعت بيانا أعلنت فيه آن سياسة الوطن القومي اليهودي هي سياسة غاشمة ... « وان تجربة حكم شعب بخلاف رغبته وارادته هي تجربة فاشلة » ..

وجاء فى بيان اللجنة القومية التى تالفت حالا في اجتماع وطني ان المجتمعين يعلنون ، مبدئيا ، الاضراب العام فى يافا اعلانا لسخط العرب على سياسة السلطات الفاسدة التى يقصد منها « ابادة العربي في بلده العربي » .. (فلسطين العربية بين الانتداب والصهيونية عيسى السفري ص ١٦ـ١٧ الجزء ٢) ..

وامتد الاضراب شيئا فشيئا .. حتى شمل ميناء يافا ، مما آثر على اقتصاد البلاد ، لاهمية هذا الميناء ، ثم امتد الى النقليات .. وبعد ذلك انفجر في كافة المدن ..

وكان تاليف اللجنة القومية في نابلس ، المدينة العربية البارزة في ٢٠ـ٤ـ١٩٣٦ ايذانا بنمو كيفي في هذه الحركة العضوية التى دلت على أن التنظيمات السياسية في البلاد متخلفة عن الاحداث ..

وسارت قيادة الاحزاب القومية العربية فى مجرى التيار فأعلنت بعد يوم ، فى ٢١ـ٤ـ١٩٣٦ الاضراب العام فى البلاد..

وفى غمرة هذا التوثب السياسي اجتمعت قيادات الاحزاب القومية العربية وألفت في ٢٥ـ٤ـ٣٦ اللجنة العربية

العليا برياسة المفتي الحاج أمين الحسيني وأمانـــة سر عوني عبد الهادي وعضويـــة سائر قادة الاحـــزاب ٠٠

ولم تختلـــف شعارات اللجنة العربية العليـــا عن شعارات الحركة القوميـــة : وقف الهجـــرة ٠٠ ومنـــع بيوع الاراضـــي وانشاء حكومة وطنيـــة مسؤولة أمام مجلس نيابي ٠٠ انما اختلف عنف اللهجة وتحرك الجماهير الشعبية وخاصة الطلاب والنساء الذين قامـــوا في البداية بدور كبيـــر في تحريـــك النشـــاط الوطنـــي ٠

وامتـــاز الاضراب بالشمـــول ٠٠ فقد اجتمـــع المحامـــون وقـــرروا مشاركـــة الامـــة في نضالهـــا ٠٠ كما اقتفـــى أثرهـــم الاطبـــاء والتجـــار ٠٠

ومن أبرز مظاهر العمق الشعبي نشاط القرويين فقـــد عقدوا سلسلـــة من المؤتمرات في أقضيتهـــم قـــرروا فيها تأييـــد المعركة الوطنيـــة الدائـــرة ٠٠

وخـــلال أيار ١٩٣٦ وبينما البـــلاد (القطاع العربـــي) مضربة عقـــدت فئات الشعب المؤتمرات والاجتمـــاعات لتقريـــر تأييـــد المطالب القوميـــة المعروفة ٠٠ كذلك عقـــد منتخبـــو المجالس البلدية في وجه مقاومة السلطات ، اجتماعـــا قـــرروا فيـــه الاضـــراب ٠٠

وكـــان انعقـــاد مؤتمر اللجـــان القومية التي تألفت فـــي كل مكـــان ، بغض النظر عن قيام اللجنة العربية العليا ، فـــي القدس في ٧ أيار ١٩٣٦ ، تعبيـــرا عن الاندفـــاع القومي فـــي البلاد وتجسيما لانخـــراط فئات قوميـــة جديدة في المعركـــة ٠٠

وطبعا لم تتغير طبيعة القيادة الطبقية انما تغير الى حـــد

التـوازن بين العناصر الاقطاعيـة الريفية والعناصر البرجوازية ـ التجارية المتوطـدة في المدن ·· ثم برزت في هذا المؤتمر عناصر المهنيين مثل المحامين والاطباء باعتبارهم قوة فكرية ··

وقام الشعـراء بدور بارز في الدعـوة الثوريـة الواعيـة وبرز من بيئهم عبد الكريم الكرمي (أبو سلمـى) وابراهيم طوقان وعبد الرحيم محمـود ·· ولاحـظ المؤخرون المعاصـرون أن قصائدهم كانت ترد على ألسنة المقاتليـن وجماهير الشعـب ·· وأعرب « أبو سلمى » عن المناخ الثـوري حين هتف :

سيـروا على الـدرب المخضب والثمـو أثر الجـدود
حريـة الانسان بالـدم تشتـرى لا بالوعـود

كذلك قـام الشعر الشعبي بـدوره الفعـال وصـاغ الثوريون تجربتهم الوطنيـة في بعض الاحيان في قصائد بسيطة ولكنها غنيـة بالعواطـف ·

***

وكان السلبي أن مؤتمـر اللجان القوميـة استسلم الـى اللجنة العربية العليا . التي تألفت فوقيا من قـادة الاحـزاب ، وكانت تنظيما رجعيـا على الصعيـد الاجتماعي وفيما بعد عـلى الصعيـد السياسي ··

وكان أخطـر قرار اتخـذه مؤتمـر اللجان القوميـة : الاعـلان بالاجماع عن الامتناع عن دفع الضرائب اعتبـارا مـن ١٥ أيار الحالي اذا لم تغير الحكومة البريطانية سياستها تغييـرا أساسيا تظهر بوادره بوقف الهجرة اليهودية « · (المصدر ذاته ٤٧)··

ان أهميـة هذا القـرار ، الذى سرى مفعولـه في ظـل الاضراب المستمر ، تكمن فى طبيعته المضادية للامبريالية · واقترن تنفيذ

الامتناع عن دفع الضرائب واعلان العصيان المدني بسلسلة من المظاهرات الجماهيرية الضخمة في مختلف المدن رفعت المعركة القومية الى مستوى أعلى ..

وفي ١٨ أيار ألغت الحكومة البريطانية رسميا دعوتها الوفد العربي الى المفاوضات في لندن وأصدرت بيانا جاء فيه : « ان الوفد العربي المقترح لم يعد ملائما للاحوال التي نتجت وانه بدلا من ذلك يجب أجراء تحقيق في فلسطين ولذا قررت (الحكومة أ.ت) بعد ان يعاد النظام أن تشير على صاحب الجلالة بأن يعين لجنة ملكية لتبحث في أسباب القلق وشكاوي العرب واليهود المزعومة دون التعرض لنصوص الانتداب » .

ومرة أخرى لوحت بريطانيا بلجنة تحقيق لاجهاض الحركة القومية العربية .. ولكنها اخفقت في وقف المد الثوري ..

وبدأت سياسة القمع على نطاق واسع وتزايد عدد المعتقلين ونفي الوطنيين في داخل البلاد .. وأقامت الحكومة البريطانية معتقلات بلغ عدد نزلائها العرب من المعتقلين السياسيين الاداريين والمحكومين حوالي ٤٥٠٠ . (حول الحركة العربية الحديثة ـ محمد عزة دروزة الجزء الثالث ص ١٢٧ ـ ١٢٨) .

ونمت الحركة القومية على طريق التصعيد الثوري من مظاهرات ثورية تصطدم مع القوات البريطانية المسلحة في المدن الى حركة أنصار مسلحة تنازل الجيش البريطاني في الريف ..

ومن الصعب هنا وصف الثورة المسلحة ، التي اشتعلت في مختلف أنحاء البلاد ، ونازلت القوات البريطانية لا الصهيونيين على الرغم من وقوع مصادمات مع المستوطنات الصهيونية ٠

ولكن من الممكن الايحاء بقوتها حين نذكر أن القوات العربية المسلحة خلال قتالها القوات البريطانية نسفت ٤٨ جسرا وقطعت أسلاكا كهربائية وهاتفية ٣٠٠ مرة وعطلت قاطرات ٢٢ مرة ونسفت خطوط السكة الحديد ١٣٠ مرة ٠

الفصل الرابع عشر

تطورات الثورة واللجنة الملكية

حين تحدث بن غوريون عن ثورة ١٩٣٦ التي امتدت ثلاث سنوات قال :

« لم تكن هناك انتفاضة قومية ٠٠ ولم يشارك الشعب العربى أو جله في الحوادث فهو يفتقر الى الارادة والطاقة والقوة لان يثور ٠ أقلية ضئيلة تحارب حتى الموت وتستخدم فى قتالها أي وكل وسيلة وترتكب أبشع الجرائم » (خطابه في ٣ آب ١٩٣٨ كما أورده روبرت سانت جون في كتابه « بن غوريون » ص ٦٥ـ٦٦) ٠

وبهذا الكلام جسم بن غوريون موقف القيادة الصهيونية من حركة التحرر القومي العربية ونضالها من أجل الاستقلال وتصفية نظام الانتداب الامبريالي ٠٠

لقد رفضت القيادة الصهيونية مجرد الاعتراف بحركة الشعب العربي الفلسطيني القومية وأصرت على وصفها بالاجرام والوحشية كل نشاط من نشاطاتها ولم يكن في وسعها أن تتصور طاقتها على الثورة والبطولة ٠

ولكن ثورة ١٩٣٦ برهنت على طاقة الشعب العربي الفلسطيني وارادته الجارفة وبأسه في الصمود أمام الامبريالية

البريطانية والصهيونية الدوليـــة ··

ولا يغيـــر من هذه الحقيقـــة تصور المحافـــل الصهيونية الثـــورة وكأنها شغب نظمته فئة « الافندية » الاقطاعيين ··

ولعـــل جورج أنطونيوس ـ وهو بعيـــد عن الوعي الطبقي ومن أنصـــار التعاون مـــع بريطانيا ـ اقتـــرب من الحقيقـــة حين كتـــب :

« ليست الثورة (في عام ١٩٣٦ ـ أ·ت) بعيـــدة عن أن تكـــون من صنع الزعمـــاء فحسب بل هي بشكـــل واضح جدا تحـــد لسلطتهم وتجريـــم لاساليبهم · فان قواد الثـــورة ينسبون مصيبـــة المزارعين العـــرب فى الوقت الحاضر الى أولئك المالكين الذين باعـــوا أراضيهم ، ويتهمـــون الزعماء بالاهمال الجانـــي ، لاخفاقهم فى منع البيـــوع ، اذ لم يكن للفلاحين رأي في معظـــم تلك البيوع التي أدت الى اخراجهـــم من أراضيهم » (كتابه يقظـــة العـــرب الترجمة العربيـــة ، تعريب علي حيدر الركابي ص ٤٤٩) ·

والواقـــع أن الزعامة التقليديـــة أخذت على غـــرة حين اجتاحت البلاد موجة الاضراب وتألفت اللجان القومية ·· كما أخذت على غرة حين رافق الاضراب كفاح مسلـــح ··

ويجمع الكتاب الذين عاصروا تلك الحقبـــة على أن الثـــورة كانت من صنـــع الفئات الشعبيـــة فهكذا صور الدكتور محمـــد حسين هيكـــل في كتابـــه « القضية الفلسطينية ـ تحليـــل ونقـــد » البدايـــة فكتب :

« وأخـــذت قساوة البوليس واعتداءاتهم عـــلى أفـــراد الشعب في الازدياد · وأمعنت الحكومة في سياسة الاعتقـــال والحبس ·· فبلـــغ أهل طولكرم صباح السبت ٢٣ مايـــو

(أيار) ١٩٣٦ ، ان الحكومة اعتقلت أعضاء اللجنة القومية فثاروا وتقلدوا سلاحهم سائرين نحو المدينة فتقابلوا مع قوة عسكرية ذاهبة الى نابلس فاشتبكوا معها بالقرب من بلعا وتبادلوا واياها النيران من الساعة التاسعة صباحا حتى المساء ·· فتحولت الاضطرابات الى ثورة حقيقية كانت هذه الموقعة اولى معاركها » (ص ٢٠٧)

وهذا ما أكده أمين سعيد في كتابه « الدولة العربية المتحدة » (الجزء الثالث ص ٥٤٠) وعيسى السفري في كتابه « فلسطين العربية بين الانتداب والصهيونية » (ص ٧) ·· وأضاف الاخير أن الجنود البريطانيين أطلقوا النار على مظاهرة قومية فى نابلس فى اليوم ذاته فقتلوا أربعة مواطنين وجرحوا سبعة ·· وذاعت أخبار هذه الفاجعة فى القرى فتسارع أهلوها للنجدة وانتشرت جموعهم فوق الجبال وفى الوديان وعلى مفترق الطرق مسلحة بالبنادق وغيرها من أنواع السلاح » ··· (ص ٧) ·

وأكد أن « لسكان القرى كان النصيب الاكبر في تأييد الثورة وتغذيتها فقد اشتركوا فى معظم الاعمال الثورية وناصروها بكل ما وصلت اليه أيديهم » (المصدر ذاته) ··

ولكن كل هذا لا ينفي نجاح القيادة التقليدية التي توحدت فى اللجنة العربية العليا في تسلم زمام القيادة السياسية ، والى حد ما القيادة العسكرية ··

لقد وصف عدد من الكتاب العرب الذين عاصروا تلك الفترة أبرز المعارك الحربية التى وقعت خلال الاضراب التاريخي الكبير الذى امتد ستة أشهر ، ولكن وصفهم كان

من قبيل السرد الصحفي العام أولا ، والمتناثر ثانيا ، جاء عفويا ولم يعتمد على جمع الوقائع أو يحدد ارتباطها العضوي المتكامل . ومع هذا فحتى هذا الوصف السطحي أوحى بنمو التنظيم العسكري ــ المحدود طبعا ــ بين الجماهير العربية من ناحية .. وباتساع القتال بين تنظيمات الانصار والقوات البريطانية من ناحية ثانية .

ودلت على اتساع رقعة القتال اقليميا هذه المعارك التي عرفت بمواقعها : نور شمس (طولكرم) ، وادي عزون ، باب الواد ، بلعا ، وعصيدة الشمالية ووادي عارة وعين دور (الناصرة) .. وغيرها

وأوحى بكثافة القتال وشدته اشتراك الاف الجنود البريطانيين فى المعارك بمعداتهم التقنية العسكرية الحديثة لضرب فرق أنصار تسلحت تسلحا بدائيا نسبيا ..

ولاحظ أمين سعيد مثلا أن ٥٠٠٠ جندي بريطاني تشد أزرهم الدبابات والمدفعية الثقيلة و ١٥ طائرة اشتركت فى معركة بلعا الثانية في ٣ أيلول ١٩٣٦ ولم تحسم شيئا (الدولة العربية المتحدة الجزء الثالث ٥٤١) .

لقد بلغت القوة البريطانية فى فلسطين انذاك ٢٠ ألف جندي (حسب احصاءات الحكومة و ٢٥ ألف حسب تقديرات الكتاب العرب والاجانب) وتعاونت معها قوات البوليس العادي والبوليس الاضافي ، الذى جندته السلطات من صفوف الهاجنا (منظمة الدفاع الصهيونية) ، وبلغ عدده ٥٠٠٠ بوليس .. ومع ذلك لم تستطع هذه القوات القضاء على الثورة عسكريا على الرغم من نجاحها في اقتناص حوالي

٣٠٠٠ شهيـــد من بين صفوفها ، المحاربين تحت اعلامها ٠٠

ان بسالـــة الثـــورة وصمـــود الشعب العربـــي الـــذي أشعلها يظهـــران على حقيقتهما ازاء عنـــف القمع الامبريالي ٠٠ فالادارة البريطانية لم تدفع الى ميدان القتـــال هـــذه القـــوات العسكرية والبوليسية المجهزة أحســـن تجهيز فحسب بـــل استخدمت أيضا أوحش اساليب القمـــع لتدميـــر معنويـــات الجماهير وافقارها ومن ثم عزلهـــا عن الكفـــاح ٠٠

وهكذا فرضـــت ـ كما ألمحنا ـ الاحكـــام العرفيـــة عـــلى البلاد في ٣٠ أيلول ١٩٣٦ وتولت سلطات ديكتاتوريـــة فظـــة خولتها حـــق مراقبة المطبوعات ٠٠ والتوقيف والاعتقال الاداري والنفي والابعـــاد ٠٠ وحـــق استملاك الامـــوال ومصادرتهـــا والتصرف بها كما تشاء ٠٠ وفرض الغرامات على الجماعات والهيئات واتلافهـــا الاملاك كتدابير تأديبيـــة سواء أكان في الامكـــان معرفة « المجرمين » الحقيقيين أم لم يكـــن ٠٠ وأقامت محاكـــم عسكريـــة تفرض عقوبات بربريـــة تصل الاعـــدام على المتهمين بالمشاركة فى الكفاح ٠٠

وقد ترك لنا عيسى السفري وصفـــا لما كان يجـــري فـــي البـــلاد فى تلك الايام فكتب :

« كانت السلطـــة حين تشتبه بقريـــة ما ، تأمر حـــالا بذهاب قـــوة كبيرة من الجند والبوليس بدباباتها ومدافعهـــا الرشاشة وكامل أسلحتها الى تلـــك القرية فتطوقها من جميـــع جهاتها ويدخل فريق من الجند الى القرية ، يطرقون أبواب بيوتهـــا بأعقاب بنادقهم بشـــدة ويأمرون مختارها بعـــزل النساء عـــن الرجال ومن ثم يأخـــذ الجنود بتفتيش بيوت القريـــة ، بيـــن

فزع النساء وعويل الاطفال فيبعثرون محتوياتها ويحطمون آنيتها المملوءة بالسمن والزيت والحبوب ومختلف أنواع الاغذية وبانتهاء التفتيش يطلق الجند المدافع فى الفضاء ارهابا (فلسطين العربية بين الانتداب والصهيونية ص ٨٥) ٠

ومن الاجراءات التي شاعت انذاك الغرامات الجماعية ونسف البيوت لصدور طلقات منها أو من مكان قريب اليها ٠٠ ومهاجمة القرى وضربها بالرصاص بدون تمييز ٠٠ وقد كانت قرية « قولة » المجاورة للرملة واللد ضحية هجوم عنيف بسبب اطلاق مجهول النار على دورية بريطانية ٠ (المصدر ذاته ص ٨٦) ٠٠

وقد هز الرأي العام فى فلسطين والعالم الخارجي نسف حي بأكمله في يافا فى حزيران ١٩٣٦ بحجة « تجميل المدينة » ٠٠ كما هزته حوادث النسف في نابلس واللد وحيفا وبلد الشيخ وعدد اخر من المدن والقرى ٠٠

وقد أدانت محكمة العدل العليا برياسة قاضى القضاة ميخائيل مكدونلد هذه الاجراءات وأعلنت في قضية نسف الحي في يافا : « كان يشرف الحكومة أكثر لو انها ، بدلا من أن تذر الرماد في عيون الشعب بادعائها ان الموحي لعملية الهدم هو التحسين والتجميل والعمل لتنظيم المدينة أو رعاية الصحة العامة لو انها قالت بصدق وبساطة أن الهدم المنوي اجراؤه كان المقصود الاساسي منه الدفاع عن فلسطين الذى يعني ـ كما يجوز أن يعتقد كل شخص ـ التسهيل لدخول القوى العسكرية الى الاحياء التي تغص بالسكان في المدينة المذكورة (المصدر ذاته ص ١٠٢)

وقد ميـــز هذه الثـــورة نمو التضامن العربى وامتـــداده الى أقطـــار عربية جديـــدة ..

وبـــرز هذا التضامـــن فى انضمام عدد من المحاربيـــن العرب فى سوريا والعراق والاردن الى الثـــورة وفى النشـــاط السياسي النامي تأييـــدا لكفاح الشعب العربي الفلسطينـــي القومـــي ..

لم يكـــن أمرا غريبـــا أن تتضامن الحركات القوميـــة في سوريا ولبنان وشرقي الاردن مع الحركـــة القوميـــة في فلسطين .. ولكنـــه كان تطـــورا جديدا أن تتجند الحركات القومية فى مصر والمغرب العربي فى ميـــدان التضامـــن العربى ..

وأعـــرب قائد حركـــة التحـــرر القومى فى مصر مصطفى النحاس عن هـــذا التطور حين صرح أن مصر لا تستطيـــع أن تقف مكتوفة الايـــدي تجاه ما يجـــري فى فلسطين وهي تؤيد مطالـــب الشعب العربـــي الفلسطينى .

ومـــع استئناف الثـــورة بعد قرار اللجنة الملكية نما هـــذا التضامـــن العربى نمـــوا كميا وكيفيا .

وقد لاحظـــت اللجنة الملكية في تقريرهـــا هذه الظاهـــرة الديناميـــة فكتبت :

« أثـــارت ألانفجـــارات الماضية فى فلسطين اهتمام وعطـــف الشعوب العربيـــة المجاورة ولكن هذه المـــرة لم تظهر المشاعـــر الشعبية الواسعـــة النطاق ضد البريطانيين واليهود فحسب بـــل ان عددا كبيـــرا من المتطوعين وبينهم قائـــد الثـــورة ، جاءوا من سوريا والعراق .. وأهم من هذا اهتمت الحكومات العربية لاول

مرة بالخلاف (الناشب في فلسطين أ·ت) » ·· (تقرير اللجنة الملكية ص ١٠٤–١٠٥)

وظهر اهتمام الحكومات العربية ـ أو بدقة أكثر ملوك بعض الاقطار العربية ـ بالخلاف في دورها في حل الاضراب ··

وكانت الخطوة الاولى في هذا السبيل زيارة وزير خارجية العراق نوري السعيد فلسطين ومباحثاته مع قيادة الحركة القومية العربية التقليديين من ناحية ·· والمندوب السامي والامير عبد الله حاكم شرق الاردن من ناحية ثانية ··

وحسب بيان اللجنة العربية العليا بتاريخ ٢٦ آب ١٩٣٦ حقق نوري السعيد اتفاقا مؤقتا بين الادارة البريطانية وقيادة الحركة القومية التقليدية يقوم على أربعة بنود : تدعو اللجنة العربية العليا الى وقف الاضراب ·· أولا ، ومقابل ذلك توقف الحكومة الهجرة اليهودية مؤقتا حتى تضع اللجنة الملكية تقريرها ·· ثانيا ، وتقوم الحكومات العربية الثلاث وامارة شرق الاردن بالسعي لدى بريطانيا لانجاز مطالب فلسطين ·· ثالثا ، وتصفي الثورة على أساس الغاء الغرامات ووقف عمليات التفتيش واطلاق سراح المعتقلين والعفو العام ·· رابعا ·

ومن الممكن القول أن الملوك العرب الثلاثة عبد العزيز آل سعود (السعودية) والامام يحيى حميد الدين (اليمن) وغازي بن فيصل (العراق) والامير عبد الله (حاكم شرق الاردن) اندفعوا الى الميدان بعدد من العوامل من أبرزها : استنجاد أصحاب البيارات بهم لانقاذ موسم البرتقال الذي يمثل « ثروة البلاد الكبرى » · لقد تخوف أصحاب البيارات من أن يؤدي استمرار الثورة الى بوار الموسم ولهذا طالبوا الملوك بوقف

الاضراب •• وأيدتهم في هذا البرجوازية التجارية التى أصيبت بالاضرار ، وكافة العناصر التى تقلق عادة من تحرك الجماهير الثوري •

كذلك نشط الملوك بوحي من بريطانيا لانهاء الثورة لان هذه الثورة أصبحت تحرج الادارة البريطانية عسكريا وسياسيا في ظروف تميزت باحتدام الوضع الدولي نتيجة عدوانية الدول الفاشية (النازية)

ومن المؤكد أن مصلحة الامبراطورية البريطانية تلاقت مع مصالح الرجعية العربية عند الرغبة فى اجهاض الثورة باعتبارها حركة ديناميه لا يمكن أن تقف عند حد أو يقتصر تفاعلها على اقليم واحد •••

وعلى الرغم من أن مقترحات نوري السعيد لم تلب مطلب الحركة القومية الجوهري : مطلب الاستقلال ، وعلى الرغم من انها كانت اجراءات تسكين ، فقد هبت قيادة المنظمة الصهيونية لتحول دون أى تنازل قد تعتقد الامبريالية البريطانيه انه ضروري ••

هذا من ناحية

أما من الناحية الثانية فالقيادة الصهيونية كانت ترتبط ارتباطا وثيقا بأشد الامبرياليين غلوا فى الرجعية ، من الذين يقاومون المهادنات مع الحركات القومية العربية وغيرها من الحركات القومية غير العربية •• وهؤلاء مارسوا ضغوطهم حتى لا تكون هناك مهادنة

ثم لا بد من القول أن توازن القوى في المحافل الامبريالية البريطانية كان فى هذه الفترة قد بدأ يتغير الى حد

مـــا ٠٠ فمنذ وعد بلفور كانت هناك محافـــل امبريالية بريطانية لم تر في بنـــاء الوطن القومي اليهودى فى فلسطين مصلحــــة امبريالية لاعتقادهـــا أن ذلك قد يعرقـــل السيادة البريطانية في المنطقة ٠٠ وهذه المحافـــل اشتدت قـــوة نتيجة تحديات النازية والفاشية وشعورها بخطـــر المنافسة الامبريالية الالمانية ـ الايطالية في ظروف نمـــو الحركات القومية العربيـــة ٠٠

وهـــذا ما قصدنا اليه حين لاحظنا أن تـــوازن القوى فـــي المحافـــل الامبريالية تغير الى حد مـــا ٠٠ فظهر استعداد أشـــد لمهادنة الحركة القوميـــة العربيـــة في فلسطين بحيث تؤمـــن المصالح الامبريالية البريطانية على أحسن وجـــه ٠٠

ولكـــن من هذه المصالح البريطانيـــة الجوهريـــة تعزيز الصهيونية بحيث تقوم بدورهـــا الاستراتيجي بدون أن تعرقـــل الخطط البريطانية التي كانت قائمـــة على سياسة « فرق تسد » والتظاهر بدور الفيصل في « النزاع العربى ـ اليهودى » !!

ولم يؤد التغيير فى توازن القـــوى فى هذه الفترة الـــى أي تحـــول فى السياسة البريطانية ٠٠ ولهذا ما أن ضجـت القيـادة الصهيونية بالاحتجـــاج على مقترحات نوري السعيد العميـــل البريطاني الموثوق ، حتى أعلنـــت بريطانيا ، فى رسالة بعـــث بها وزير المستعمرات البريطاني اورمسبي غور الى الزعيم الصهيونى حايم وايزمن ، ان المنـــدوب السامى لم يفوض نوري السعيـــد « لان يعـــد بالخطوات التي ستلي وقف الاضطرابات وعلى الاخص فيما يتعلـــق بتوقيف الهجـــرة » ٠

وأدى « انفجار » هذه الرسالـــة على المسرح السياسي فـــي فلسطين الى اخفاق محـــاولات التسوية واستمـــرت الثـــورة

والاضراب العـــام ٠٠

بل ان عنـــف الثـــورة تصاعـــد بعد اخفاق محاولة التهدئة ٠٠ واشتـــدت اجراءات القمـــع أضعافا بعدها ٠٠

ولكن العوامـــل التي استنفرت تدخـــل الملوك في آب ١٩٣٦ لم تتلاشى بـــل تعمقـــت أهميتها وبدأت مظاهر الارهـــاق بين فئات واسعة من الشعب الذى تحمـــل طوال ستة أشهـــر أعبـاء ثـــورة مسلحة واضراب شامل بدون مساعـــدات اقتصاديـــة جديـــرة بمثـــل هذا الوصف ٠٠

ولذلك هين ناشـــد ملكا السعودية والعراق وأمير شـــرق الاردن ، في ٨ تشرين الاول عام ١٩٣٦ ، الشعب العربـــي فـــي فلسطين « الاخـــلاد الى السكينة حقنا للدماء معتمدين عـــلى حسن نوايا صديقتنا الحكومة ورغبتهـــا المعلنة لتحقيق العدل (١) » ٠٠ سارعت اللجنة العربية العليا الى اعلان قرارها ـ « بالاجمـــاع وبعد استشـــارة مندوبي اللجان القوميـــة والحصول على موافقتهم باتفاق الاراء » ـ « بدعـــوة الامة العربية الكريمـــة فى فلسطين للاخـــلاد الى السكينة وانهـــاء الاضراب والاضطرابات ابتـــداء من ١٢ تشرين الاول سنة ١٩٣٦ » ٠٠

وهكـــذا انتهى أكبـــر اضراب شهدته المنطقة في تاريخهـــا المعاصر ٠٠ وأعنف ثـــورة عرفتها فلسطين ٠٠ وبـــدأت البـــلاد تستعد لاستقبال لجنة التحقيق الملكية ٠٠

الوطـــن القومـــي

على الرغـــم من أن الثـــورة ، باعتراف الجميـــع ، اختلفت عن هبات ١٩٢٠ و ١٩٢١ و ١٩٢٩ فى انها حاربـــت ادارة الانتداب

البريطانى جوهريـــا ، فلم يكن من الممكـــن أن تتفادى الاصطدام هنا وهناك بعناصـــر من الوطن القومى اليهودى الذى ارتبـــط فى أذهان الجماهير بالامبريالية البريطانية عن طريـــق سياســـة قيادتـــه الصهيونية وممارستها المواليـــة للامبريالية والمعاديـــة للجماهير العربيـــة ..

وتراكمت صعوبات أمام تفادى الاصطدامـات بين قـــوى الثـــورة وعناصر من الوطن القومي اليهودى حين قذفت القيـــادة الصهيونية بقواها فى المعركـــة ضـــد كفاح الشعب العربـــي الفلسطينى ..

ويفتخـــر الصهيونيون بأنهم قاموا بـــدور فعال فـــي محاربـــة الثورة .. ويذكرون بالتحديـــد بكبرياء ـ بالاضافـة الى تجنيدهم رجال الهجاناه فى البوليس الاضافي ـ الفرق اليهودية الضاربة ، التى نظمهـــا ودربها رجـــل الاستخبارات البريطانـي الضابط أورد تشارلس وينجيت ، وأطلـــق عليها اسم « الفـرق الطائرة » ، وكانت هذه الفرق قد أخـــذت على عاتقهـــا حمايـــة المنشآت البريطانية ، وخاصـــة خطوط أنابيب النفط التابعـــة لشركة الاحتكار (آي.بي.سي) البريطانية ، والتصـــدي لقـوى الانصار العربية حين يكون ذلك ممكنا ..

ويعتقـــد أكثر من كاتب صهيونى أن « الفـرق الطائـرة » أو « فرق الليـــل الخاصـــة » ، بمحاربتها الفرق العربية المسلحة غيرت الوضـــع في البـــلاد جذريا فى مصلحـــة بريطانيـا . (تاريخ حركة العمال في اسرائيل ولتر بريوس ص ١٢٦) .

هذا على الصعيـــد العسكـــري ..

أمـــا على الصعيـــد الاقتصادى فقد تميزت هذه الفترة لا

بتوطيد الوطن القومي اقتصاديا واجتماعيا بشكل عام فحسب بل بتخطيط اقامة المواقع الاستراتيجية على شكل مستوطنات ٠٠ زراعية عسكرية انتشرت فى الجليل فى الشمال حتى النقب في الجنوب ٠

لقد كانت الصهيونية دائما تختار مواقع المستوطنات اليهودية في الريف لمزاياها الحربية ٠٠ ولكنها في عام ١٩٣٦ بدأت تنفذ مخططا مدروسا فأقامت ابتداء من عام ١٩٣٦ حتى عام ١٩٣٩ ٥٥ مستوطنة اشتركت جميعها بمعلمين : الحائط الذى يطوقها وبرج المراقبة القائم في وسطها ٠٠ وكان الهدف من ذلك تحويل المستوطنات الى معسكر حربي (بوريس شتيرن فى كتابه « الكيبوتس الذى كان » ص ٣) ٠

وعلى الرغم من أن التمايز داخل الحركة الصهيونية قد أدى قبل اندلاع الثورة الى انسلاخ غلاة الصهيونيين من جماعة حزب الاصلاح ، بقيادة جابوتنسكي ، عن المنظمة الصهيونية العالمية فالقيادة الصهيونية عامة انتهجت سياسة معادية لاماني الشعب العربي الفلسطيني ـ لا عسكريا واقتصاديا فحسب بل سياسيا أيضا بحيث سدت سبل التقارب بين الجانبين العربي واليهودى ٠٠

ولعل مقترحات التسوية التى عرضها بن غوريون على أحد رجال حركة القومية العربية موسى العلمي أبلغ دليل على هذا التوجه الصهيوني القائم على التطلع الى التوسع الاكبر ٠٠

فبن غوريون ـ حسب ما أورده ميخائيل بار ـ زوهر في كتابه « النبي المسلح » « سيرة حياة بن غوريون ـ اقترح على موسى العلمي فى نهاية عام ١٩٣٤ مساعدات اقتصادية

كبيرة لتحسين الاقتصاد العربـــي بشرط قبـــول العـــرب بقيام دولة يهودية في فلسطين ٠٠ وحين اعتـــرض موسى العلمي عـــلى شمول الدولة اليهودية شرق الاردن على اعتبـــار أن شرق الاردن عربيـــة قال بن غوريون : « اذا وافقتم على توطيـــن عدد غيـــر محدود من اليهود في شرق الاردن فعندئـــذ من الممكن أن نتفـــق على ترتيب خاص حـــول شرق الاردن أما مؤقت أو دائم » ٠٠

وهكـــذا فحتى حين كان اليهود يؤلفـــون أقليـــة فـــي فلسطين لا تتجاوز ٤٠٠ ألف انسان كانت الصهيونية « تدعو العرب الى التفاهـــم » !! على قيام دولة يهودية في فلسطيـــن وشـــرق الاردن وحرمـــان الشعب العربـــي الفلسطينـــي عمليا من حقوقه القوميـــة في وطنـــه ٠٠

مواقـــف متناقضـــة

في ١١ تشرين الثاني ١٩٣٦ وصلـــت لجنة التحقيـــق الملكية برياسة «ايرل» بيل الى فلسطين « لتتثبت » ــ كما جاء في براءة تعيينها ــ « من الاسباب الاساسيـــة للاضطرابات التى نشبـــت في فلسطين في أواسط شهر نيسان ولتحقـــق في كيفية تنفيـــذ صك الانتـــداب في فلسطين ازاء التزامات الدولة المنتدبـــة نحو العـــرب ونحو اليهود » ٠

وعليها كذلـــك أن تبحث في ظلامات الجانبين حتـــى اذا اقتنعت بوجودهـــا رفعت التواصي لازالتهـــا ٠٠

ومـــع أن اللجنة العربيـــة العليا أعلنت مقاطعتهـــا اللجنة في البدايـــة بسبب اصـــدار الادارة البريطانية تصاريح هجرة ، الا انها عـــادت وشهـــدت أمام اللجنـــة ٠٠ تلبيـــة لدعـــوة

الملـوك العـــرب !

وفى عرضها القضية انطلقت اللجنة العربية العليا ـ التـــي قرأ رئيسها الحاج أمين الحسيني بيانها أمام لجنة التحقيق ـ مـن « أن القضية العربية فى فلسطين هي قضية قومية استقلاليـــة لا تختلف في جوهرها عن قضايا العرب فى سائر البلاد العربية » ..

ولذلك استخلصت اللجنة العربية ، بعد أن استعرضت الكفاح العربي خلال الحـــرب العالميـــة الاولى ، وخيبـــة أمل الجماهير العربية من جـــراء وعد بلفور ، وأخطار الوطن القومي اليهـــودي على مستقبـــل الشعب العربي فى فلسطين .. استخلصت ضرورة « العـــدول عن تجربـــة الوطن القومى اليهدي الفاشلـــة التـــي نشأت عن وعد بلفور واعـــادة النظر فى جميع الامـــور التـــي نتجت عنها والتى الحقت الاضـــرار والاخطـــار بكيان العـــرب وحقوقهـــم » .. وطالبت اللجنة بوقـــف الهجرة ومنع انتقـال الاراضي العربيـــة الى اليهود .. وبحـــل القضية الفلسطينيـــة « على الاسس التي حلت عليهـــا قضايا العراق وسوريا ولبنـــان بانهاء عهـــد الانتداب وعقد معاهـــدة بين بريطانيا وفلسطيـــن تقوم بموجبها حكومة مستقلـــة وطنيـــة ذات حكم دستوري تتمثل فيها جميـــع العناصر الوطنيـــة ويضمن للجميع فيها العـــدل والتقدم والرفاهيـــة » .. (فلسطين العربيـــة بين الانتـــداب والصهيونية ـ عيسى السفرى ص ١٨٢ــ١٩٠) .

أمـــا الموقف الصهيونى فقد عرضه أكثر من شاهـــد أمـام اللجنة الملكية ولكـــن الشاهدين الرئيسيين كانا حايم وايزمـــن زعيم المنظمة الصهيونية وممثل القوى الجوهرية فى الوطن القومي اليهودى فى فلسطين .. وزئيف جابوتينسكى زعيم الاصلاحيين .

الاقلية الصهيونية الاشد غلواء وعدوانية ..

وفي شهادتـــه أمام اللجنة الملكية كان جابوتينسكى صريحـا على غايـــة الصراحـــة ..

لقـــد طالب بدولة يهودية بأكثريـــة يهودية في فلسطيـن وحدد فلسطين بالاقاليم القائمة على ضفتى نهر الاردن ..

ولم يخـــف جابوتينسكي تصـــوره مشروع الوطن القومي اليهودي استيطانا كولونياليا لا يمكـــن أن يأخذ بعين الاعتبـــار رغبات المواطنين أو حقوقهـــم ولذلك خاطب لجنـــة التحقيـــق بهـــذه الكلمات :

« وأخيـــرا يجب اتخاذ اجراءات لتأمين الامن . ان أمـــة مثل امتكـــم تمتلك خبـــرة استيطان كولونيالي هائلـــة تـدرك بالتأكيد أن الاستيطان الكولونيالي لا يتم بـدون نزاعات مـــع السكان المحليين ولذلك فلا بد من حمايـــة البلاد » ..

واقترح طبعـــا أن تمكن الادارة البريطانية في فلسطيـــن اليهود من اقامـــة قوات مسلحة تستطيع حمايـــة الامن ..

ونفى أن يؤدي مشروعه الى اصطدامات مع الاقطار العربيـــة المجاورة وأكـــد أن العـــرب سيغيرون رأيهم (في مقاومـــة الصهيونية) اذا بلغتهم بريطانيا الحقيقـــة (أي قرارهـــا اقامة دولة يهودية) فعندئذ سيعـــم الســـلام ..

طبعا رفض أن يقـــوم مجلس تشريعي قبـــل أن يصبـــح اليهود أكثريـــة وأعلـــن ان لا حاجـة لاستشارة العـــرب اذا قـــررت بريطانيا التخلـــي عن الانتداب ، تماما كما أعطـــت عصبة الامم بريطانيا مسؤوليـــة الانتـــداب وأصدرت هي وعد بلفور بـــدون الاهتمـــام بموقف العرب .. (جـــواب الـــى

ايرنيست بيفن ـ الشهادة التى قدمها فلاديمير (زئيف) جابوتينسكي امام لجنـــة التحقيق الملكية في شباط ١٩٣٧) ٠

أمـــا وايزمن فقد قسم شهادته الشاملـــة الى قسمين عالج حى احدهما « مبادىء الحركة الصهيونية الاساسية » وفي القســم الثاني ، مطالب القضية اليهودية الملحة ٠٠

ولخص وايزمن نفسه تفسيره وعد بلفور أمـــام اللجنـــة فأعلـــن أن القصد منـــه كان الوحي بأن : بلاد العـــرب للعـــرب ويهودا (أي فلسطين) لليهود وأرمينيا للارمن » ٠٠

ومضـــى وايزمن فوصف نشاطـــه فى تلك الفتـــرة وذكر أن اللجنة فاتحتـــه سرا بفكـــرة التقسيم وبذلك فتحت أمامـــه ممكنات كبـــرى واضاف انه استشار عددا من المتدينين قائـــلا لهم » أعرف أن الله وعد بفلسطين أبناء اسرائيل ولكني لا أعـــرف الحدود التي رسمها ٠ اني اؤمن أنها أوسع من الحـــدود المقترحـة ومن المحتمل أن تشمـــل شرق الاردن ـ ومـــع هذا فقد غضضنا النظـــر عن القسم الشرقي (شرقي الاردن أ٠ت) ويطلب منـــا الان أن نتنازل عـــن بعض القسم الغربي (فلسطين المعروفـــة أيام الانتـــداب أ٠ت) ، واذا كان الله سيفي بوعـــده لشعبـــه فى الوقت الـــذى يقرره فواجبنا نحن بني البشر الفقـــراء (اليه تعالى) الذين يعيشـــون فى عصر صعب أن ننقـــذ وبقدر الامكان ما يمكـــن انقاذه من اسرائيل « ٠

وبـــذا حدد وايزمن الفرق بينه وبين جابوتينسكي فالفرق لـــم يتناول الجوهر بل الاسلـــوب ٠٠ ووايزمن الواقعي كـــان يعتقد أن الافضـــل قيام دولة يهودية في قسم من فلسطين فـــي البداية حتى تتوفر الظـــروف لاقامتها على رقعـــة أوســـع ٠٠

« فالله سيفي بوعده في الوقت الذي يقرره » ..

وأدخل وايزمن في شهادته ذلك الملمح الذي استغلته الصهيونية أشد الاستغلال ، ملمح الدعوة لانقاذ ملايين اليهود الذين يتهددهم خطر النازية ..

وبذلك أكد وايزمن أن الصهيونية حتى في هذا الوقت المبكر من أواخر ١٩٣٦ لم تخطط مقاومة النازية ولم تستنفر اليهود دفاعا عن أنفسهم حيالها ، بل استخدمت الخطر عليهم لتهجيرهم الى فلسطين ..

وأعرب عن موقف الامبريالية البريطانية أحد دعاتها المعروفين هربرت سايد بوثام الذي قدم مذكرة الى اللجنة الملكية أكد فيها بدون مواربة أهمية فلسطين في الاستراتيجية البريطانية .. وكتب في مذكرته : « مهما كانت الاعتبارات الاستراتيجية هامة ابان الحرب (العالمية الاولى) فقد تضاعفت أهميتها كثيرا منذ ذلك الحين » .

وبعد أن لاحظ أخطار احتلال ايطاليا الحبشة على شريان المواصلات الامبريالي (قناة السويس أ٠ت) قال ان هذا يستدعي تحويل فلسطين الى معسكر .. وأضاف أن تطوير الطيران يجعل فلسطين صلة الوصل الطبيعية في شبكة المواصلات الجوية المدنية بين الشرق والغرب ويستدعي قيام قاعدة بحرية جوية تتحكم في البوابة المائية (السويس) التي تربط بين القارتين .. وأكد : « لو لم تأخذنا الحرب (العالمية الاولى) الى فلسطين لكان وضع السلام المضطرب يجبرنا على الذهاب اليها » ..

ونفى سايد باثوم في مذكرته أن تكون مصالح بريطانيا

مرتبطـــة مع المسلمين (!) وفى هـــذا رد على الامبرياليين الذين رأوا مصلحة الامبريالية البريطانية في تعاون مـــع الرجعية العربية او الاسلامية واكد ان مصلحة الامبريالية البريطانية في توطيدالوطن القومي اليهودى الذى لم يكن أمرا عابرا بل « حلفا وثيقا بين اليهود الصهيونيين والمصالـــح الامبريالية البريطانية » ..

ودعا سايد باثـــم ، بدون تحفظ الى مساعـــدة الاصدقاء الصهيونيين وعـــدم تعويض أولئك الذين قاومـــوا سلطـــة الانتداب . (مصالـــح بريطانيا الامبريالية في فلسطين بقلـــم هربـرت سايد بوثام صـــدر عام ١٩٣٧) .

قـرار اللجنـــة الملكيـــة

وقسمت اللجنـــة الملكية تقريرهـــا الى قسمين .. قســـم ضمنته اقتراحاتها العينية في حالـــة بقاء الانتـــداب البريطاني بشأن الهجـــرة والحكـــم المحلي وسائر القضايا اليوميـــة .. وقسم دعت فيـــه الى حل جـــذري اعتقادا منهـــا انه لا سبيـــل اخر للخـــروج من الازمـــة ..

أما الحـــل الجذري فكان التقسيم على اعتبار أن من غيـــر الممكن لاي من العنصرين حكم فلسطين بأسرهـــا .. وليس هناك ما يمنـــع أي (عنصر) منهما من تولي الحكم في قســـم منها ان كان ذلك ممكنا . « فالتقسيم يفسح المجـــال لتوطيـــد السلام في النهاية ، الامر الذى لا يتيحه أي مشروع اخر » ...

وتلخص مشـــروع اللجنـــة : بانهاء الانتداب البريطانـــي .. وباقامـــة دولتين فى فلسطين : عربية ويهودية .. وباقتطاع أجـــزاء من البـــلاد وضعها تحت سلطة الانتداب لحمايتهـــا بوصفها أماكـــن مقدسة ..

وكانت أبـــرز ملامـــح مشروع التقسيم :

* اقامـــة الدولة اليهودية في مناطـــق ساحل فلسطيـــن حيث احتشـــدت المستوطنات اليهودية ·

* اقامـــة الدولة العربيـــة من القسم الفلسطيني المخصص للعرب وشرق الاردن المتاخـــم له ·

* وضـــع الاماكن المقدسة : القدس ومنطقتها والناصـــرة ومنطقتها وطبريا وما جاورها تحت اشراف الدولـــة المنتدبـــة للمحافظة على قداستها وحريـــة الوصول اليها ··

واتضحت من هذا المشـــروع ملامـــح السياسة البريطانية لا فى فلسطين وحدها بل فى المنطقة كلها ··

* فقد استهدفـــت اقامـــة دولة يهودية ترتبط عضويا مـــع الامبريالية البريطانية وتتلاحم مع استراتيجيتها المنطقية والعالمية ··

* وفي الوقت ذاتـــه استهدفت اقامـــة « قاعدة عربية » ، بضم القسم العربي من فلسطين الى امارة شرق الاردن وتوطيـــد دولة يحكمها الامير عبد الله الهاشمي داعية سوريا الكبرى · (١)

* كما انها أبقـــت لها ، بحجـــة حماية الاماكن المقدسة « جيوب » سيطـــرة ، تستطيـــع الانطلاق منها لفرض ارادتهـــا على دول المنطقـــة ··

وتأكـــدت هذه الحقائـــق في بيان الحكومة البريطانيـــة الرسمي ، الذى أعقب التقريـــر ، وأكـــد « انصيـــاع » الادارة البريطانية لمقترحاتـــه ··

---

١ ـ عملت بريطانيا على تنفيذ مشروع سوريا الكبـــرى تحت اشراف الامير عبد الله لانها رات فيه طريقه لمد نفوذها الى سوريا ولبنان ولاقامة دوله تتحكم بها عن طريق اميرها العميل فى منطقة الشرق الاوسط ··

وجـــاء فى البيان الحكومي أن المشروع سيمكـــن العــرب « من الحصول على استقلالهـــم الوطنـــي والتعاون على قـــدم المساواة مع العـــرب فى البلاد المجـــاورة » وذلك في كل ما يؤول الى وحـــدة العرب ونجاحهم . كما انه سيخلص العـــرب نهائيـــا من خوف تسلط اليهود عليهم » ٠٠ كما انه سيـــؤدي الى قيـــام وطن قومي يهودي لا يحتمـــل وقوعه تحت حكم عربي ٠٠

وأثار التقريـــر موجـــة احتجاج عارمة ٠٠ ودفع الحركـــة القومية العربية الى مرحلـــة جديدة ٠٠ وكانت القضية الجوهرية : « ماذا سيكـــون بعد التقريـــر » ٠٠

الفصل الخامس عشر

اصداء التقرير والكتاب الابيض

لاحظنا أن نشوب ثورة ١٩٣٦ فى فلسطين كان امتدادا لنهوض حركات التحرر القومي فى أنحاء العالم العربي .. ولذلك فجدير هنا أن نذكر أن صدور قرار التقسيم كان فى وقت حققت فيه بعض هذه الحركات انجازات قومية هامة نسبيا ..

ففي العراق كانت في الحكم حكومة حكمت سليمان التى تميزت ببعض الملامح الايجابية المعادية للامبريالية .. كما قامت حكومات قومية فى كل من سوريا ولبنان في أعقاب اتفاقات عام ١٩٣٦ مع حكومة الجبهة الشعبية في فرنسا .. أما في مصر فحكومة الوفد ، وقد وقعت اتفاق عام ١٩٣٦ ، تمتعت بتأييد شعبي وكانت أقدر من غيرها على التجاوب مع الحركات القومية العربية ..

ثم ان مصر في هذه الفترة كما كتب داعية العروبة ساطع الحصري ، كانت قد اكتشفت عروبتها ونشطت في حركة النضال العربي ..

وانعكست حركة التضامن العربى في أصداء التقسيم في العالم العربي .. زعماء الحكومات العربية في

مصر وسوريا والعراق نددوا بالمشروع ودعـــوا كما دعا حكمـــت سليمان رئيس وزراء العراق الى تأليف حكومـــة عربيـــة فـــي فلسطين على أسس ديمقراطيـــة يكون دستورها كدستور العـــراق يؤلف بين العناصر ويحفـــظ حقوقهـــم ٠٠

وأبـــرزت الحكومة السورية في مذكرتهـــا الى قناصـــل الدول فى ٢١-٧-٣٧ أن التقسيم سيؤدى الى جلاء العـــرب عـــن بلادهـــم ٠٠ وستستمرالخصومـــات ويضطرب جبل الامن فـــي الشرق العربـــي ٠٠ وأضافت ان ذلك يقلـــق سوريا وبلاد العرب ولهـــذا فهي تدعو الى حـــل عادل يضمـــن وحدة البـــلاد ٠ (الدولـــة العربيـــة المتحـــدة الجزء الثالـــث أميـــن سعيـــد ص ٥٨٥-٥٨٦) ٠

أمـــا رئيس وزراء مصر مصطفى النحـــاس فقـــد أكـــد أن حكومته تحرص عـــلى توطيـــد صلات الود والاخـــاء وتبـــادل المنافـــع التى تربط بين مصـــر وبين الشعوب العربية ٠٠ ولذلك هى تتابـــع باهتمام ما يجـــري في فلسطين ٠٠ (المصـــــدر ذاتـــه) ٥٨٧ ٠

أمـــا في الاقطار العربيـــة الواقعة مباشرة في قبضـــــة الامبريالية الفرنسية مثـــل تونس والمغرب الاقصى والجزائـــر ، فقد قامت الحركات القوميـــة باستنكار التقسيم وجمـــع التبرعات لدعم النضال العربي في فلسطين (المصدر ذاته ص ٥٩٣) ٠

كما دعـــت اللجنـــة الوطنيـــة لمناصرة فلسطين والبـــلاد المقدسة فى المغرب الاقصى الـــى التماثل مع الشعـــب العربـــي الفلسطيني ، فتجاوبـــت معها الجماهير وتظاهـــرت في شتـــى المدن احتجاجا على التقسيم « وتمسكـــا بمبـــدأ الوحدة العربية »

(المصدر ذاتـــه ص ٥٩٤) ٠

وتجسمـــت حركة التضامـــن على الصعيد العربي العـــام تنظيميا فى مؤتمر بلودان (بجـــوار دمشق) الذى عقـد فـــي ٨ أيلول ١٩٣٧ بحضـــور ٤٠٠ ممثـــل من مختلف الاقطـــار العربيـــة وقـــرر :

« ان فلسطيـــن بلاد عربيـــة وان واجب العـــرب انقـاذ هذا القطر من الخطـــر المحيق به ٠٠٠ وهو يستنكـــر فكـــرة التقسيم ويؤكد أن القضيـــة يمكن أن تحل على أساس الغاء الانتداب ووعد بلفور وعقـــد معاهدة بين بريطانيا وممثلى العـــرب (!) فى فلسطين على غـــرار المعاهدة العراقية » ٠

كذلـك أعلـــن :

« يتعهـــد العرب فى فلسطين بأن يعامـــل اليهود كمـــا تعامـــل الاقليـــات فـــي جميـــع البـــلاد التـــي تطبـــق فيها مبادىء عصبة الامم » (المصدر ذاته ٦١١ـ٦١٤) ٠

وكـــان مؤتمر بلودان مؤتمرا على الصعيـــد الشعبـــي ، أما على الصعيد الرسمي فقـــد عقد في صيف ١٩٣٨ ، بمبـــادرة من لجنـــة برلمانية مصريـــة ، مؤتمر برلماني عربي فى القاهـــرة اشترك فيه نـــواب وشيوح من برلمانت مصـــر والعراق وسوريا ولبنان ينتسبـــون الى مختلف الاحـــزاب ، كما اشترك فيـــه ممثلو الحركة القوميـــة فى المغرب الاقصى واخر من فلسطيـــن ٠ وقرر المؤتمر تأييـــد مطالب الحركة القوميـــة العربيـــة فـــي فلسطين وميثاقها القومـــي : تأليف حكومة قوميـــة مستقلـــة ووقـــف الهجرة ومنـــع بيوع الاراضي ٠ (حول الحركة العربيـــة الحديثة الجزء الثالث محمد عزة دروزة ص ٢١٤) ٠

وسجلت حركة النساء في العالم العربي في هذه الفترة من نهوض حركة التضامن العربي نجاحا جديا بعقدها مؤتمرا نسائيا حضرته ممثلات من المنظمات النسائية في مصر وسوريا ولبنان وفلسطين وشرقي الاردن والعراق ، استنكر المظالم البريطانية في فلسطين وأيد الميثاق القومي ..

وهنا لا بد من وقفة عند سياسة الامير عبد الله أمير شرق الاردن (بنعمة بريطانية كما كانت تكتب بعض الصحف الوطنية) .

كتب أمين سعيد في كتابه الدولة العربية المتحدة :

« لزمت حكومة شرق الاردن الصمت ازاء مشروع التقسيم فلم تبد رأيها فيه ولم تسمح لانصارها بابداء رأيهم ، فكان سكوتها سببا في رواج اشاعات مفادها أن هنالك اتفاقا بين حكومة الاردن وحكومة فلسطين على تنصيب سمو الامير عبد الله ملكا على الدولة العربية الجديدة التي تنشأ في حالة تنفيذ مشروع التقسيم وضم الجزء الذي يبقى للعرب الى شرق الاردن » .. (الجزء الثالث ص ٥٩١) .

وفعلا كان هناك اتجاه واضح لتنفيذ هذا المخطط باعتباره الحل الافضل لتوطيد مواقع الامبريالية البريطانية في المنطقة .. فالامير عبد الله كان مغاليا في ولائه لبريطانيا وكان المتوقع منه أن يصفي الحركة القومية العربية المعادية للامبريالية في فلسطين ..

وازاء هذا المخطط ظهر أن من عوامل مقاومة التقسيم في بعض المحافل العربية تخوف السعوديين من ازدياد قوة الهاشميين الذين كانوا يحكمون العراق وشرقي الاردن .

لقد نشب الصراع السعودي ـ الهاشمي في أعقاب الحرب العالمية الاولى وبانتصار السعوديين على الهاشميين فى الحجاز وطردهم اياهم من شبه الجزيرة العربية ..

ومع هذا ففي هذه الفترة كان هذا الصراع قد بدأ يتخذ طابعا اخر أضفاه عليه نمو التناقض الامبريالي ..وتعدد جوانبه ..

ففى سنوات الثلاثين المتأخرة لم يعد الصراع يقتصر فى منطقة الشرق الاوسط على الدولتين بريطانيا وفرنسا بل بدأ يشمل الولايات المتحدة ..

فالاحتكارات الامريكية كانت قد تسربت الى شبه الجزيرة العربية ونتيجة لاكتشافها النفط في المملكة السعودية بدأت تمارس نفوذا سياسيا فيها مما عمق الصراع السعودي الهاشمي اذ تجاوبت فيه أصداء الصراع الانجلو أميركي الذى كان يشتد مع الايام .. خصوصا وان الامير عبد الله لم يكن يتحفظ في ولائه للامبريالية البريطانية .

ولكن الجماهير فى شرقى الاردن تحركت في اتجاه معاكس وأعربت عن تأييدها الشعب العربى فى فلسطين بمظاهرات جرت فى أكثر من مدينة وفي مناسبات عدة ... كما أن عددا من الثوريين فجروا أنابيب بترول شركة نفط العراق التى كانت تمر في أراضيهم (حول الوحدة العربية محمد عزة دروزة الجزء الثالث ص ٢١٥ـ٢١٦) .

ورسمت حركة التضامن في العالم العربي مع الشعب العربي فى فلسطين خطا فاصلا بين الصهيونية وجماهير الطوائف اليهودية التي تعيش فى الاقطار العربية ولذلك لم

تشهد هذه الاقطار تجاوزات على حقوق المواطنين فيها أو اعتداء عنصريا عليهم ..

الحركة القومية العربية في فلسطين

في عشية اصدار توصيات التقسيم انسحب ممثلو حزب الدفاع من الهيئة العربية العليا وفي البيان الذي أصدره في ٣-٧-٣٧ احتج الحزب على الاغتيالات السياسية التى كانت قد بدأت تتفشى فى البلاد وأعلن انها تقسم الجماهير . وكان واضحا ان حزب الدفاع يتهم قيادة الهيئة العربية العليا وخاصة المفتى الحاج أمين الحسيني رئيسها ، بتنظيم تلك الاغتيالات التى قضت على بعض رجال الحزب .

ولكن دلائل عديدة منها توقيت الانسحاب ونشاط رجال الحزب ابان الثورة أوحت انذاك ان قادة حزب الدفاع ، الذين جرفهم تيار الحركة القومية الثوري فى عام ١٩٣٦ ، فانتسبوا الى الجبهة القومية التقليدية ، كانوا على علم بتوصيات التقسيم ، وبوصفهم مهادنين للامبريالية البريطانية استعدوا للسير معها في مخطط اقامة دولة عربية جديدة من شرق الاردن والقسم العربي فى فلسطين بزعامة الملك عبد الله..

وجسم انسحاب حزب الدفاع من الهيئة العربية العليا تنظيميا من جديدة تجزئة الحركة القومية العربية التي توحدت ، بفضل ضغوط الجماهير ، فى جبهة موحدة اتخذت الهيئة العربية العليا شكلا لها ..

ومع هذا لم يستطع قادة حزب الدفاع في اللحظة الحاسمة الخروج علنا بتأييد مقترحات التقسيم .. بل أصدروا بيانا اعلنوا فيه انهم قرروا بالاجماع رفض مشروع تقسيم

فلسطين لانــه يعارض آمـال الامة ويضر بمصالحهـا ويمـزق وحدتها ويهـدم كيانها ·· وهم سيواصلـون « السعي لاستقلال فلسطين استقلالا يكفـل السيادة العربية ·· » (الدولة العربية المتحـدة الجزء الثالث أمين سعيد ص ٥٨٠) ·

وعـلى أساس الوثائـق يمكن القول أن الحركة القوميـة بكافة اتجاهاتها رفضت علنا مشروع التقسيم ·· أما الهيئة العربية العليا فرفضتـه في بيان أذاعتـه فى ٩ـ٧ـ٣٧ وأكدت فيـه ان « هذه البـلاد لا تخص عرب فلسطين بـل العالمين العربـي والاسلامي قاطبـة » (ص ٥٧٩ المصدر ذاتـه) ولهذا فعليهـم تقـع المسؤولية ومعهم يجب أن تجري المشـاورات ·

وتجـددت الثـورة المسلحـة بعنف أشـد ·· واتسعت اتساعا كبيـرا في عام ١٩٣٨ بحيـث اضطـرت الحكومـة البريطانية الى استخـدام الطائـرات والدبابات ومختلف أنواع المدفعيـة لقمعهـا ··

وقد نجحـت الثـورة فى تحريـر بعض المدن والمناطـق لفترة قصيرة وأقامت فيها ادارات محليـة ·· حتى القضـاء انتقل الى أيـدي محاكم أقامتها قيادة الثـورة ··

ومن المـدن التي تحـررت لفترة قصيرة نابلس وجنيـن وطولكرم ·· والقدس وبعض ضواحيها ··

وكتب في هذا الصـدد محمد عزة دروزة في كتابـه « حول الحركة العربيـة الحديثـة » : « وقد جاء يوم اضطـرت السلطات فيه الى نفض يدهـا من الحكـم داخـل المدينتين نابلس والخليل بـل والغاء المحاكم فى نابلس ونقـل ملفاتها الى الثكنة العسكرية خارج المدينـة » (الجزء الثالث ص ٢٠١) ·

وامتازت الثـــورة بعمـق جذورهـــا بين الفلاحين والفئات الشعبية ٠٠ فهؤلاء مدوهـــا بالقـوى المحاربـــة ٠٠

وهـــذا ما ذكـــره دروزة أيضا حين كتب : ان القرويين كانوا عماد الحركـــة الثوريـــة وان كان بعض المدنيين (سكـان المدن ، والمثقفين اشتركوا فيها ٠

وحتى بن غوريون لاحظ أن طابـــع الثـــورة تغير فكتـــب فى ٣ــ٨ــ٣٨ مقالا بعنـــوان « على ثـــلاث جبهات » أنه فى حيـن كانت « حركـــة الارهاب » !! (هكذا يصـــف الصهيونيـــون الثـــورة القوميـــة) فى البداية من صنع عناصـــر جاءوا مـــن العراق وسوريا الى فلسطين ، امتـــازت الفترة الثانية بمشاركـــة المواطنين العرب الفلسطينيين فى المعركـــة بشكـــل حاســـم ٠٠ (« اعادة ولادة ومصيرها » ، بن غوريون ص ٩٠)

وجاء في تقرير الحكومه البريطانية الى لجنة التحقيق الانجلو امريكيه في نهاية ١٩٤٥ ان حوادث العنف على انواعها ،من معارك في الجبال الى اغتيالات في المدن بلغت ٥٧٠٨ حادثة في عام ١٩٣٨ منها ٩٨٦ هجومـــا على البوليس والجيش و ٧٢٠ هجوما عـــلى المواصـــلات البرية و ٣٤١ حادثـــة تخريب فى السكك الحديدية و ١٠ حـــوادث تفجيـــر فى أنابيب شركة نفط العراق التـــي نقلت النفط من العراق الـــى مصنع التكرير فى حيفا وشاطـــىء البحر الابيض المتوسط ، و ٤٣٠ اغتيالا ومحاولـــة اغتيـــال ٠٠ ويذكر التقريـــر ٦٥١ حادثـــة هجـــوم على المستوطنات والاحياء اليهودية ولكن هذه الحـــوادث فى كثير من الاحيـــان كانـــت اصطدامات يهودية عربيـــة نجمت عن نشاط منظمـــة الدفـــاع الصهيونية التي عرفت « بالهجانا » ٠٠ وكما ذكرنـــا فقد أقامـــت

السلطات « الفرق الطائــرة » أو فرق الليل الخاصــة مــن « الهجانا » بقيادة رجــل الاستخبارات البريطاني وهــذه أخذت على عاتقها واجب حمايــة المنشآت البريطانية ولذلك سببــت بنشاطها حوادث اصطدامــات يهودية ـ عربية دخلت في التقريـر بوصفها هجومات على مستوطنات وأحياء يهودية ٠٠ كمــا دخلــت كــرات الجيش والبوليس على القرى العربيــة والاصطدامــات الناجمــة عن ذلك في باب هجومــات على الجيش والبــوليس ٠٠٠ (ص ٤٦) ٠

هذا لا يعني ان قوات الانصــار العربية المسلحــة لم تهاجــم المستوطنات انما يعنــي أن الثــورة ركزت نارهــا جوهريا على مواقــع الامبريالية البريطانية ولم تكن احترابــا يهوديا ـ عربيا بغض النظــر عن وجود انحراف في الحركــة القوميــة العربية حاول أن يجعلهــا كذلــك انزلاقا وراء سياســة الامبرياليــة « فــرق تســد » ٠

ولا بــد من القول أن قيادة الحركة الصهيونية التــي أعلنــت في بداية الثــورة سياسة « ضبــط النفس » لــم « تضبط نفسهــا » بــل حركت قواها « وقامت باجراءات فعالــة من التدخل والرد » (حركــة العمال الاسرائيليــة « ولتــر بريوس ص ١٢٨ ») ٠٠ وهــذا ينفي مزاعم القيــادة الصهيونية أن حــوادث تفجيــر القنابل فى أسواق حيفا والقدس ويافــا فى تمــوز ١٩٣٨ التى أودت بحيــاة عشرات المواطنين العــرب كانت من أعمــال « المتطرفين » !!

وفي هذا الصــدد تجدر الاشارة الــى نشاط الصهيونية المحمومــة فى تشويــه سمعة الحركة القومية العربيــة فــي

فلسطين على الصعيد الدولي لاخفاء حقيقة المعركة القومية التحررية ..

ومن وايزمن زعيم الحركة الصهيونية آنذاك حتى أصغر داعية انطلقت التصريحات تؤكد أن الثورة عبارة عن أعمال مرتزقة تمولهم الاموال الايطالية (التجربة والخطأ وايزمن ص ٣٩١) .

ورد القوميون العرب على هذا التزييف ، ومنهم من انتقد بصراحة بعض الاجراءات المؤسفة (الاجرامية في بعض الاحيان) التي وقعت خلال الثورة ـ وهي تقع في بداهة في أغلب الثورات .. وبذلك وضعوا الثورة في اطارها الحقيقي بوصفها حركة هزت الجماهية الى الاعماق وكانت فورة شعبية واعية .

ولكن ذلك لا ينفي أن جناحا في قيادة الثورة وقف على رأسه المفتي الحاج أمين الحسيني كان قد انحاز في تلك الفترة الى المحور الالماني ـ الايطالي .. وهذا الجناح في القيادة قام بذلك اما بدافع العمالة واما اعتقادا منه ان «المصلحة القومية» ! تتطلب التحالف مع أعداء الامبريالية البريطانية .

ولكن وصف الثورة « بالعمالة » كان تجنيا على الواقع وتشويها للشعب العربي الفلسطيني الذى كان يحارب لا من أجل ايطاليا أو ألمانيا بل من أجل استقلاله .. بل لقد كانت عواطف الشعب العربي في عام ١٩٣٥ مع الحبشة المظلومة التي حاربت للغزو الفاشي الايطالي ..

وقد استمرت الثورة خلال مرحلتها الثانية رغم هجوم السلطات البريطانية العنيف على الحركة القومية وتشديد

اجراءات القمع التى انتهجتها ..

وهكذا في هذه الفترة أعلنت السلطات (في ١ تشرين الاول ١٩٣٧) الهيئة العربية العليا واللجان القومية هيئات غير مشروعة واعتقلت المئات ونفت الى سيشل عددا من أعضاء الهيئة العليا والزعماء البارزين ، وهم أحمد حلمي باشا والدكتور حسين الخالدي وفؤاد سابا ورشيد الحاج ابراهيم ويعقوب الغصين .. أما المفتي وجمال الحسينى فقد فرا من البلاد .. (التقرير ص ٤٢) .

كذلك أقامت السلطات محاكم عسكرية في ١١ تشرين الثانى ١٩٣٧ أصدرت أحكاما مجرمة بحق النشيطين في الثورة ونفذت حكم الاعدام خلال سنتي ١٩٣٧ و ١٩٣٨ بأكثر من ١٠٠ عربي (التقرير ص ٤٦ و ٤٩)

موقف القيادة الصهيونية

لقد انطلقت القيادة الصهيونية عند تحديد موقفها من التقسيم من منطلقين هامين أولهما شعورها بضرورة تحقيق السيادة اليهودية .. فالسيادة أو اقامة دولة يهودية في فلسطين هي العنصر الجوهري في البناء الايديولوجي الصهيونى .. ولذلك كان بديهيا أن ترحب القيادة الصهيونية بالفرصة المواتية لتحقيقها حتى في جزء من « أرض الميعاد » ! خصوصا وان هذه القيادة كانت ترى أن اقامة الدولة اليهودية في جزء من « أرض الميعاد » سيكون بمثابة خطوة اولى نحو تحويل فلسطين كلها الى دولة يهودية . ولهذا في حين صرح بن غوريون انذاك « أرض اسرائيل لا تتجزأ » صرح وايزمن « ان النقب لن يفر » ... (اسرائيل على مفترق الطريق

كريستوفر سايكس ص ٢١٢-٢١٣) ٠

ثانيهما : ان التعاون مع بريطانيا يؤلف ، باصطلاح وايزمن ، حجر الاساس في السياسة الصهيونية ٠٠ (كتابه التجربة والخطأ ص ٣٩٣) ٠

وهذا كان يحمل في ثناياه استعداد القيادة الصهيونية على ربط مصيرها بالامبريالية البريطانية وتقديم القوات الصهيونية المسلحة للمساهمة في معركتها ٠٠

وأوحى بذلك وايزمن في رسالته فى نيسان ١٩٣٨ الى وزير المستعمرات انذاك أورمبسي جور معلنا عن وجود ٤٠ ألف مقاتل (في الهجانا) (المصدر ذاته ص ٣٩٦) ٠

ولكن ارتباط القيادة الصهيونية المقررة انذاك بالامبريالية البريطانية لم يلغ وجود تيار يرغب في جذب المنظمة الصهيونية ومشروعها في فلسطين الى جانب الامبريالية الاميركية التي كانت قد بدأت تتسرب الى الشرق الاوسط ٠٠

وهذا ما ظهر فى المؤتمر الصهيونى العشرين الذى عقد بين ٣و١٧ آب ١٩٣٧ فى بال ، سويسرا ٠٠ انذاك كان بين مقاومي دعوة وايزمن لقبول قرار التقسيم الوفد الاميركي (التجربة والخطأ ص ٣٩٦) الذى كان يهاجم البريطانيين على أنهم خانوا الامانة ولم يفوا بما وعدوا به فى تحويل فلسطين كلها الى وطن قومي يهودي ٠ ومع هذا لم يرفض المؤتمر فكرة التقسيم ٠٠ بل أعلن ان تقرير اللجنة الملكية اعترف ضمنا بأن غاية الانتداب الاساسية هي تأييد انشاء الوطن القومي اليهودى فى بقعة كان مفهوما عند اعطاء تصريح بلفور انها تشمل فلسطين التاريخية كلها بما فيها

شرق الاردن .

وأكد المؤتمر من جديد « الرابطة التاريخية » التي تربط الشعب اليهودي بفلسطين .. ثم لام حكومة الانتداب بسبب ترددها في تنفيذ نصوص الانتداب .. وخلص الى القول:

« يعلن المؤتمر أن مشروع التقسيم كما قدمته اللجنة الملكية غير مقبول . ويخول المؤتمر اللجنة التنفيذية لتدخل فى مفاوضات بهدف معرفة الشروط الدقيقة التى تقترحها حكومة جلالته من أجل اقامة دولة يهودية » .

« وعلى اللجنة التنفيذية في مثل هذه المفاوضات أن لا ترتبط بشيء لا باسمها ولا باسم المنظمة الصهيونية .. وفي حاله وضع مشروع محدد لاقامة دولة يهودية فعندئذ يعرض هذا المشروع على مؤتمر منتخب جديد للبث فيه (التجربة والخطأ ص ٣٨٧) .

ومن الواضح اذن ان القوى المقررة في المنظمة الصهيونية نجحت في أخذ موافقة منظمتها على مشروع تقسيم فلسطين أملت في أن يكون أفضل من المشروع الذى اقترحته اللجنة الملكية ..

وهذا لا يخفف من أهمية معارضة الاصلاحيين ، سلف حيروت ، (بقيادة جابوتنسكي) التقسيم انطلاقا من أيديولوجيتهم المغالية فى التطرف والقائمة على دولة يهودية في « أرض الميعاد » على ضفتي نهر الاردن .

وأثرت دعوة الاصلاحيين حتى في بعض العناصر من القيادة الصهيونية الموالية لبريطانيا فدعت الى اقامة دولة يهودية فى فلسطين كلها (مناحم اوسيشكين مثلا) وكان

الخلاف بينها وبين القيادة المقــررة بزعامــة وايزمن ، لا فــي الاهــداف بل حول الطــرق ، ٠٠ فوايزمن كان يعتقــد بالمراحل على اعتبار أن «النقب لن يفر » ٠٠ ومن الممكــن أن تمتد الدولــة فيما بعد الى خــارج الحدود المقــررة لها ٠٠

المحافــل الامبريالية البريطانيــة

ويصح القــول أن الامبرياليــة البريطانية ، وقد كانــت في وضع حــرج على الصعيــد الدولي كما أوضحنــا ، رأت ان الانتداب لــم يعد يصلح لمواصلــة تحكمها في فلسطين ، ولذلك لم تخــف أن هذا النظــام لم يعــد قابلا للتنفيــذ ـ أو غير عملي حسب تقريــر لجنة بيل ـ (التجربــة والخطأ ص ٣٨٩) ولهذا قدرت أن التقسيم قد يكون الشكل الافضل لكسب « ولاء » الطرفيــن : اليهودي والعربــي وضمــان وجودهــا حمايــة لمصالحهــا الامبراطورية ٠٠

وهــذا ما شرحــه اللورد ستركاند عند مناقشتــه المشروع في مجلس اللوردات ٠٠ قال : من المهم أن تحتفــظ بريطانيــا بأجزاء من فلسطين لتكــون هنالك وقايــة للبواخر المارة فــي البحر المتوســط الى البحر الاحمــر ٠

وأضاف : أن امتياز قناة السويس ينتهي في هــذا الجيــل والخطط والمشروعات موجــودة فعــلا لفتح قناة جديــدة عــلى موازاتها (اقترحت ذلك بعض العناصر الاسرائيلية عام ١٩٦٧) ، وفي مشروع التقسيم يجب أن تبقى الصحراء بأيدي بريطانيــا (النقب أ٠ت) فهي ، وان لم تكن هناك فائدة منها الان لبريطانيا ،فان قيمتها في المستقبــل قد لا تقــدر بثمن (١) ٠

١ ـ ولهذا بعد صدور قرار التقسيم عن الامم المتحدة في ١٩٤٧ بذلت بريطانيا كل جهد للابقاء على النقب في القسم العربي الذى خططت ضمه الى شرق الاردن ٠٠

ولكن من الصعب القول أن المحافل الامبريالية البريطانية كانت متفقة حول الخطة التي يجب اتباعها لضمان المصالح الامبريالية ..

فونستون تشرشل دعا الى تساهل الطرفين والتريث في الامر واللجوء الى عصبة الامم على اعتبار أن حفظ السلام بين الدولتين المقترحتين لن يكون سهلا ..

أما اللورد بيل فقد حدد ملابسات القضية وتعقيدها الناجم عن ارتباط العرب في فلسطين بالعالم العربي وتاثرهم به .. وانعزالية اليهود واستحالة خلق جنسية (قومية) فلسطينية توحد الشعبين ومزاحمة اليهود العرب بأساليبهم الحديثة مما يجعل التقسيم حلا أفضل لانه يحقق للشعبين حكما مستقلا ..

وأعرب اللورد هربرت صموئيل أول مندوب سام في فلسطين بعد الحرب العالمية الاولى وقيام الانتداب البريطاني فيها عن تفكير محافل امبريالية وصهيونية واسعة حين رفض مشروع التقسيم وقال : ان الواجب على انكلترا بموافقة فرنسا أن تشجع على انشاء مجموعة عربية كبرى متحالفة تبذل لها فلسطين المعاونة الاقتصادية كما أن على العرب أن يرضوا بأن يشترك العرب واليهود معا في تعمير شرق الاردن (٢) . (هذه المواقف لخصناها عن كتاب أمين سعيد الدولة العربية المتحدة الجزء الثالث ص ٥٩٥-٦٠٨ بعد أن

---

٢ - لقد كان هذا المشروع اساس مقترحات سورية الكبرى التي روجت لها بريطانيا ودعت لها بعد الحرب العالميه الثانيه واتخذت شكل الكتاب الازرق الذي طرحه على بساط البحث نوري السعيد سعيا وراء المصالح الهاشميه - الامبريالية البريطانيه .

قارناها مع غيرهـــا من المصادر الاجنبيـــة) ٠

التراجـــع عن التقسيم واصـــدار الكتاب الابيض

وتجاوبت لجنة سير جـــون ودهيد التي ألفتهـا الحكومـة البريطانية لتحديـــد وسائـل تحقيـــق التقسيم وشكلـــه مـع النقاش الذى دار في البرلمان البريطاني ، فأعلنـــت بعـد أن زارت فلسطين بين نيسان وتمـــوز ١٩٣٨ أن التقسيم غير عملـــي ولا يمكـــن تنفيـــذه وبذلكفتحت الطريـــق أمام الحكومة البريطانية لتقرر سياستها حسب المصالـــح الامبريالية المعروفـــة ٠٠

واجتمـــع الامير عبد الله ، وقد أدرك أن مشروع التقسيـم سابـــق لاوانـــه ، بلجنة ود هيد وفند أمامهـــا فكـرة التقسيم وقدم لها « مشروعا مفصـــلا لدولة موحـــدة تضـم شرق الاردن وفلسطين عـــلى أن يكـــون لليهود فيها استقلالهـــم الذاتي في مناطقهم مـــع مشاركتهم بنسبـــة عددهم في مؤسسات الدولـــة المركزيـــة وأن يكون لهم الحـــق بهجرة محدودة بنسبة معقولـة الى هذه المناطق » ! الحركـــة العربيـــة الحديثة محمد عـــزة دروزة الجزء الثالـــث ص ٢٢٣) ٠

وتخلـــت الحكومة البريطانية عن التقسيـــم حال اعـــلان لجنة ود هيد تقريرهـــا فى تشرين الثاني ١٩٣٨ ، اعتقادا منهـــا أن التقسيم في ظـــروف اشتداد عدوانيـــة المحور النازي ـ الفاشي يؤلـــف خطـــرا على مصالحهـــا في العالم العربي الـــذي هب يعـــارض التقسيـــم ٠٠

ولهـــذا ليس تجنيا على الحقيقـــة القول أن تجـــدد الثورة العربية فى فلسطين احتجاجـــا على التقسيم وعـــلى مجمـــوع سياســـة الانتـــداب البريطاني أسهم اسهاما جوهريـــا في تجميد

مشـــروع التقسيم ولو مؤقتـــا ٠

ومـــرة أخرى اقترحت بريطانيا اجـــراء مفاوضات ثلاثية ــ ثنائيـــة ٠٠ ثلاثية بمعنـــى أن أطرافهـــا ثلاثـــة : بريطانيـــا والقيادة العربيـــة والقيادة الصهيونية ٠٠ وثنائيـــة بمعنى أن الاطراف الثلاثة لا يجلسون حـــول مائدة واحـــدة ، بل تجري المفاوضات بين ممثلـــي بريطانيا وقيادة الحركة القومية العربيـــة من ناحية وبين ممثلي بريطانيا والقيادة الصهيونية من ناحية ثانية ٠

ويعتقـــد الكاتب كريستوفر سايكس في كتابـــه اسرائيل على مفترق الطريـــق » ان بريطانيا دعت الى هـــذا المؤتمر (الذى عقـــد في شباط ــ اذار ١٩٣٩) وهـــي عارفة انه سيخفـــق لتتـــذرع باخفاقـــه لفرض حلولها ٠ (ص ٢٣٣) ٠

وتجسمـــت في هذا المؤتمـــر حصيلة التطـــور في المنطقة ٠٠ فقد دعت بريطانيا لحضـــور المؤتمر حكومـــات الـــدول العربيـــة فى المنطقة واشتركت في المؤتمـــر فعلا حكومات العراق ومصر والعربية السعوديـــة واليمن ٠٠٠أما سوريا ولبنان فأهملـــت بريطانيا دعوتهما تجنبا للاحتكـــاك بفرنسا ٠٠

طبعا من الناحيـــة الثانية كانت الوكالـــة اليهودية التـــي بعثت بوفدهـــا الى المؤتمر ، تمثـــل لا يهود فلسطين فحســـب بـــل منظمـــات صهيونية دولية تزعـــم أن وعد بلفـــور كـــان للشعب اليهودي بأسره وأن هـــذا الشعـــب يطالـــب بحقوقـــه في فلسطين وأن حكومـــة الانتداب البريطانية مسؤولـــة أمـــام الطوائف اليهودية عامة عن ذلك ٠

وأخفـــق المؤتمـــر فعـــلا ٠

واعتقـــد القادة العرب أن بريطانيا « قبلت بوجهـــة نظرهم » !

الداعية الى انهاء الانتداب وتأسيس حكومة فلسطينية مستقلة ترتبط بمعاهدة مع بريطانيا • (حول الحركة العربية الحديثة الجزء الثالث محمد عزة دروزة ص ٢٣٥ـ٢٣٦) •

وأجرت بريطانيا اتصالات مع ممثلي الطرفين وأصدرت الكتاب الابيض في أيار عام ١٩٣٩ •

لقد كان الكتاب الابيض لعام ١٩٣٩ عودة الى الكتاب الابيض لعام ١٩٢٢ الذى أعلنت فيه بريطانيا انهالا تفهم من عبارة انشاء وطن قومي يهودي التى جاءت في وعد بلفور ونظام الانتداب تحويل فلسطين الى دولة يهودية •

وأعلنت بريطانيا انها ترى واجبها في قيام دولة فلسطينية فى النهاية ولذلك جاء فى الكتاب الابيض :

« ان تشكيل دولة مستقلة في فلسطين والتخلي التام عن رقابة الانتداب فيها يتطلبان نشوء علاقات ما بين العرب واليهود من شأنها أن تجعل حكم البلاد صالحا وفي حيز الامكان » أما نمو مؤسسات الحكم الذاتى فيجب أن تسير على قاعدة النشوء والارتقاء •

وعينيا اقترحت بريطانيا في كتابها الابيض :

* أن تحتفظ بريطانيا بسلطتها التامة في فلسطين في فترة الانتقال بين الانتداب والاستقلال •

* خلال عشر سنوات تقوم حكومة مستقلة ترتبط مع المملكة المتحدة (بريطانيا) بمعاهدة تضمن للقطرين تطلباتهما التجارية والحربية فى المستقبل ضمانا مرضيا » •

* ستنفذ بريطانيا المشروع « رضي اليهود والعرب أم لم يرضوا » •

اما بشأن الهجرة فقد أعلن الكتاب الابيض أن القدرة الاقتصادية على الاسيتعاب لن تكون العامل المقرر في تقرير الهجرة ، فهناك أيضا مخاوف العرب ، ولذلك اقترح ادخال ٥٠ ألف مهاجر بمعدل ١٠ الاف مهاجر سنويا خلال خمس سنوات يضاف الى ذلك ادخال ٢٥ ألف لاجيء يهودى يفرون من الاضطهاد ٠٠ وبعد ذلك تكون الهجرة بموافقة العرب ٠

أما بشأن الاراضي فقد قرر الكتاب الابيض تحويل المندوب السامي صلاحيات تنظيم انتقال الاراضي (أو منعه) الى المنظمات الصهيونية على ضوء حالة المزارعين العرب ٠

أصداء الكتاب الابيض

لقد سارع محمد محمود رئيس وزراء مصر انذاك ، ومن العناصر المعروفة بمهادنتها الامبريالية البريطانية ، الى التصريح غداة صدور الكتاب الابيض بأنه « لا يستطيع أن ينصح عرب فلسطين بالرضاء به » ٠٠ كما وقفت الحكومة العراقية والملك سعود موقفا مماثلا ٠٠ (حول الحركة العربية الحديثة ج ٣ دروزة ٣٣٩) ٠

وبدأ يتضح ان هؤلاء الحكام العرب المشبوهين انما يتاجرون بالقضية الفلسطينية لكسب تأييد جماهيرهم ولاستخدام ذلك فى الصراع الدائر بين تكتلاتهم ٠٠

اما الهيئة العربية العليا فأصدرت بيانا سجلت فيه على الحكومة الانجليزية تسليمها نظريا بمطالب العرب وانتقدتها على الغموض في النصوص وعلى تعليقها انهاء الانتداب وتأسيس الدولة الفلسطينية على رضاء اليهود ورغبتهم في الاندماج

في الخطـــة الاستقلالية مؤكـــدة أن اليهود سيعملـــون كل مـا يستطيعـــون على عكس ذلك لاحباط هذه الخطط (المصـــــدر ذاتـــه ص ٢٣٩) ٠

أما القـــوى الديمقراطية فقـــد رأت فى الكتـــاب الابيض لعام ١٩٣٩ نجاحـــا حققتـــه تضحيـــات الجماهير ودعت الـــى القبول به بوصفـــه خطوة على الطريق التحـــرري ٠٠

ولاحظـــت هذه القـــوى ان الجماهير العربيـــة ارهقهـــا النضـــال الثوري منذ عام ١٩٣٦ وكان لا بـــد لها من أن تتراجع بانتظام في ظـــروف نجاحات جزئية حتى تكـــون أقـــدر عـلى الكر من جديـــد ٠٠

ومن الممكـــن القـــول أن مجـــرد التخلي عن التقسيـــم ودعوة قـــادة الحركة القومية العربيـــة الى المفاوضـــات كـــان لحظة مناسبة لوقـــف الكفاح المسلـــح بانتظام ٠٠

وعـــلى هذا الضـــوء لم يكن من قبيـــل المصادفة ان النشاط الثورى هبط بعد الكتاب الابيض عـــلى الرغم من أن القيـــادة القوميـــة دعت الى مواصلتـــه ٠٠

ويســـود الاعتقاد أن الثورة في الربـــع الاخيـــر من عـــام ١٩٣٨ تدهـــورت تنظيميا وسياسيا وفقـــدت قاعدتها الجماهيرية ـ والحمـــاس الذى رافقها في بدايتهـــا ٠٠ لقد كانت القيـــادة المقررة تحـــاول المد بحيـــاة الثورة اصطناعيـــا واستخدمت في سبيـــل ذلك أسلـــوب الاغتيالات التعسفيـــة التى مزقت الوحدة القوميـــة التى تجلت في عامي ١٩٣٦ و ١٩٣٧ ـ المرحلـــة الاولى من الثـــورة والقسم الاكبـــر من عـــام ١٩٣٨ ـ المرحلة الثانية فـــي الثـــورة ٠

ان محاولـة مـد الثورة بالاغتيالات لم يمثـل مصلحـة قوميـة انما عبر عن مصلحـة الدول المحورية (ألمانيا وايطاليا) التى كانت ترغـب في خلـق المصاعـب وتكديسهـا أمـام الامبريالية البريطانية المنافسـة ٠

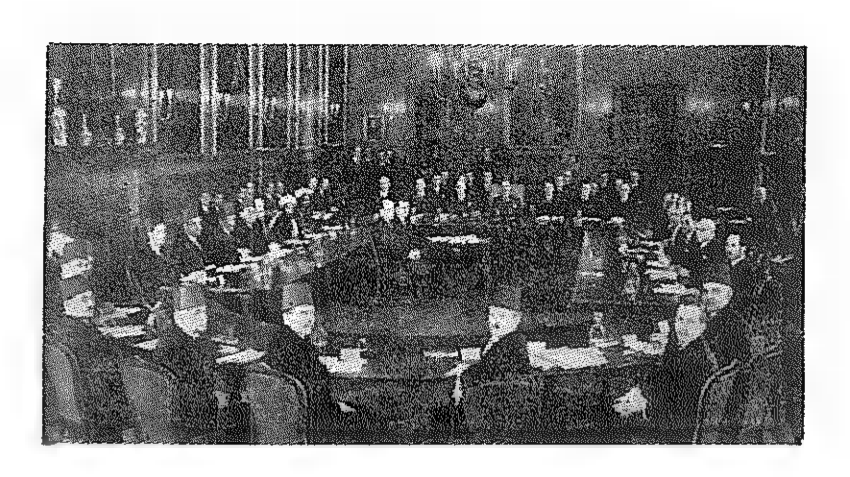
ولكـن هذه « الثـورة الاصطناعية » تبـددت شيئا فشيئا لعدم وجود جذور لها وتوقفت عند نشوب الحرب العالمية الثانية ٠

ويستـند موقف الديمقراطيين المورخ محمـد عـزة دروزة ـ الذى كان أيضـا قائـدا قوميـا ـ فكتب أن الكتاب الابيض ماشى الميثاق العربـي شوطا غير يسيـر ٠٠ وان قبول الانجليز بمبـدأ قيام دولة فلسطينية بأكثريـة عربية كان نجاحا عظيما وأن الكفاح العربي تكلل بالنجاح (المصدر ذاته ص ٢٤٠) ٠

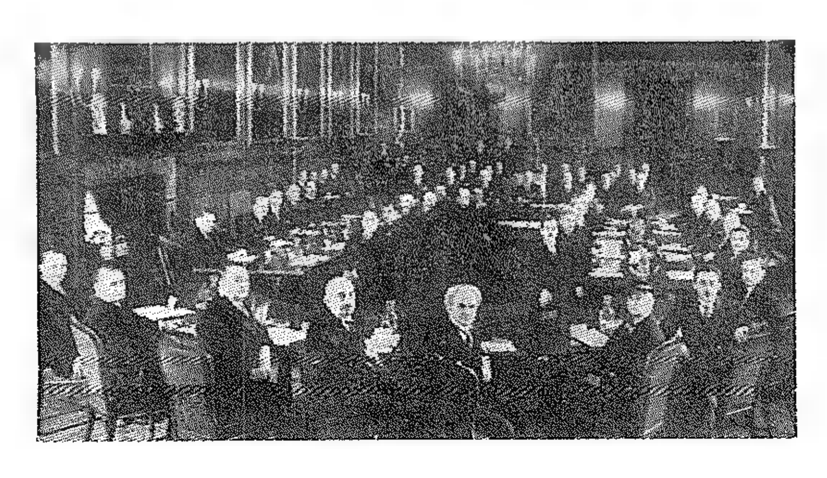
واحتجـت القيادة الصهيونية احتجاجـا شديـد اللهجـة على الكتاب الابيض ورفضتـه وأعلنت ما يشبـه العصيان المدني احتجاجا عليه ودعت التجمعات فى الكنس الى حلف اليمين التالي :

« يعلـن السكـان اليهود أمام العالم ان هذه السياسـة الخائنة لا يمكـن التسامح معها ٠ سيحـارب السكان اليهـود هذه السياسة الى الحـد الاقصى ولن يضنوا بالتضحيات لعرقلتها والقضاء عليها ٠ ولـن يشترك أي فـرد من السكـان اليهود في خلـق أي أجهـزة ادارية عـلى أساس هـذه السياسـة ولن يتعاون معها أحـد » ٠

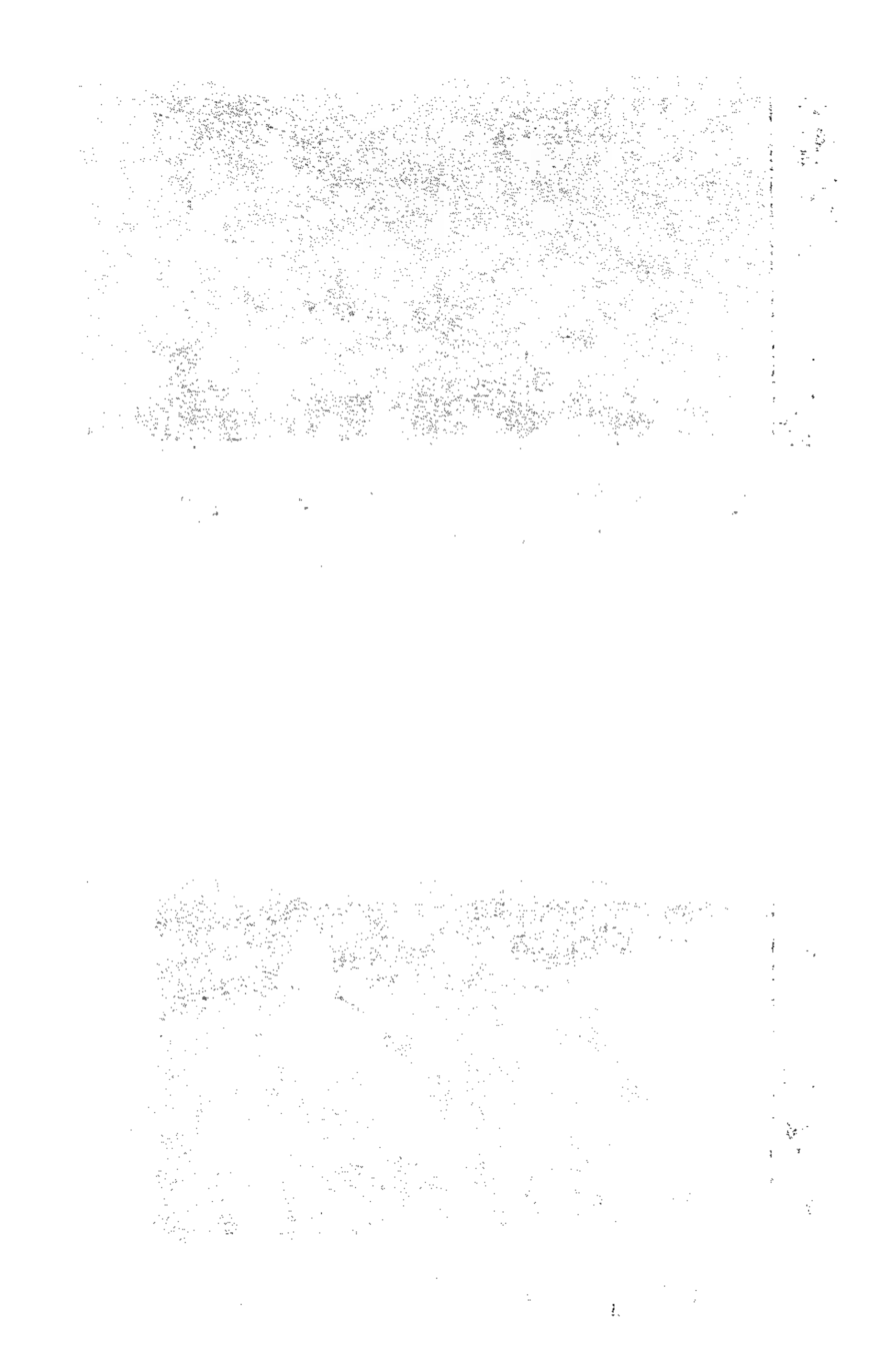
« ان السكـان اليهود لن يعترفـوا ولن يقبلوا بأيـة قيود عديمة الرحمـة على الهجرة اليهودية الى بلادهم ٠ ولا توجد قـوة فى العالم تستطيـع القضاء على حـق اخواننا الطبيعـي فى دخـول بلاد الاباء من أجـل اعادة بنائها والعيش فيهـا ٠



الوفد العربي في مؤتمر لندن الذي دعت اليه الحكومة البريطانية
لتظهر كفيصل في الصراع بين العرب واليهود



الوفد الصهيوني في مؤتمر لندن المذكور اعلاه الذي عقد سنة ١٩٤٦



سيجـــد الذين بلا مأوى طريقهم هنا وكـــل يهودي في هذه البلاد سيستقبلهم » • (سقوط وصعود اسرائيل ـ وليم هل ـ ص ٢٠٥)٠٠

وجـــرت مظاهـــرات فى أنحاء مختلفة من البـــلاد وعقـــد المؤتمر الصهيوني الحادي والعشرين في شهـــر آب عام ١٩٣٩ وأعلـــن مقاومتـــه الكتاب الابيض وأنكـــر شرعيته ٠٠ ولكنـــه ازاء الاخطار التى كانت تلوح في الأفـــق وخطر انـــدلاع الحرب أعلـــن المؤتمر تأييـــده لبريطانيا دفاعا عن الديمقراطية •

ولا يمكـــن تحديـــد لحظة تحول القيادة الصهيونية مـــن تركيز الاعتماد على الامبرياليـــة البريطانية الى تركيز الاعتمـــاد على الامبريالية الاميركية ٠٠ ولكـــن من الممكـــن القول أن صدور الكتاب الابيض ، الذى كما قلنا أخذ بعين الاعتبـــار الاوضـــاع الدولية ـ كما ارتبطـــت بمصالـــح بريطانيا ـ وأراد احبـــاط مساعي الامبريالية الالمانيـــة والايطالية ، أســـرع في عمليـــة التحـــول خصوصا وان الولايات المتحـــدة كانت قد دخلت الميدان فى الشرق الاوســـط وبدأت تأخـــذ فى الحساب الصهيونية فى تخطيـــط سيطرتهـــا وتقليص سيطـــرة منافسيها البريطانيين في الدرجـــة الاولـــى ٠٠

ومـــن بوادر هذا الامر أن يقوم السفير الامريكـــي فـــي لندن ، بأمـــر من الرئيس الامريكي (روزفلت انـــذاك) ، بتحذير الحكومـــة البريطانية من نتائـــج الكتاب الابيض السيئة على الرأي العام الامريكي ! (المصدر ذاته ص ٢٠٦) •

ووجـــدت الصهيونية أن من أشـــد أسلحتها أثرا : التلويح بمصائب أبناء الطائفة اليهودية من جـــراء لاساميـــة النازيـــة البربريـــة •

وعلى هذا الوتر ضرب أنصار الصهيونية في الدول الامبريالية .. ودعوا الى حماية اليهود من الالام وفتح أبواب فلسطين أمامهم . (المصدر ذاته - خطاب هربرت موريسون - ص ٢٠٦) .

وفي هذه اللحظة تكشفت مرة أخرى لا مبالاة القيادة الصهيونية بمصير اليهود عامة وتركيزها نشاطها على شيء واحد : تهجيرهم الى فلسطين ..

وجسم مؤتمر « ايفيان » هذه اللامبالاة المستهترة بحياة اليهود . وكان قد عقد في ٦ تموز ١٩٣٨ وحضرته وفود من ٣١ دولة وسمحت حتى ألمانيا النازية لوفد يهودى بحضور المؤتمر وذلك لبحث قضية اللاجئين اليهود الذين كانوا يفرون من أمام النازية .

صحيح لم يتحمس ممثلو الدول لفتح أبواب بلادهم أمام اللاجئين من البربرية النازية ، ولكن الولايات المتحدة أعلنت موافقتها على دخول ٣٠ ألف سنويا الى بلادها وجمهورية الدومنيكان وافقت على دخول ١٠٠ لف من أولئك اللاجئين .

وكان من الممكن توليد ضغوط على الدول الاوروبية لتوسيع الابواب أمام اولئك اللاجئين .

ولكن الصهيونيون قاطعوا المؤتمر ولم يقلقهم عدم نجاحه .. فمنذ البداية اعتبروا هذه المبادرة بلا مبالاة وعداء ، فالاتجاه كله لا يتوافق مع روح الصهيونية ، كما كتب كريستوفر سايكس : (كتابه : اسرائيل على مفترق الطرق - ص ٢٢٣-٢٢٨) .

وأضاف : « فلو قامت أمم الدول الاحدى والثلاثين

بواجبها واستضافت أولئك الذين كانوا فى أمس الحاجة لضيافتها لخف الضغط على الوطن القومي ولهبط الحماس الصهيوني فى فلسطين وهذا اخر شيء كان يرغب فيه القادة الصهيونيون ·· وحتى في الايام القادمة الاكثر هولا لم يخف (هؤلاء القادة) عند محادثتهم الاغراب انهم لا يريدون نجاح الاستيطان خارج فلسطين » (ص ٢٢٨) ·

وفعلا عرقل الصهيونيون كل شيء سوى الهجرة الى فلسطين ·· وبسبب ذلك فوتوا خلال الحرب العالمية الثانية فرصا عديدة لانقاذ الاف اليهود من الجحيم النازي ·

ودافع جيمس ب· واربورغ عن هذه السياسة فكتب أن الصهيونيين لم يحضروا (المقصود رسميا) مؤتمر ايفيان ولم يظهروا أي اهتمام باخفاقه لانهم « لم يرغبوا فى أن يذهب اليهود الاوروبيون الذين يستطيعون الهرب الى أقطار مختلفة، كانوا يريدونهم أن يأتوا الى فلسطين · ان موقفهم القاسي لم يغير شيئا لان العالم الغربي كان يغلق أبوابه أمام ضحايا الاضطهاد النازي » (تيارات متضاربة في الشرق الاوسط ـ ص ٩٥ ـ ٩٦) ·

ان دعاة الصهيونية يتجاهلون ما كان يمكن أن يتحقق نتيجة النضال الشعبي على الصعيد العالمي ولهذا يختفون وراء مثل هذه الاقوال ·

والحقيقة أن الصهيونية في ممارستها لم تكن تتورع عن شيء فى سبيل تحقيق أهدافها ·· ولهذا لم يكن غريبا أن يبعث بن غوريون في أيام مؤتمر ايفيان مبعوثه « يهودا تاينبوم » الى بولونيا اللاسامية لشراء السلاح وتهريبه الى

وهكذا وصلت قضية فلسطين الى مرحلة خطيرة في عشية الحرب العالمية الثانية ..

وأمر واحد لم يعد خافيا ، لقد أدت ثورة ١٩٣٦ الى مزيد من العزلة الاقتصادية بين الشعبين وبذلك عمقت الغربة السياسية القائمة بينهما منذ البداية ..

الفصل السادس عشر

قرار تقسيم فلسطين وقيام دولة اسرائيل

بنشـــوب الحـــرب العالمية الثانية في صيف ١٩٣٩ واجهت الانسانيـــة وضعا خطيـــرا ‥ فألمانيا النازيـــة التى جسمـــت أعنـــف امبريالية عرفها التاريخ انـــذاك دشنت بهجومها الغادر على بولونيا محاولـــة السيطـــرة عـــلى أوروبا اولا والعالم ثانيا ‥

وبعـــد فترة من المناورات سميـــت « بالحرب الصورية » ، وحاولت خلالها ألمانيا النازيـــة جر فرنسا وبريطانيا وراءهـــا واخضاعها لمخططاتها بـــدون حـــرب شنت ألمانيا النازيـــة حربها الصاعقـــة في أوروبا الغربية واحتلت هولندا وبلجيكا والنرويـــج وفرنسا وبـــدأت تـــدق بغاراتها عـــلى أبواب بريطانيا التـــي احتمت وراء البحـــور التي تحيـــط بها لتصـــد الغزوة ‥

وتسارعـــت الاحـــداث ‥ وقـــرر التناقض الامبريالي من ناحيـــة ‥ ونضـــال الشعوب والقوى التقدميـــة ضد النازية من ناحيـــة أخرى توزيـــع الدول والشعوب على جبهتي المعركة ‥

وهكـــذا وقف محـــور مكافحـــة الشيوعية الذى تالـــف من ألمانيا النازية وايطاليا الفاشية واليابان العسكريـــة والعناصـــر المغرقة فى الرجعيـــة في ناحيـــة ‥ والاتحاد السوفييتـــــي والولايات المتحدة وبريطانيا والشعوب عامة في ناحية مقابلة ‥

لقد وضعت الحرب ، الانسانية ، امام خيار مصيري .. فاما أن تستسلم أمام بطش أعنف امبريالية وحشية عرفها التاريخ حتى ذلك الوقت ، واما أن تقضي على هذه الكتلة الامبريالية الشريرة فتخط صفحة جديدة من التاريخ بحيث تفيض بممكنات التطور الايجابي ..

لقد أصبحت تلك الحرب الان جزءا من التاريخ الانساني .. ونتائجها الديناميـة ـ بعد هزيمة النازية ـ تتفاعل مع الاحداث حتى اليوم .

والامر الهام هنا ان اندلاع الحرب العالمية الثانية أسهم في وقف الطلقات الاخيرة التى حاولت بها الرجعية العربية ، المتساوقة مع النازية ، الابقاء على وضع ثوري معاد لبريطانيا في فلسطين ..

وهذه الحقيقة على غاية من الاهمية فدعاة الصهيونية والمحافل الامبريالية في دول غربية عديدة قد نسجت أسطورة وضيعة زعمت فيها أن الشعب العربي الفلسطيني ساند النازية في الحرب العالمية الثانية ..

وقد اعتمدت في هذا على أسلوب التزييف الرجعي التقليدي القائم على دفع شعب بأسره بصنيع يقوم به نفر من الزعماء ..

صحيح ان مفتي القدس ، الحاج أمين الحسيني انتسب الى محور النازية وخدم مقاصدها .. ولكن الصحيح أيضا أن الشعب العربي الفلسطيني ـ باعتراف ادارة الانتداب البريطاني ـ رفض دعوة المفتى للقيام بتمرد واستنكرت صحافته العربية ـ حتى التقليدية منها ـ الغارة على تل أبيب

التى وقعت انـــذاك · (تقرير فلسطين للجنة الانجلو ــ أمريكية ١٩٤٥ ــ ١٩٤٦ ص ٦٠) ·

واقتربت الحـــرب في يوم من الايـــام الى فلسطيـــن ، حين وصلـــت القوات الالمانيـــة بقيادة روميل الى « العلمين » كما أحســـت بعض المدن مثل حيفا بالحـــرب أيام الغارات الجوية التى تعرضـــت لها وخاصـــة حين بدأت القوات البريطانيـــة والفرنسية الحـــرة احتـــلال سوريا ولبنان لانتزاعهـــا مـــن سيطرة حكومة فيشي الفرنسية المتهاودة مع ألمانيا النازيـــة ·

ولكـــن لم يكتـــو شعبا فلسطين العربي واليهودي بنـــار الحرب ، وكانت سنوات الحرب سنوات انتعاش اقتصادى كبيـــر بسبب نفقـــات القـــوات المسلحة البريطانية الوفيـــرة التـــي عسكرت فى البلاد وبسبب حاجات المجهـــود الحربـــي المتعاظمـــة التى فرضت على بريطانيا تعديل سياستها القديمـــة ، التـــى هدفت الى الابقاء على البـــلاد سوقا لسلعها الصناعية ، فمكنـــت الصناعات المحلية من التطـــور لسد حاجات البلاد ··

وكان من الطبيعي أن تستفيـــد من هذا الوضـــع عـــلى نطاق واســـع الصناعـــة فى القطاع اليهودي اذ كانت أكثـــر تطورا لانها لم تتعرض الى القـــدر ذاته من الضغوط الامبرياليـــة ومثلت في بعض القطاعات (الاسمنت والزيوت والصابون) تعاونا رأسماليا بين احتكارات بريطانية ورأسماليين يهود محليين ·

ولذلـــك كانت حصيلـــة التطور الاقتصادي في نهايـــة الحرب العالميـــة الثانية في عام ١٩٤٥ ازدياد التفاوت بيـــن القطاعين العربي واليهودي بحيـــث أصبح القطاع اليهودى يحتـــل مكان الصـــدارة فى حياة البلاد الاقتصاديـــة وبالتحديـــد في

ميداني المال والصناعة ٠

وحسب تقرير حكومة فلسطين بلغت احتياطات البنوك التى يمتلكها العرب في ١٩٤٥ ٣ر٩ مليون جنيه ، فى حين بلغت تلك الاحتياطات التى يملكها اليهود ٣ر٥٠ مليون جنيه ٠٠ (ص ٥٦٥) ٠

أما الاموال المودعة فكانت النسبة ٣ر٣٩ مليون للعرب و ٧ر١٦ مليون لليهود ٠٠ (ص ٥٦٦) ٠

وكان التباين عميقا فى ميدان الصناعة ففي حين بلغت منشآت العرب ٥٥٨ر١ منشأة (وجلها صغير) برأسمال مليونين من الجنيهات بلغت منشآت اليهود ١٩٠٧ برأسمال ١٢ مليون جنيه ٠٠ وهذا الامر ظهر في حجم الانتاج فكانت النسبة في ميدانه حوالي ٦ر٥ مليون (يعود للعرب) وحوالي ٢٩ مليون (يعود لليهود) ٠ (ص ٥٦٧) ٠

ومع أن العرب تفوقوا على اليهود في الميدان الزراعي ، من حيث الانتاج الاجمالي ، لا من حيث معدل الدونم الواحد ، فقد تساوى الفريقان تقريبا فى انتاج الحمضيات التى كانت تمثل صادرات البلاد الجوهرية وكانت النسبة ٢ر١٨ مليون جنيه (قيمة ما ينتجه العرب من الحمضيات) مقابل ٦ر١٧ مليون جنيه (قيمة ما ينتجه اليهود) ٠

ووطد هذا التطور الاقتصادي الوطن القومي اليهودي فى فلسطين وساعد على عملية التحول الكيفي في ماهية الجماهير اليهودية الناجم عن التغييرات الكمية ٠٠

ففى نهاية الحرب العالمية ، فى عام ١٩٤٥ كان قد بلغ عدد اليهود فى فلسطين حوالي ٠٠٠ر٦٦٠ وتعمقت ، الى

حد ما ، نتيجة التطورات الاقتصادية والثقافية ، عملية تلاحم أبناء الطوائف اليهودية المختلفة الذين وفدوا الى البلاد • وزاد هذه العملية سرعة ضغوط الحرب العالمية الثانية وسياسة النازية اللاسامية التي خلقت بين اليهود شعورا بالمصير الواحد ••

في هذه الفترة كان من الممكن رؤية التغيير الذى طرا على الجماهير اليهودية فى فلسطين واتضح انهم يسيرون في طريق التبلور القومي بحيث جعل في الامكان القول ان فلسطين تتغير من قطر ذي قومية واحدة ، هي القومية العربية وجماهير يهودية حكمها حكم الاقلية ، الى قطر ثنائي القومية يعيش فيه شعبان : العربي واليهودى ••

سياسة القيادة الصهيونية

عند نشوب الحرب كتب حايم وايزمن الى نيفل تشمبرلين رئيس وزراء بريطانيا :

« نشأت مؤخرا خلافات بين الوكالة اليهودية والدولة المنتدبة في الميدان السياسي ولكننا نرغب في أن تخلي هذه الخلافات مكانها لضرورات الزمن الاكثر الحاحا » (روبرت سانت جون : بن غوريون ص ٧٢) •

وصرح دافيد بن غوريون الذى كان يقترب من القيادة بوصفه زعيم « مباي » القوة السياسية الكبرى في القطاع اليهودي :

« سنحارب الكتاب الابيض كأن لا حرب هناك ، وسنقاتل في الحرب كأن لا وجود للكتاب الابيض » (المصدر ذاته) •

وهكذا يمكن تلخيص سياسة القيادة الصهيونية

خلال الحرب العالمية الثانية بملمحين جوهريين : مقاومة الكتاب الابيض عن طريق تجاوز قيوده على الهجرة وانتقال الاراضي من ناحية .. وتأييد الجبهة المعادية للنازية بشتى الطرق على اعتبار أن دحر النازية سيخلق ظروفا أفضل لتمارس الصهيونية سياستها من ناحية أخرى ..

وقد توقع بن غوريون أن تؤدي الحرب الى قيام الدولة اليهودية فكان يقول : اذا كانت الحرب العالمية الاولى قد جاءت بوعد بلفور فالحرب الثانية ستأتي بالدولة اليهودية » (المصدر ذاته ص ٧٣) .

وانطلقت القيادة الصهيونية في سياستها من مواقعها الجوهرية القائمة على التعاون مع الدول الامبريالية التي تتناقض مصالحها مع مصالح ألمانيا النازية وايطاليا الفاشية واليابان العسكرية ..

وتعمق التمايز داخل القيادة الصهيونية ازاء الدول الامبريالية فى الجبهة المعادية للنازية خلال سنوات الحرب ورجحت شيئا فشيئا كفة القوى الموالية للامبريالية الاميركية .

وقد انتبه الى هذه الحقيقة روبرت سانت جون حين كتب يصف تفكير بن غوريون : « لقد رأى حتى فى حالة كسب الحلفاء الحرب أن بريطانيا ستهبط بوصفها دولة كبرى وستندفع الولايات المتحدة الى موقع قيادة العالم » (كتابه بن غوريون ص ٨٢) .

ومن العوامل التي أسرعت في عملية التحول الى الامبريالية الامريكية ازدياد نفوذ الطائفة اليهودية الامريكية بوصفها أضخم وأغنى طائفة فى الحركة الصهيونية ، خصوصا

وأن الطوائف اليهودية في أوروبا تدهورت وكانت الكارثة النازية تعمل على تصفيتها ببربرية لا مثيل لها فى التاريخ .

وجسم هذا الانتقال من الاعتماد على الامبريالية البريطانية الى الاعتماد على الامبريالية الامريكية المؤتمر الطارىء الذي عقدته « لجنة الطوارىء الامريكية للشؤون الصهيونية » في فندق بلتيمور في نيويورك في أيار ١٩٤٢ وصادقت فيه على برنامج بلتيمور فى نيويورك فى أيار ١٩٤٢ « برسالة أمل وتشجيع الى اليهود في الغيتوات ومعسكرات الاعتقال الهتلرية » ، ويحيي الوكالة اليهودية واللجنة القومية فى فلسطين على انجازات الوطن القومي اليهودى .. ويسجل تحويل الصحارى الى جنات يانعات !! ويدعو – وهذا كان بيت القصيد – الى تنفيذ هدف وعد بلفور الاصلي وهو .. « اعترافا بالعلاقات التاريخية بين الشعب اليهودي وفلسطين تقرر تمكين اليهود كما أعلن ذلك الرئيس ويلسون من اقامة دولة يهودية فيها » .

وطالب القرار – بعدأن رفض الكتاب الابيض ودعا الى الغائه – بفتح أبواب فلسطين أمام الهجرة .. وتحويل الوكالة اليهودية صلاحية ترتيب الهجرة والاستيطان ، كما طالب بتأليف قوة يهودية عسكرية تحارب تحت علمها .. (مجموعة الوثائق التى جمعها ولتر لاكير – ص ٧٨) .

وفي تشرين الثاني ١٩٤٢ أقر المجلس الصهيوني الضيق ، برنامج بلتيمور كما أقرته الوكالة اليهودية وأكثرية الاحزاب في فلسطين بما فيها الحزب الاصلاحي ..

لقد دخلت المنظمة الصهيونية – بعد فترة من الحذر –

المعركة الجوهرية تحت شعارها الاصيل ـ شعار الدولة اليهودية ٠

وحظيت المنظمة الصهيونية بتأييد متعاظم في الولايات المتحدة ٠٠ ونشط الشيوخ والنواب فى الكونغرس الامريكي من أجل اقرار برنامج بلتيمور الداعي الى اقامة الدولة اليهودية فى فلسطين ٠

وما أن جاء عام ١٩٤٤ حتى قدم عدد كبير من الشيوخ والنواب الى الكونغرس الامريكي مشروع قرار يدعو الى هجرة غير محدودة الى فلسطين والى اقامة الدولة اليهودية ٠٠

وفي معركة انتخابات الرئاسة في الولايات المتحدة في خريف ١٩٤٤ نشر الشيخ واغنر نص رسالة كتبها الرئيس الامريكي روزفلت وأعلن فيها تأييده « فتح أبواب فلسطين لهجرة يهودية غير محدودة واستيطان كولونيالي يؤدي الى اقامة دولة يهودية ديمقراطية وحرة في فلسطين » (تقرير فلسطين المجلد ١ ـ ص ٧٠) ٠

وأدى هذا الانتقال من التعاون مع الامبريالية البريطانية الى الاعتماد على الامبريالية الاميركية الى انتقال القيادة من أيدي حايم وايزمن الى أيدي بن غوريون٠

وفى هذا الصدد كتب جيمس واربورغ ان المصادقة على برنامج بلتيمور وضع بن غوريون في مكان القيادة بدل وايزمن (كتابه تيارات متصلبة في الشرق الاوسط ص ١١٠) وشدد الشقة بين الوكالة اليهودية وبريطانيا (المصدر ذاته ص ١١١) ٠

وتوافق هذا كله مع تغيير في سياسة الولايات المتحدة، التى كانت من قبل هذه الفترة تعتبر الشرق الاوسط

وشرق البحر الابيض المتوسط من مسؤولية بريطانيا ولكنها فى الحرب العالمية الثانية بدأت تهتم بالشرق الاوسط وتنتهج سياسة مزدوجة . فالرئيس روزفلت صرح أمام الصهيونيين انه يشاركهم في هدفهم اقامة الدولة اليهودية وفى الوقت ذاته وعد ابن سعود ملك السعودية بأن لا يقوم بأي اجراء يضر بالقضية العربية . (المصدر ذاته ص ١٢١) .

ولكن حين نقرر أن سياسة القيادة الصهيونية اتسمت بملمحين : تجاوز الكتاب الابيض وخاصة قيوده على الهجرة اليهودية الى فلسطين أولا .. وتأييد الحلفاء في محاربة النازية ثانيا ، فلا بد لنا من أن نؤكد ان العنصر المقرر كان تجاوز الكتاب الابيض أو على الاصح تنفيذ المخطط الصهيوني كما فهمته القيادة انذاك .

ولهذا حين ذاعت أنباء جرائم النازية المروعة في تصفية اليهود في معسكرات الاعتقال لم تعمل القيادة الصهيونية على مجرد انقاذ اليهود من الكارثة التى كانت تنتظرهم بل ركزت جهودها جوهريا على تهجير اليهود الى فلسطين بغض النظر عن العواقب المخيفة فى بعض الاحيان .

ولو كانت القيادة الصهيونية تهتم بانقاذ اليهود عامة لاستطاعت انقاذ مئات الالوف .

وفي هذا الصدد أعلن أ. ليفنه فى ندوة طاولة مستديرة عقدتها « معريب » (ونشرت وقائعها بين ١٠ـ٢٤ نيسان ١٩٦٦) . لو كان الهدف انقاذ اليهود لمجرد الانقاذ لا تهجيرهم الى فلسطين .. ولو كرست المنظمات الصهيونية المسلحة جهودها لهذه الغاية لانقذت مليونا من اليهود .

وكان غرق ٢٤٠ مهاجرا غير شرعي في ميناء حيفا نتيجة نسف السفينة « بتريا » في ٢٥ تشرين الثاني ١٩٤٠ أحد الادلة على مدى استهتار القيادة الصهيونية بأرواح اليهود في سعيها نحو أغراضها ٠٠ فالوكالة اليهودية ـ كما يجمع الكتاب الان ـ هي التى نظمت الانفجار في الباخرة لمنع سفرها مع المهاجرين غير الشرعيين الى موريتوس وبذلك سببت هذه المأساة ٠٠ (١)

ويحمل جيمس واربورغ الوكالة اليهودية قسطا من المسؤولية عن غرق السفينة (ستروما) فى البحر الاسود وهي تحمل ٧٦٩ مهاجرا يهوديا ، لم ينج منهم غير واحد ، وكتب ان السفينة ستروما غرقت بعد شهرين من الجدال بين الحكومة البريطانية والوكالة اليهودية ٠ وأضاف : « ولو كانت الاعتبارات الانسانية هي التي حركت الوكالة اليهودية لاقترحت السماح للسفينة بالابحار الى حيفا بينما ناقشت (السلطات البريطانية) حول حق اللاجئين في النزول في فلسطين » ٠٠ أما بريطانيا فكانت تريد أن ترسل « ستروما » الى حيفا ومن هناك الى ماريتوس ٠ (كتابه تيارات متصلبة في الشرق الاوسط ص ١٠٨)

وتكشفت هذه الحقائق أثناء المحاكمة التي دارت حول الزعيم الصهيوني ر٠كاستنر في القدس عام ١٩٥٢ ٠ فحسب قرار المحكمة تعاون كاستنر ـ وكان يرأس لجنة انقاذ

---

١ ـ لاحظ عدد من الكتاب امثال جيمس واربورغ وكريستوفر سايكس ان الوكاله اليهوديه في سبيل تغطية الجريمه اذاعت ان المهاجرين غير الشرعيين حاولوا القيام بانتحار جماعي الا ولكن الحقيقة ظهرت فيما بعد٠ (كتاب كريستوفر سايكس ـ اسرائيل على مفترق الطرق ـ ص ٢٦٩ـ٢٧٠)

اليهود فى هنغاريا زمن الحرب العالمية الثانية مع السفاح النازي أيخمان من أجل انقاذ حوالي ألف من الصهيونيين وأنصارهم من أغنياء اليهود وبذلك سكت عن عملية تصفية ربع مليون يهودي هنغاري أرسلوا ليلقوا حتفهم في معسكرات الابادة ٠

ان التأكيد على الهجرة وتنظيم هجرة غير مشروعة الى فلسطين كان جزءا لا يتجزأ من التخطيط الصهيوني الهادف الى تجميع أكبر عدد ممكن من اليهود ـ والمحاربين خاصة ـ في فلسطين حتى تحين ساعة الحسم العسكري ٠٠

ولهذا أيضا رفعت القيادة الصهيونية في وقت مبكر من الحرب العالمية الثانية ، في عام ١٩٤٠ ، شعار تنظيم الفرقة اليهودية في الجيش البريطاني ورفضت أن تتالف وحدات عسكرية من اليهود والعرب في اطار جيوش الحلفاء ٠٠ (تقرير فلسطين ـ مجلد ١ ص ٥٧) ٠

لقد كانت تريد تدريب أكبر عدد ممكن من المحاربين اليهود بشكل منظم وموحد ليعملوا في الهجانا ـ القوات الصهيونية المسلحة ٠

وكتب في هذا الصدد ولتر بريوس في شيء من الصراحة « كون عدد كبير من الجنود اليهود خدموا في الجيش البريطاني وشاركوا فى معاركه وبذلك تدربوا عسكريا لم نكن بدون أثر على التطورات في السنوات التي سبقت قيام الدولة » (حركة العمال في اسرائيل ص ١٣٢)

وتراوح عدد الجنود اليهود الذين تدربوا في الجيش البريطاني بين ٣٠ـ٤٠ ألف جندي يضاف اليهم أولئك الذين

كانوا يتدربــون فى البلاد بعلم السلطات البريطانية ، أو يعملون في أجهـــزة الامن في البـــلاد ٠٠

وهـــذا يعني أن الصهيونية عندما دقت ساعـــة الحســـم استطاعت أن تعتمـــد على عشرات الالاف مـــن الجنود المدربين ٠٠

وفي الوقت ذاتـــه كان يجري تهريب الســـلاح على قـــدم وساق كما بـــدأت الهجانا في بنـــاء منشآت سريـــة لصنـــع السلاح الممكن صنعه في تلك الظـــروف ٠٠

وفي هـــذه الفترة بالـــذات استخدم البريطانيون رجـــال الهجانا لاغـــراض خاصـــة في أوروبا والشرق الاوسط ٠٠ ومن هذه الاغـــراض محاولـــة اغتيـــال مفتى القدس في بغـــداد (جيمس واربورغ في كتابـــه تيارات متصلبـــة في الشـــرق الاوسط ص ١٠٥) ٠٠ ونســـف مصفاة البترول في طـــرابلس فى لبنان ٠٠ والاستكشاف عند احتلال سوريا ولبنان (٢)

ويحتـــل مكانا خاصا فى الجهاز الحربي السياسى دور المنظمات الصهيونية في اقامة شبكـــات تجسس في الاقطار العربيـــة فى خدمـــة الدول الامبريالية ٠ وفي هذا الصـــدد كتب مؤرخ الهجانا، فى يو ممن الايـــام الدكتور اسرائيل بير : « من ١٩٤١ وبعـــده استخدمت دائـــرة المخابرات البريطانية ، ودائـــرة المخابـــرات الامريكية ودائرة الحلفاء الاستراتيجيـــة أعـــدادا متزايدة مـــن اليهود الفلسطينيين » (مجلـــة فلسطين والشرق الاوســـط ٧ ـ ٨ ـ ١٩٤٦ المجلـــد ١٨)

---

٢ ـ المعروف ان الجنـــرال موشى ديان فقـــد عينـــه خلال احدى العمليات التي امره بها البريطانيون اثناء الحرب العالميه الثانيه في الشرق الاوسط ٠

وأضـــاف ليؤكد أهميـــة هذه الخدمة : « ان الكولونيـــل الامريكي هيملر من دائرة الاستخبارات الامريكية قال : حتى لـــو لم يقم اليهود بغير ذلك (أي الخدمة في دوائر الاستخبـــارات) حتى لو لم يكن لهم ادعاء اخر ، فخدمتهـــم الامينة كسبـــت لهـــم حـــق أن يكونـــوا أمـــة حـــرة في بلادهم » (المصـــدر ذاتـــه ص ١٦٠) .

لقد أسهمت القيادة الصهيونية بالحـــرب العالمية الثانيـــة ولكنهـــا كانت الى جانب خدمتها للدول الامبريالية تنظر الـــى مصالحها العينية وتعد للمعركة القادمـــة .

ولم تمنـــع المشاركـــة في الحرب ضـــد النازية من قيام المنظمات المسلحـــة اليمينية في الحركة الصهيونية بأعمال تخريب وارهـــاب بغية الضغط على الحكومـــة البريطانية لتفتح أبـــواب فلسطين أمام الهجرة وتلغي الكتاب الابيض .

سياســـة الحركـــة القوميـــة العربية

لقـــد خلفت ثـــورة ١٩٣٦ والاحداث التي تلتها ، الحركة القوميـــة العربية بدون قيادتها التقليديـــة التي شردتها الحكومة البريطانية أو هي غادرت البلاد هربا من الاعتقال والقمع ..

وانقسمت هذه القيادة ، فذهـــب نفر منهـــا ، وعلى رأسهم المفتي ، الى برلين النازيـــة ، واعتقلت السلطات اخرين ، مثـــل جمال الحسيني وأمين التميمي ، وأبعدتهم الى روديسيا .. وتهـــاود نفر اخر مـــع الامبريالية البريطانية وعادوا الى البلاد .

وكان الملمح البـــارز في هـــذه الفترة ان الحركـــة القوميـــة العربية كانت هامـــدة خلال سنوات الحرب العالمية الثانية .

ومـــع هذا جرت محاولات بريطانية للاتصال بالقيادة العربية

التقليدية والاتفاق معها على حل للقضية الفلسطينية ..

وذكـــر فى هذا الصدد محمد عزة دروزة في كتابه حـــول الحركة العربية الحديثة أن الكولونيل نيمو كمب البريطاني اتصل فى عام ١٩٤٠ بوزير الخارجية العراقي وعـــن طريقـه بجمـــال الحسيني وموسى العلمي « وتم الاتفـــاق خطيا على التعاون فـــي خطة ايجابية على أساس الكتاب الابيض » على أســـاس البـــدء فـــى المرحلـــة الاولـــى بايجـــاد « مجلســـ مديريـــن ثم يسار فى المراحـــل الاخرى عـــلى ما جاء ذلك فـــي محاضـر مشاورات الوحدة » . (المجلد الثالث ص ٢٤٩) .

ولكـــن اذا كانت القيادة العربية التقليدية قد اتخذت موقفا سلبيا من الحـــرب المعادية للنازية فقد ظهرت علنا على المســـرح السياسي لاول مرة في القطـــاع العربي حركة شيوعيـــة تحـــت اسم : عصبـــة التحـــرر الوطني ، وبدأت تعمـــل تحـــت شعارات : تأييـــد الحرب ضد النازية من ناحية والمطالبة بالحريات الديمقراطية وبالحقوق القوميـــة من ناحية ثانية ، وكان برنامجها الجوهري : الاستقـــلال وانشاء دولة فلسطينية ديمقراطية .

حـــرك نشاط عصبـــة التحـــرر الوطني قيادة الحركـــة القومية التقليدية .. وهكذا فما أن جاء عام ١٩٤٣حتى كانـــت بعض الاحزاب القديمة قد نشطت من جديـــد .

كذلك ظهرت فكـــرة اقامة لجـــان قومية في المدن الرئيسية ولكنها في هذه الفترة المبكرة لم تتعد حيفا .

وتحـــاول المصادر الصهيونية والمحافـــل الغربية التـــي تؤيدها عند كتابتها التاريخ تصوير العـــرب الفلسطينيين وكأنهم أنصار المفتي والنازيـــة ، ولكن الوقائـــع تختلف تمامـــا ..

وتقرير فلسطين (الذى وضعته بريطانيا) يقرر أن مكانة أنصار المفتي هبطت بين الشعب العربي الفلسطيني بعد فشل ما عرف بثورة رشيد علي الكيلاني فى العراق فى أيار ١٩٤١ واصيبت هذه المكانة بنكسة أشد حين فر المفتى ، الحاج أمين الحسينى، الى أقطار محور النازية • (المجلد الاول ص ٦٢) •

وانعكس النشاط الاقتصادي الواسع النطاق في المجتمع العربي الفلسطينى في ميدانين : ميدان العمال •• وميدان البرجوازية العربية •• فقد اتسعت صفوف الطبقة العاملة العربية اتساعا لا مثيل له بدخول عشرات ألوف العمال العرب الى معسكرات الجيش البريطاني للعمل في منشآتها ، كما دخلت بضعة ألوف أخرى المنشآت العربية التى نمت في ظروف الحرب العالمية الثانية •• وأثر هذا التطور فى نهوض الحركة النقابية العربية فقام اتحاد نقابات وجمعيات العمال العرب في حيفا من نقابات عمال النفط وغيرها واستأنفت جمعية العمال العربية الفلسطينية عملها بعد الركود الذي أصابها بفعل القمع البريطاني عام ١٩٣٦ ••

كذلك انتعشت الصناعة العربية بعد أزمة الاضراب العام وثورة ١٩٣٦ وبدأت توطد مواقعها القديمة وتنشيء مواقع جديدة •

وكان لا بد من أن يؤثر هذا الوضع فى الحركة القومية العربية ويغير شيئا من طابعها خصوصا وان العمال بدوا يمارسون نفوذهم في هذه الحركة من مواقع اليسار والوسط ••

ونضجت نتيجة هذا كله فكرة تنظيم حزب برجوازي عصري يتبنى برنامجا ديمقراطيا ويستطيع أن يواجه تحديات

عالم ما بعد الحرب .. وفعلا تنظم هذا الحزب سرا وعرف باسم حزب الشعب وضم في صفوفه البرجوازية وأبناء البرجوازية الصغيرة من أصحاب المهن الحرة وقادة الحركة النقابية الاصلاحية (فى جمعية العمال العربية الفلسطينية)

ولكن هذا الحزب لم يمارس نفوذه عمليا لان صراعا داخليا بين يمينه ويساره عرقل ظهوره خصوصا وأن بعض قادته ترددوا في مواجهة زمرة المفتي التى كانت تحاول اللجوء الى الاغتيال لوقف تنظيم القوى السياسية خارج اطارها .

ولم يكن من الممكن أن تبقى فلسطين فى عزلة عن أحداث المشرق العربى ومن أبرزها اعلان استقلال سوريا ولبنان بعد دخول القوات الحليفة هذين القطرين وتقدم فكرة الوحدة العربية وحركتها لتحتل مكان الصدارة .

وحاولت بريطانيا ركوب الموجة خوفا من أن يسبقها اليها النازيون ولذلك صرح وزير الخارجية البريطاني عند نهاية ثورة رشيد عالي الكيلاني أن حكومته تعطف على أماني سوريا في الاستقلال .. وستؤيد مساعى الدول العربية في سبيل تقوية روابطها الثقافية والاقتصادية والسياسية .

وفي هذه الظروف خطط الموالون للامبريالية البريطانية مشروعا لحل القضية الفلسطينية في اطار خططهم لاقامة شكل من أشكال الوحدة العربية ..

وعرف المشروع بالكتاب الازرق وارتبط باسم نوري السعيد وكان موضع بحث فى لندن والقاهرة في أوائل عام ١٩٤٣ .

ونص المشروع الذى كان شكلا من أشكال مشروعات الهلال الخصيب على أن تتوحد سوريا وفلسطين ولبنان وشرق

الاردن من جديد في دولة واحدة ويقرر الاهالي فيها شكل الحكم أجمهوريا أم ملكيا ٠٠ وتنشأ على الاثر جامعة عربية تنضم اليها العراق وسوريا الموحدة مباشرة وتستطيع أن تنضم اليها الدول العربية الاخرى متى شاءت ٠

ونص المشروع أيضا على أن يكون مجلس الجامعة العربية مسؤولا عن الدفاع والشئون الخارجية والنقد والمواصلات والجمارك وحماية الاقليات ٠٠ وعلى أن يتمتع اليهود في فلسطين بحكم ذاتي ويكون لهم الحق فى ادارة أقاليمهم في المدن والريف بما فيها المدارس والمؤسسات الصحية والبوليس مع الخضوع لاشراف الدولة السورية الموحدة ٠

وأكد المشروع على أن تكون القدس مفتوحة أمام المنتسبين الى كافة الاديان ٠ كذلك قرر أن موارنة لبنان يستطيعون اذا ارادوا ان يتمتعوا بنظام حكم ذاتي مثل الذي ساد فى أواخر الحكم العثماني ٠٠ (الوحدة العربية ـ أحمد طربين ـ ص ٢٦٣ ـ ٢٦٤)

ورفضت القوى الوطنية المعادية للامبريالية المشروع ورأت فيه محاولة بريطانية للسيطرة على سوريا ولبنان ، القطرين الذين أعلنت فرنسا وبريطانيا استقلالهما في عام ١٩٤١ ابان احتلالهما بعد اجلاء قوات فيشي ٠٠ ومخططا لابقاء فلسطين فى قبضة الامبريالية والرجعية العربية المتمثلة في العائلة الهاشمية التي افترض المشروع أن تحتل دفة الحكم ٠٠

كذلك رأت القوى الوطنية فى عزل اليهود في منطقة حكم ذاتي تجاوزا على برنامجها الديمقراطي الداعي الى دولة ديمقراطية فلسطينية يتعاون جميع أبنائها على تطويرها وتقدمها ٠٠

ولم يضع رفض المشروع حدا لفكرة التعاون العربي أو الوحدة العربية ٠٠ واذا كان الكتاب الازرق قد أرتأى من ضمان السيطرة الهاشمية استبعاد مصر ٠٠ فالنشاط الذى أعقب اخفاق المشروع اتخذ مصر محورا له ٠٠

وفي شباط ١٩٤٤ ، بعد أن أجرى رئيس وزراء مصر مصطفى النحاس مشاورات مع رؤساء وزراء أو ممثلى العراق وسوريا ولبنان وشرق الاردن والعربية السعودية واليمن وقع ممثلو تلك الدول العربية بروتوكول الاسكندرية الذى نص على اقامة الجامعة العربية التي نعرفها اليوم (٣) تكون وعاء التعاون والتنسيق العربي ٠٠

والمهم هنا أن هذه المباحثات شملت فلسطين التي مثل حركتها القومية أحد القادة التقليديين موسى العلمي وانتهت بتأكيد مكانة فلسطين فى اطار الوحدة العربية ٠٠ فهى القطر العربي الوحيد الذى نص ميثاق الجامعة العربية في ملحق خاص على انها « أصبحت مستقلة بنفسها غير تابعة لاي دولة منذ نهاية الحرب العالمية الاولى » ٠٠ وان لم تكن قد تولت أمرها « فوجودها واستقلالها الدولي من الناحية الشرعية أمر لا شك فيه ، كما انه لا شك في استقلال البلاد العربية الاخرى ، واذا كانت المظاهر الخارجية لهذا الاستقلال ظلت محجوبة لاسباب قاهرة فلا يسوغ أن يكون ذلك حائلا دون اشتراكها في أعمال مجلس الجامعة » ولهذا قررت الجامعة أن تختار هي مندوبا عربيا من فلسطين للاشتراك في أعمال المجلس الى أن يتمتع القطر بممارسة استقلاله ٠

وأكد هذا التطور نمو التضامن العربي ولكنه في

٣ ــ طبعا انضمت اليها فيما بعد الدول العربيه الاخرى عند استقلالها ٠

تجسيده التنظيمي « اغتصب » الى حـــد ما دور الحركة القوميـــة العربيـــة فى فلسطين ..

فبعد قيام الجامعة العربيـــة لم يعـــد من الممكن استبعادها عن تطـــورات القضية الفلسطينية بل هي بـــدأت تتدخل عمليـا في بناء القيادة القومية وتؤثـــر فى نهجها . واذا أخذنا بعيـــن الاعتبار أن عناصر الامبريالية كانت نافـــذة فى هذه المنظمـــة استطعنا أن ندرك الاثار السلبية على تلك التطـــورات ..

ومـــع هذا فلا بد من رؤية الناحيتين : ناحيـــة التضامـن العربي واثارة الايجابيـــة على مجموع الحركات القومية العربيـــة ومنها الحركة القومية العربية في فلسطين .. وناحيـــة ممارسـة الدول العربية تأثيرا سلبيا في بعض الاحيـــان .

وحين انتهت الحـــرب العالمية الثانيـــة كانت الحركـــة القومية العربية قد تخلصـــت من جمودها .. لقد كانت الاحزاب التقليدية قد عادت الى الميـــدان وبدأت تستعد لايام ما بعـــد الحرب التي لاحت نهايتها في الافـــق .

لقـــد ترك وجود بعض قادة الحركـــة القومية العربيـــة التقليديين فى اقطـار المحور اثره السيء في مسيرة الكفاح القومى ، خصوصا وان هـــؤلاء القادة كانوا من غـــلاة الرجعيين ولـــم يدركـــوا التطورات التي حصلت في العالم وضرورة تخطيـــط برنامـــج ديمقراطي لحـــل قضية فلسطين بحيث يأخـــذ بعين الاعتبار حقوق الشعب اليهودى فى فلسطين .

أزمـــة الامبريالية العامة بعد الحـــرب العالمية الثانيـــة

انتهت الحـــرب العالميـــة الثانية في أيار عام ١٩٤٥ باندحار ألمانيا النازيـــة وايطاليا الفاشيـــة واليابان العسكريـــة فكـان

ذلك ضربة ضخمة نزلت بالنظام الامبريالي العالمي ودفعا جديدا وضع الاتحاد السوفياتي ـ الذى قام بدور حاسم فى دحر المحور النازي ـ في مكان الصدارة على الصعيد الدولى·

وعمقت هذه الضربة الضخمة أزمة الامبريالية خصوصا وقد انطلقت بعد الحرب موجة جارفة من النضال القومي التحرري ·

ولم يعد من الممكن بقاء النظام الامبريالي على حاله ·· فقد أخذ يتداعى ··

وفي فلسطين تسارعت وتيرة التطورا باحتدام النضال لانهاء النظام الامبريالي البريطاني فيها ·· واشتدت الضغوط من أجل حل القضية التى ازدادت تعقيدا لوجود الاف اللاجئين اليهود من بقايا معسكرات الاعتقال والابادة الهتلرية في أوروبا ·· ولاحتدام التناقضات الانجلو ـ أمريكية بعد فترة من « التفاهم »

وجدير بالذكر في هذا الصدد ان وايزمن يروي في كتابه « التجربة والخطأ » ان تشرشل استدعاه في ١١ اذار ١٩٤٢ وقال له : « أريد ان تعرف أن لدي خطة يمكن أن توضعموضع التنفيذ بعد الحرب · أود ان ارى ابن سعود سيد الشرق الاوسط أي سيد الاسياد على شرط أن يتفق معكم ، ويعتمد عليكم أن تحصلوا على أفضل الشروط (بالاتفاق معه) ·· سنساعدكم طبعا · احتفظ بهذا سرا ولكنك تستطيع أن تتحدث مع روزفلت حين تذهب الى أمريكا · لا شيء لا نستطيع تحقيقه اذا صممنا أنا وهو سويا عليه » (ص ٤٢٦) ·

ويضيف وايزمن أن موضع سر ابن سعود ، وكان أنذاك جون فيلبي ، أكد له المخطط ذاته (ص ٤٢٨) •

ولكن هذا الشعور بالتوافق الذى أحس به تشرشل في مطلع ١٩٤٢ تبدد في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية وظهر التناقض على أشده بين الامبرياليين الامريكيين والبريطانيين حين طالب الرئيس الامريكى هاري ترومان ، الذى ورث روزفلت اللاجئين بادخال مئة الف مهاجر يهودي من اللاجئين الى فلسطين

وهنا مرة أخرى استغلت الصهيونية حالة هؤلاء اللاجئين من يهود أقطار أوروبا الوسطى وضحايا النازية لتضغط على بريطانيا لتقبل بادخال المئة ألف •

ولاحظ جيمس واربورغ هنا أيضا أن الصهيونية لم تكن تهتم بحالة هؤلاء اللاجئين بقدر اهتمامها بتهجيرهم الى فلسطين (باعتبارهم قوة احتياطية لقواها العسكرية)

وكتب أن ترومان فكر في فتح أبواب الولايات المتحدة للهجرة اليهودية ولكن المدة لذلك كانت ستكون طويلة نسبيا ، وأضاف أن هذه المدة كان يمكن تقليصها لو أن المنظمات ، التي كانت تضج بالمطالبة فى تهجير هؤلاء اللاجئين الى فلسطين ، حولت ولو جزءا من جهودها لفتح أبواب الولايات المتحدة أمامهم • (تيارات متصلبة في الشرق الاوسط ص ١٢٨) •

وبديهي أن ترفض بريطانيا طلب الولايات المتحدة وهي التى قررت ، ازاء المنافسة الامريكية وضغوط حركات التحرر القومي العربية ، أن تهاود الحركة القومية فى فلسطين ولا تتحداها بفظاظة •

وعلى هذا الضوء كان تأليف اللجنة الانجلو ـ أمريكية في تشرين الثاني ١٩٤٥ من ١٢ عضوا ، مناصفة بين الدولتين محاولة لتسوية الصراع الامبريالي بينهما ..

وبحثت اللجنة ، كما طلب منها ، الاوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية في فلسطين ، بقدر تأثيرها على الهجرة اليهودية . .. كما فحصت وضع اليهود في أقطار اوروبا حيث كانوا ضحايا التعذيب النازي وخرجت بتوصية تدعو الى ادخال مئة الف مهاجر يهودي حالا وتسهيل الهجرة فيما بعد بخلق ظروف ملائمة لذلك . كما أوصت بالغاء القيود تقريبا على بيع الاراضي العربية وبفرض وصاية على فلسطين على أن يكون الحل السياسي فيما بعد دولة ثنائية القومية .

وبهذا التقرير الذى صدر في ٣٠ـ٤ـ١٩٤٦ فشلت محاولة التسوية الانجلو ـ أمريكية وبدأت فترة المشاريع البريطانية.

ومع هذه المشاريع التى عرفت بأسماء أصحابها مثل مشروع موريسون وبأسماء طابعها : الكانتونات ، قامت بريطانيا بمحاولة أخرى لصياغة حل يصون مصالحها .. ولهذه الغاية عقدت مؤتمرا جديدا فى لندن بين آب ١٩٤٦ وكانون الثانى ١٩٤٧ اشترك فيه ممثلو الدول العربية المستقلة في المشرق العربي ووفدا الحركة القومية العربية في فلسطين .. والوكالة اليهودية .

واخفق المؤتمر .. لان الحلول المقترحة أخذت مصالح بريطانيا بعين الاعتبار ولم تأخذ مصالح الشعبين عاملا مقررا للاسراع فى التسوية .. ولذلك لم يشمل أي من هذه المقترحات تصفية الانتداب عامة في فلسطين وجلاء القوات الاجنبية عنها ـ وهما شرطا التسوية العادلة المتوافقة

مع مصالــح الشعبين العربي واليهودى ·

وأدرك الشيوعيون اليهود والعــرب ان الحل الديمقراطـي يقــوم على هذين الشرطين ودعــوا الى اقامة جمهورية فلسطينيـة ديمقراطيــة مستقلــة ونادوا باحالــة قضية فلسطين الى الامـم المتحــدة لاخراجها من الطوق الامبريالــي الذى مثلتــه اللجنـة الانجلــو ـ أمريكية ·

وتميــزت السياسة الصهيونية في هذه الفتــرة بأمرين : التمســك بالانتداب ومقاومــه احالة قضية فلسطيــن الى الامم المتحــدة من ناحيــة ، ومحاولــة التحالـف مع الامبرياليـة من ناحيــة ثانيــة ··

وصرح ناحوم غولدمان رئيس المؤتمــر الصهيونـي فـــى ٢٤ـ١٠ـ١٩٤٦ : « الصهيونيون على استعــداد لمنــح بريطانيـا حقوقا كاملــة لاقامة قــواعد عسكريــة وبحرية وجويــة في فلسطين مقابــل موافقتها على اقامــة دولة يهودية في ٦٥٪ مــن مجمــوع أراضي فلسطين · وسنقتــرح اقامــة قواعد للولايات المتحــدة ·· ان وضع القضيــة الفلسطينية على جــدول أعمـال الامم المتحدة سيؤخـر الحــل فقط » ·

وصــرح زعيم صهيوني اخر في اجتمــاع صحفي فـــي تل أبيب في ٢١ـ٨ـ١٩٤٦ : « من واجبنــا أن نقنع البريطانيين والامريكيين ان الاعتبارات الاستراتيجية هي التى تجعــل السكان اليهود الاحــرار فى فلسطين ربحا لا خسارة فى النضــال بيــن العالم الانجلو ـ ساكسوني والعالــم الروســي ··· علينــا أن نقنــع الانجليز أن مصلحــة الجيش البريطانى تطابــق مطالب الصهيونية يجب أن نكــون وصلــة في الحلقــة الانجلــو ـ أمريكية » ·· وصرح بن غوريــون لريتشارد كروسمان : « اذا

وافـــق البريطانيون على اقامـــة دولة يهودية في جزء من فلسطين فنحن على استعـــداد لاعطائهم قاعدة ضد روسيا » ٠

وفي الوقت ذاتـه كشفت القيـادة الصهيونية عـن توجههـــا الكولونيالي في رفضهـــا محـــاولات بريطانيا ـ في سبيـــل توطيد مواقعها في البـــلاد ـ التهاود مـــع ممثلي الحركة القوميـة العربيـة التقليديـيـــن فكتبت : « هامشكيف » صحيفة الاصلاحيين اســـلاف « حيروت » في ١٩ـ٥ـ١٩٤٥ « ان جميـــع مشاريـــع الاستعمـــار (الاستيطان الكولونيالي) التي قام بهـا الانجليـــز والامريكيون والفرنسيون والهولنديون في العالـــم ، كان يقابلهـا سكان البـــلاد الاصليـــون بالمقاطعـــة الشديـــدة اذ ان ذلك هو الطبيعي ٠٠ ولكن هل تراجع المستعمرون أمام هذه المقاومـة ؟ »

وكتبت « دافار » صحيفـــة النقابـات « والاشتراكيـــة الديمقراطيـــة » الصهيونية في اليوم ذاتـــه : « اذا كان العالـــم في كل محاولـــة قام بهالتحويـــل الصحاري الى أرض خصبة (!) انتظـــر قبل ذلك موافقـــة قاطني الصحراء القلائـــل فان المدنية ما كانت لتنتصر على التأخر في أي موقع (من العالـــم) » ٠

واضطـــرت بريطانيا الى اللجوء الى الامـــم المتحدة ، وأكدت تصريحات المسؤولين وانها اعتقـــدت بعجز المنظمة الدولية عـــن تسويـــة القضية خصوصا وانها رفعت شعـــار « تفاهم » العـــرب واليهود شرطا لهذه التسويـــة ٠٠

وفي اجتماع طـــارىء عقد في ايار ١٩٤٧ قـــررت هيئـــة الامم المتحدة تأليف لجنة تحقيـــق دولية تألفت من السويد وكندا واستراليا والهند وبيـــرو وهولندا وايران وتشيكوسلوفاكيـــا ويوغسلافيا وجواتيمالا واورغواي وضعت عليها واجـب البحـــث

والحل ، وزارت اللجنة فلسطين واستمعت الى شهادات قادة الصهيونية وغيرهم • أما قادة الحركة القومية العربية التقليديون فقاطعوا اللجنة وبذلك عمقوا طابعهم الرجعي أمام لجنة التحقيق الانجلو ـ أمريكية التي كانت محاولة ابقاء القضية الفلسطينية في اطار الامبريالية ورفضوا الشهادة أمام لجنة دولية تمثل أيضا قوى خرجت عن ذلك الاطار

والاخطر من هذا أن تصريحات هؤلاء القادة تركزت على شعار الدولة الفلسطينية العربية ولم تأخذ بعين الاعتبار حقيقة التحول الديموغرافي الذى طرأ على البلاد أو تؤكد طابع الدولة الديمقراطي المقترحة •

لقد أخفقت هذه القيادة بسبب مهاودتها الامبريالية وماهيتها الرجعية فى الارتفاع الى مستوى الاحداث ومواجهة الصهيونية التى استغلت الى أقصى حد الكارثة التى حلت بيهود أوروبا لتكثف عطف الرأي العام على برامجها وخططها •

بل ان هذه القيادة رفضت الموافقة حتى على دعوة الجامعة العربية الى اقامة دولة فلسطينية غير مجزأة مستقلة استقلالا تاما تشكل فيها حكومة ديمقراطية حسب دستور يضعه مجلس تأسيسي منتخب يحفظ حقوق اليهود المدنية والدينية والثقافية • وأصرت على الدولة العربية وأعلنت انها تعترف بمواطنة اليهود الذين كانوا في فلسطين قبل وعد بلفور •

وقررت اللجنة الدولية بأكثريتها تقسيم فلسطين الى دولتين عربيية ويهودية • أما أقليتها فدعت الى اقامة دولة ثنائية القومية اتحادية الشكل ••

ولعل اللجنة في هذا اقتنعت بموقف ممثل الاتحاد

السوفياتي أندريه غروميكو فى اجتماع الامم المتحدة الطارىء انذاك أعلن ان الحل الامثل هو قيام دولة مستقلة في فلسطين أما اذا ظهر ان العلاقات السيئة بين العرب واليهود تجعله مستحيلا فلا مناص من التقسيم •

وفي ٢٩ تشرين الثاني ١٩٤٧ في اجتماع الجمعية العامة العادي قررت هيئة الامم المتحدة انهاء الانتداب وتقسيم فلسطين الى دولتين عربية ويهودية ، حسب خرائط قررت سلفا كما قررت تدويل القدس ، وتعاون الدولتين اقتصاديا ••

وبذلك فتحت صفحة جديدة في قضية فلسطين •

ملاحظة

لقد انهيت هذه المقالات عند قرار التقسيم لان تنفيذه كان بداية مرحلة جديدة في قضية فلسطين ، تميزت في انها أصبحت قضية علاقات بين اسرائيل والدول العربية أيضا

ففي أعقاب هذا القرار وقعت الحرب الفلسطينيه وقامت اسرائيل على رقعة أوسع من الرقعة التي افردت لها •• وادى قيامها الى تشريد مئات الالاف من أبناء الشعب العربي الفلسطيني الذى حرم من ممارسة حقه في تقرير المصير •• ونشأت قضية أزمة العلاقات بين الدولة الجديدة والاقطار العربية ••

وكان هذا استمرار عضوي للقضية الفلسطينية ولكنه استمرار في ظروف جديدة •• تؤلف وحدة مترابطة •

وهذه « الدراسات » لم نخطط لها •